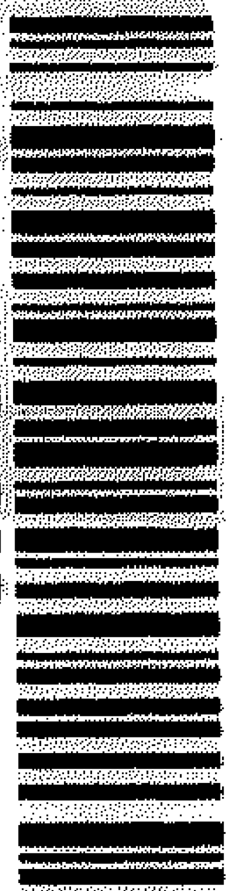
د. محمد ابراهيم حوّر







الطفل والتراث

مدخل لدراسة أدب الأطفال في الأدب العربي القديم

المؤلــف :

- محمد إبراهيم حور (فلسطين) - ١٩٤٦.
- حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة «عين شمس» عام (١٩٧٧).
- عمل مدرساً وأستاذاً مساعداً وأستاذاً في جامعات «الجزائر - ليبيا - الإمارات العربية المتحدة».
- عمل في جامعة الإمارات العربية المتحدة رئيساً لقسم اللغة العربية ثم وكيلاً لكلية الاداب وقائما بأعمال العميد ثم عميداً للكلية ذاتها.
- له العديد من الدراسات والبحوث والتحقيقات المنشورة في الأدب العربي قديماً وحديثاً، كما له في نقد بعض الكتب الأدبية مساهمات وآراء.
- ترأس عدداً من لجان الإعداد والتنظيم لندوات علمية وثقافية.
- يتمتع بعضوية عدد من اللجان الثقافية والعلمية بالدولة.
- شارك في العديد من المؤتمرات والندوات العلمية والأدبية والتي عقدت في بعض أقطار الدول العربية كباحث ومعقب.
- عمل أميناً لتحرير مجلة كلية الاداب بجامعة الإمارات ثم رئيساً لتحريرها، كما أنه مستشار لمجلة «شؤون إجتماعية» (جمعية الاجتماعيين) ومجلتي دراسات وشؤون أدبية (اتحاد كتاب وأدباء الإمارات).

الطفل والتراث

د. محمد ابراهيم حوّر

الطفل والتراث

دائرة الثقافة والاعلام

الطبعـــــة الأولــــــى
١٩٩٣

الغلاف: عبد اللطيف العمودي

إهداء

إلى فلذة كبدي ..

يوسف ، وعمر ، ويزن

وقرة عيني ..

أسماء ، وهيفاء

أُنْسُ الحاضر ،

وأملُ المستقبل

تقديم

هذه أربع دراسات تدور حول محور واحد هو الطفل. وهي تتدرج تـدرجـاً منطقياً في التناول والمعالجة. فـالأولى تعنى بـالبـواكير الأولى لأدب الأطفـال في الأدب العربي القديم. والثانية تعالج مـوضـوع تـربيـة الأبنـاء في الفترة ذاتهـا. والثالثة تعرض للرؤية الثقافية للطفل العربي ومكـونـاتهـا. أمـا الـرابعـة فكـان موضوعها رثاء الأبناء في الشعر العربي القديم.

وإن المادة في مجملها يغلب عليها الطابع التراثي المتصل بالطفـل. وهـو أمـر مقصود لذاته، إذ إنني عنيت بهذا الجانب منـذ زمن، وكـان يحـدوني الأمـل في الكشف عن جـانبين مهمين: أولهـما: لفت النظـر لجـوانب في تـراثنـا الأدبي والفكري، لم تحظ بالدرس والبحث الكافيين، وفي مقدمة هذه الجـوانب الأدب المتصل بالطفل، وثانيهما: التنبيه إلى أن هناك مناهج، وأساليب في تـراثنـا عني بها الآباء والأجداد كرست للطفل. وان في التعريف بهـا، فـائدة غير قليلـة في تنشئة الطفل العربي المعاصر، بعد أن تنازعته الثقـافـات، وتـاهت بـه السبـل، بأجهزة الإعلام المعاصرة. وبعد أن حار المربون، في مواجهة هذا السيل الجارف في الثقافات الوافدة، والتي بات من الصعب الفـرز والتصنيف فيهـا، لـلأخـذ بالمفيد، والابتعاد عن غير المفيد.

أقول: كان الأمل يحدوني أن يتحقق لي شيء من هذين الأمرين. وإنني أشعر بارتياح تام للمادة التي توافرت لدي، وللموضوعات التي عالجتها بها. ولي أمل ورجاء أن يجد الدارسون ما وجدته فيها، وأن يتجهوا لاستكمال الدرس، أو معالجة النقص، واستقصاء المادة في عصور الأدب العربي المختلفة، لتأصيل أدب عربي معني بالطفل في القديم والحديث. وما هذه الدراسات إلا مدخل لذلك، ولبنة على طريق بناء الطفل العربي المتمكن من عقيدته، المعتز بعروبته، المنفتح على الفكر الإنساني بعقل واع، وأساس متين. وبالله التوفيق.

محمد إبراهيم حوّر

العين في أول رمضان المبارك ١٤١٢هـ

الموافق الثالث من مارس (آذار) ١٩٩٢م

الطفل والتراث

مدخل لدراسة أدب الأطفال
في الأدب العربي القديم

كان الأدب، وما زال، ابن بيئته، يصور واقعها، ويعكس خصائصها التي تميزها عن غيرها من البيئات، ويخاطب وجدان مجتمعها. وقد جسد الأدب العربي هذه الحقيقة عبر عصوره المختلفة، بل كان في مرحلة ما يشكل فنَّه الرئيس، ديوان هذه الأمة، يحفظ تاريخها، ويشهد على قيمها ومثلها وعلى أصالة أهلها. وفي كل عصر تتطور فنون، ويأفل نجم أخرى وتستحدث فنون تبعاً لطبيعة التطور في المجتمعات، ولحاجاتها الملحة. وفي عصرنا الحديث، طرأ على أدبنا العربي تطور وتطوير: تطور الأدب بأن تخلص من كثير من الآفات التي كانت عالقة به، كالتكسب، واللهو، والتقليد البعيد عن الأصالة وعدم تمتع الأديب باحترام النفس الذي يدعو الآخرين لاحترامه. . . . وتطور الأدب العربي بالفنون الجديدة التي لم يكن له نصيب يذكر منها بخصائصها الفنية المتعارف عليها في وقتنا الحاضر، كالقصة والرواية والمقالة والمسرحية.

وأصاب أدبنا العربي تطوير في مضامينه وقضاياه، إذ باتت متصلة بالمجموع، بعد أن كان يغلب عليها الاقتصار على الفرد. وأصبح الأديب في عصرنا ـ على الأغلب ـ ذا موقف وقضية، بعد أن كان ـ في الأغلب أيضاً ـ يتهم بالتكسب، ويتحلل من المواقف الحادة. وطرأ تطوير على فن العربية الأول الشعر في الشكل والمضمون.

وشغلت العصر وأدباءه قضايا مهمة، كرس لها جانب من الدراسات والبحوث، وترددت الدعوات إلى المبدعين للمشاركة في هذه القضايا بمعالجتها.

ووقف في مقدمتها الطفل بوصفه أمل المستقبل، وهو الذي يعول عليه في تحقيق ما عجز الجيل الحالي عن الوصول إليه. وكان لا بد أن يهيأ لهذا الطفل كل الظروف التي تساعده على أن يكون ابن عصره، وأن يقدم له ـ أول ما يقدم ـ الأدب الذي يخاطب وجدانه وعقله، يتناسب معهما في سني عمره المختلفة. وترددت أقوال وآراء حول هذا الأدب العربي المتصل بالطفل. هل هو فن جديد منبت الصلة بالتراث، أم أن له جذوراً قديمة، ومقدمات مهمة، يمكن أن تستلهم أو أن يستفاد منها لاثرائه وتطويره؟

إن هذه الورقة، تحاول لفت النظر إلى جوانب في التراث غنية، تتصل بالطفل بصفة مباشرة وغير مباشرة. وإن كاتبها أميل للأخذ بالرأي الذي يؤكد وجود مثل هذا الأدب في تراثنا الأدبي مع ملاحظة أنه أدب له ظروفه وطبيعته التي تتصل ببيئاته وعصوره. وان مادته تصلح أن يستفاد منها في أدب الأطفال الذي يعد في وقتنا الحاضر، بما اشتملت عليه من قيم سامية، وقصص طريفة.

وقد جاءت الورقة في ست فقرات وملحقين: تحدثت في الفقرة الأولى عن مفهوم الطفولة في أدبنا العربي، وعن متطلباتها عند العرب. وكانت الفقرة الثانية حول اهتمام العربي بالطفل وتربيته وتنشئته. وكانت الفقرة الثالثة حول مفهومي الأدب: ما أعد للطفل وهو أدب أطفال، وما تحدث عن الطفل، وهو غير ذلك. أما الفقرة الرابعة، فتحدثت عن فهم العرب لأدب الأطفال وخصوصيته، وأنه مختلف عن أدب الكبار. أما الفقرتان الخامسة والسادسة فتحدثتا عن جانب من الأدب العربي الذي أعد للطفل في تراثنا. واشتمل الملحق الأول على نماذج من النصوص التي يمكن الاستئناس بها في التراث الأدبي عند العرب، وهي ألصق بالأطفال منها

بغيرهم. أما الملحق الثاني فذكرت فيه عدداً من المصادر التي عنيت بـأدب الأطفـال في تراثنا، وقد حرصت على ذكر الكتاب ومؤلفه وسنة وفاته، ومكان نشره وتاريخه ليسهل الرجوع إليها.

ولا يفوتني أن أشير إلى أنني عنيت في هذه الدراسة بالأدب العربي الخالص، ولم أستعن بالأدب المترجم، لأننا في مرحلة التأصيل والتأسيس، ولـذلك فـإن العنـايـة بالجانب الآخر تأتي في مرحلة تالية. وبالله التوفيق.

(١)

إن من يستعرض الصفات التي أطلقت على الإنسان في مراحل حياته المختلفة في اللغة العربية يجدها كثيرة كثرة تلفت النظر، وتدعو للتأمل في تلك الدقة التي فرقت بين مرحلة من العمر وأخرى، وجعلت لكل مرحلة أحكاماً تجاه المرء مغايرة لما يختلف عنها.

فعندهم الصبي، والطفل، والغلام، والفتى، والشاب، والشيخ، والكهل. وقد ترسخ في أذهان القوم دلالات لكل تسمية منها: فالكهولة تشي بالهرم، والشيخوخة ارتبطت بالوقار، والشباب اتصل بالقوة، والفتوة أوحت بالطيش، والغلام نم على بداية معاشرة الرجال. واحتال القوم في تحديد السن التي تفرق بين صفة وأخرى إلا أنه كلما تقدمت السن بالمرء زاد التباين في تقديرهم.

أما الطفل والصبي، فهما مترادفان تقريباً في اللغة، جاء في لسان العرب: يقال رأيته في صباه أي في صغره. والصبي، من لدن يولد إلى أن يفطم(١).

والطفل والطفلة: الصغيران. والطفل: الصغير من كل شيء. والصبي يدعى طفلاً حين يسقط من بطن أمه إلى أن يحتلم(٢).

---

(١) لسان العرب، مادة (صبا).

(٢) المصدر السابق، مادة (طفل).

ويؤكد هذا التقارب في مفهومي الطفل والصبي عند العرب ما جاء في القرآن الكريم حولها، إذ المعنى هو هو. قال تعالى: ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة، وآتيناه الحكم صبياً﴾(١).

وقال جل شأنه في سورة مريم عن عيسى عليه السلام: «فأشارت إليه، قالوا: كيف نكلم من كان في المهد صبياً»(٢).

ومفهوم الطفل في القرآن الكريم مذ يولد إلى أن يحتلم قال تعالى: ﴿ونُقرُّ في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً﴾(٣). وقال سبحانه ﴿هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلاً﴾(٤) وقال جلَّ شأنه ﴿وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا﴾(٥).

لقد اتفق المعنى المعجمي مع المعنى القرآني لمفهوم الطفل فهو مذ يولد إلى أن يبلغ الحلم. ولا يكاد الحديث النبوي الشريف يند عن هذه الدائرة حين وجه النبي الكريم ﷺ في رعاية الابن وتربيته فقال: «إذا بلغ أولادكم سبع سنين فمروهم بالطهارة والصلاة، وإذا بلغوا عشراً فاضربوهم عليها، وإذا بلغوا ثلاثة عشر ففرقوا بينهم في المضاجع»(٦).

والجديد في الأمر أن النبي ﷺ عدَّ السنين السبعة الأولى من حياة الطفل للتكوين والرعاية التي لا يتحمل فيها الطفل مسؤولية، أو يؤاخذ على تربية أو تعليم. أما

---

(١) سورة مريم، الاية ١٢.
(٢) الآية ٢٩.
(٣) سورة الحج، الآية ٥.
(٤) سورة غافر. الآية ٦٧.
(٥) سورة النور، الآية ٥٩.
(٦) محاضرات الادباء ١: ٣٢٧.

وقد بلغ سبع سنين فهو جدير بالتعليم والتوجيه.

وقد سار العرب الأوائل على هذا النهج، وأثرت عنهم أقوال تؤكد هذا وتأخذ به، فقالوا: «لاعب ابنك سبعاً، وعلمه سبعاً، وجالس به إخوانك سبعاً، يتبين لك أخُلفٌ هو بعدك أم خَلَف»(١).

وقالوا: «ابنك ريحانك سبعاً، وخادمك سبعاً، ووزيرك سبعاً، ثم هو صديق أثير أو عدو كبير»(٢). ويؤخذ من هذين النصين ما يتفق مع الحديث النبوي الشريف، إذ نصا على أن السنين السبع الأولى هي للمتعة والملاعبة، ويكفي أن تنظر إلى ما تشيه لفظة «ريحانك» لتتعرف على شعور الآباء تجاه أبنائهم في هذه السن، وأما السبع الثانية فهي للتعليم والتكوين، وواضح التقارب بين الثالثة عشرة والرابعة عشرة، كما جاءت الأولى عند النبي ﷺ والثانية كما هي بعد ذلك.

وقد كانت السنين المبكرة في عمر الطفل مصدر عطف ورعاية على الأطفال من قبل العرب القدماء، وذلك لما أدركوه من قصور في تكوينهم وفي قدرتهم على التمييز بين الصواب والخطأ، أو الحق والباطل، أو ما يجوز اقترافه من أعمال، وعدم اقترافه، وأكثروا من الأمثال والقصص التي تصور هذه القناعة.

فالأطفال مصدر ضعف لآبائهم، يضطرونهم إلى أن يقفوا مواقف يأنفون منها لولاهم، ويجعلونهم في حالة من القلق والخوف عليهم، ولذلك رأينا شاعرنا يقول:

يقر بعيني وهو ينقص مدتي
مرور الليالي كي يشب حكيم

(١) محاضرات الادباء ١: ٣٢٨.
(٢) التمثيل والمحاضرة ٤٥٩.

مخافة أن يغتالني الموت قبله
فينشو مع الصبيان وهو يتيم(١)

فمصدر خوف الشاعر أن يغتاله الموت وابنه ما زال طفلاً صغيراً لا يقوى على الاعتماد على النفس ومواجهة الحياة، وما يصاحب هذا من يتم وكفى به مذلة وضعفاً.

ولا يختلف الشعراء كثيراً في المحصلة النهائية عن شاعرنا السابق، حين يضطرهم أولادهم وهم صبية صغار إلى أن يكسبوا بشعرهم، ويريقوا ماء وجوههم، وهم يمدحون من ليس أهلاً لمدح، بل هم للهجاء أولى وأجدر. ولكن ماذا يفعل هؤلاء الشعراء وهو يرعون ويسهرون على صبية صغار (وجوههم كأنها أقمار) قال شاعرهم:

والله لولا صبية صغار
وجوههم كأنها أقمار
لما رآني ملك جبار
ببابه ما طلع النهار(٢)

وصاحب العطف، ذكرهم في أحاديث كثيرة لهم - شعراً ونثراً - بينت بساطة الطفل في تفكيره، ودعوا إلى ضرورة تحاشيه أو التعامل معه في مواطن الجد، أو المجالس العامة، لأنه لا يدرك عواقب أفعاله أو أقواله، ولذلك رأينا الشاعر يقول في معرض حديثه عمن يفعل فعلاً، لا يدرك نتائجه، وهو الطفل:

كعصفورة في كف طفل يسومها
ورود حياض الموت والطفل يلعب(٣)

(١) محاضرات الادباء ١: ٣٢١.
(٢) المصدر السابق.
(٣) التمثيل والمحاضرة ٢٢٠.

وقريب من هذا قالوا في أمثالهم، «اتق الصبيان لا تصبك بأعقابها»(١).

وقالوا: «الصبي أعلم بمضغ فيه»(٢) وفي هذا المثل تصوير حقيقي لموقفهم من الطفل ومستواه العقلي، ومدى استيعابه لما يدور حوله، ولذلك كان احترازهم الشديد في التعامل معه خارج محيط الأسرة. فقالوا: «لا تعطين الصبي واحدة فيطلب اثنتين»(٣) وغير ذلك كثير(٤). ولم يتوقف بهم الأمر عند هذا الحد وهم يتكلمون على الأطفال، بل انسحب الحديث على معلميهم، فرأوا أن معلمي الأطفال تغلب عليهم سمة الغفلة والبلادة، وعزوا ذلك إلى معاشرة الصبيان. جاء في أخبار الحمقى والمغفلين، باب في ذكر المغفلين من المعلمين، واقتصر فيه الحديث على معلمي الصبيان، والعجيب أن المؤلف رأى أن حالة الغفلة لمعلمي الصبيان حالة مطردة قل أن تخطيء، وما وجد تعليلاً لها «إلا معاشرة الصبيان»(٥).

ومع ما في هذا الرأي من إجحاف في حق المعلم، وانسجام في نظرتهم للطفل ومستوى تفكيره، إلا أن المعلمين لم يعدموا من ينصفهم إذ انبرى غير واحد من الأدباء والمفكرين مدافعاً عنهم، إدراكاً منهم للدور الذي يقومون به، ولأن معظمهم تعانى هذه المهنة وعرف قدرها من جهة، وما يعانيه صاحبها من جهة ثانية. ويقف في مقدمة هؤلاء الجاحظ الذي صنف المعلمين إلى أضرُب اتصلت بأولاد العامة، والخاصة، والملوك المرشحين للخلافة، كما أتى على نماذج من المعلمين الكبار الذين لهم صيت ذائع في العلم والمكانة، واستهجن أن يقال لهم حمقى

(١) المصدر السابق.
(٢) نفسه ٢١٩.
(٣) نفسه.
(٤) ينظر في هذا المصدر السابق ٢١٩ ـ ٢٢٠.
(٥) أخبار الحمقى والمغفلين ١٤٠.

أو مغفلين. ولم ينس الجاحظ أن يشير إلى أن لكـل طبقـة كـرامهـا وسفلتهـا. ومـا المعلمون إلا طبقة من هذه الطبقات، انظره يقول: «والمعلمون عنـدي على ضربين: منهم رجال ارتفعوا عن تعليم أولاد العامة إلى تعليم أولاد الخاصـة. ومنهم رجـال ارتفعوا عن تعليم أولاد الخاصة إلى تعليم أولاد الملوك أنفسهم المرشحين للخلافـة.

فكيف تستطيع أن تـزعم أن مثـل علي بن حمـزة الكسائي، ومحمد بن المستنير الـذي يقال له قطرب، وأشباه هؤلاء يقال لهم حمقى. ولا يجوز هذا القول على هؤلاء ولا على الطبقة التي دونهم. فإن ذهبوا إلى معلمي كتاتيب القرى، فإن لكل قوم حاشية وسفلـة، فـما هم في ذلك إلا كغيرهم. وكيف تقـول مثـل ذلك في هؤلاء وفيهم الفقهاء والشعراء والخطباء، مثل الكميت بن زيد، وعبدالحميد الكاتب، وقيس بن سعد، وعطاء بن أبي رباح........»(١).

وإن موقفاً كهذا عند العرب تجاه الطفـل، ومستـواه الفكـري، لا شك منسحب على طبيعة التعامل معه، والاهتمام به، وهو اهتمام متواضع في تقديري لما كان يواجه المجتمع من مهام جسام، وتحديات صعبة كانت تجعل القوم في شغل شاغل عن كل أمر، حين تتعلق القضية بالوجود أو عدمه، وبـالـدفـاع عن الـذات أو العـرض أو الشرف، أو المطالبة بالثأر، أو البحث عن مورد ماء، أو موطن كلأ. أقول: كانت هذه الأمور هي شغلهم الشاغل، وكانت شؤون حياتهم توظف لها، ولا تتجاوزهـا إلا قليلاً. ولذلك لا نعجب إذا نظروا مرة للطفـل على أنـه عبء عليهم في ضعفـه وأنه ـ من جانب آخر ـ مصدر أمل وتفاؤل حين ينمو ويكبر ويقوى ساعده فيصبح يداً لأهله وقبيلته، ولذلك رأيناهم يتسابقون مـع الـزمن، وإذا بهم يعـدونـه رجـلاً مؤهلاً للصعاب، وعليه أن يتشرب مهام الرجال. فكـانـوا في جـانب من تنشئتهم لأطفالهم، وتربيتهم لهم يعنون بمتطلباتهم الأساسية في إطـاريهـا المـادي والمعنـوي.

(١) البيان والتبيين ١: ٢٥٠.

فالرجل الكامل عندهم هو الذي يحسن أربعة أمور هي: الكتابة، والرماية، والسباحة وقول الشعر(١).

وأخذاً بهذا الأنموذج للرجال كان الآباء وأولو الأمر يتطلعون إلى الأجيال المقبلة وإلى ما يجب أن تتسلح به، فعمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يكتب إلى أهل الشام أن «علموا أولادكم العوم والرماية، ومروهم فليثبوا على الخيل وثباً، ورووهم ما يجمل من الشعر»(٢).

والحجاج يقول لمؤدب بنيه: «علمهم السباحة قبل الكتابة، فإنهم يجدون من يكتب عنهم، ولا يجدون من يسبح عنهم»(٣). وإن في توجيه الحجاج دليلاً حياً على تكيفهم مع متطلبات عصرهم، وأنهم كانوا يعنون بالأوليات فالأهم عندهم أولاً ثم المهم. وكان يمكن للحجاج أن يدعو مؤدب بنيه إلى كل الأمور مجتمعة، وإذا كان لا بد من الترتيب في الأوليات فمن غير المعقول أن تكون السباحة مقدمة على الكتابة. ولكنها سنة القوم وواقعيتهم المفرطة التي تتعامل مع ما هو قائم، أكثر من تعاملهم مع ما يجب أن يكون.

وإذا كان هذا هو حال العرب فيما وصلنا من تراثهم، فهل كانوا على هذه الصورة حسب؟ وهل أهملوا الطفل إهمالاً تاماً، ولم يكن له نصيب فيما أثر عنهم من تراث؟ هذا ما سنحاول الإجابة عنه في الصفحات التالية.

---

(١) عيون الاخبار ٢: ١٦٨.
(٢) البيان والتبيين ٢: ٩٢.
(٣) عيون الاخبار ٢: ١٦٨.

(٢)

عُني فلاسفة المسلمين ومفكروهم بتربية النشء في وقت مبكر من تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، وترجمت هذه العناية بعدد من الرسائل والكتب التي أفردت لهذا الموضوع. وكانت نظرة هؤلاء الفلاسفة والمفكرين نظرة شمولية اتجهت للتعليم بمقوماته الرئيسة الثلاث: التلميذ والمعلم والكتاب أو المادة العلمية التي يزود بها المتعلم. وإن إلقاء نظرة على عناوين كتبهم ورسائلهم في هذا الباب(١)، توصلنا إلى الصورة الواقعية التي كانوا عليها، وإلى مناهجهم وأساليب تفكيرهم. فقد اهتموا بالمعلمين من حيث أخلاقهم، وأجورهم، وتكوينهم العلمي وأسلوبهم في التربية والتعليم، وعلاقتهم بأولياء أمور التلاميذ، وبالتلاميذ أنفسهم، وبالمناهج التي لابد

---

(١) انظر مثال ذلك: كتاب المعلمين للجاحظ (ت ٢٥٠ هـ) ضمن رسائل الجاحظ ٣: ٢٧ ـ ٥١.
ورسالة آداب المعلمين لابن سحنون (ت ٢٥٦ هـ) ضمن كتاب التربية في الاسلام للاهواني ٥٥٣ ـ ٥٦٨.
ووصايا المعلمين لابن قتيبة (ت ٢٧٦ هـ) ضمن كتاب عيون الأخبار ٢: ١٦٥ ـ ١٦٨.
والرسالة المفصلة لأحوال المتعلمين وأحكام المعلمين والمتعملين للقابسي (ت ٤٠٣ هـ) ضمن كتاب التربية في الاسلام للاهواني ٢٦٧ ـ ٣٤٩. وكتاب السياسة لابن سينا (ت ٤٢٨ هـ) ضمن كتاب التراث التربوي الاسلامي بتحقيق هشام نشابة ١٩ ـ ٤٣.
وباب التأديب والتعليم والتثقيف والسياسة وذكر المعلمين والمقومين، للزمخشري (ت ٤٣٨ هـ) ضمن كتاب ربيع الابرار ونصوص الاخبار ١: ٥٠١ ـ ٥٣١.
وكتاب منهاج المتعلم، للغزالي (ت ٥٠٥) ضمن كتاب التراث التربوي الاسلامي ٤٩ ـ ٩٢. وكتاب أيها الولد، له.
وكتاب تذكرة السامع والمتكلم وأدب العالم والمتعلم لابن جماعة (٧٣٣ هـ)، ضمن كتاب التراث التربوي الاسلامي ٩٣ ـ ١٨٦.
وكتاب اللؤلؤ النظيم في روم التعلم والتعليم للانصاري (ت ٩٢٥ هـ). المصدر السابق ١٨٧ ـ ٢١٣.
وكتاب تحرير المقال في آداب وأحكام يحتاج اليها مؤدب الاطفال للهيثمي (ت ٩٧٣ هـ). نفسه ٢١٥ـ ٢٦٤.

أن يزودوا بها. وعنوا بالتلاميذ فتحدثوا عن السن التي يلتحقون فيها بدور التعليم، ومواصلة نموهم، وحالاتهم النفسية، وما تتطلبه كل مرحلة من مادة علمية، تتفاوت في مضمونها وطبيعتها من سن لأخرى، بالإضافة إلى اهتمامهم بعلاقة التلاميذ بعضهم ببعض وعلاقتهم بأستاذهم الذي يقوم على تعليمهم وتنشئتهم.

واهتموا بالمناهج التربوية وما يتطلبه التلميذ في سنينه الأولى فميزوا بين الحفظ والاستيعاب، وتعرضوا إلى تنوع العلوم والمعارف، وطبيعة كل منها، ونصوا على الأوقات التي تدرس فيها، وميزوا بين العلوم التي تتطلب مزيداً من الجهد والتفرغ، وتلك التي هي أيسر على الدارس ويمكنه استيعابها في كل الظروف.

وتكلموا على المادة التي يدرسها التلميذ، وأجمعوا على أن حفظ كتاب الله وفقهه يعد أول ما يؤخذ به التلميذ، وكان هذا الجانب هو أبرز المقاييس التي يقاس بها نجاح المعلم والمتعلم. ثم اهتموا بالأدب العربي وما فيه من أمثال وحكم، وقصص وحكايات، ووصايا وخطب ورسائل وشعر. والتفتوا إلى التاريخ والأخبار والفلسفة والحساب وغير ذلك. ووصل بهم الأمر إلى أن قسموا العلوم إلى قسمين: إجبارية واختيارية. فالاجبارية هي القرآن الكريم ـ حفظاً وترتيلاً، وفهماً ـ وما يستلزمه من علوم لا يفقه الابها، وهي النحو واللغة والهجاء والخط(١).

والاختيارية هي الحساب، والشعر، وأيام العرب، وأخبارهم(٢).

وذهب بعضهم إلى أبعد من هذا إذ دعا القابسي في القرن الرابع للهجرة، إلى أن

(١) التربية في الاسلام ١٦٩.
(٢) المصدر السابق ١٧٣ .

يكون التعليم إلزامياً لكل الصبيان، وأن يتكفل المجتمع ـ آباء، ومعلمين، وأولي الأمر ـ بتحقيق ذلك، وتوفير الوسائل الكفيلة بتحقيقه(١).

ومما يلفت النظر أن المادة العلمية التي اهتموا بها ودعوا لتعليمها، هي المادة التي يحتاجها المرء في جميع مراحل حياته، ولم يكن هناك تحديد أو تمييز بين مرحلة عمرية وأخرى، اللهم إلا ذلك الطابع الوعظي الإرشادي الذي نبه إليه المعلمون، من قبل أولياء الأمور، وذوي الشأن، حين حددوا لهم طبيعة المادة التي تدرس للأبناء، وهي في مجملها ترسخ القيم الفاضلة: من شجاعة، وأنفة، وكرم، وعفاف، وإيمان، ونصرة للمظلوم، وثورة على الظالم، وحثوا المعلمين على أن يختاروا لأبنائهم نماذج من الشعر العربي والأخبار والأيام التي تجسد هذه القيم وتدعو إليها.

نعم، كانت المادة العلمية التي يزود بها الأطفال هي المادة التي يزود بها الكبار، ولعل ذلك يرجع إلى أن ابتداءهم بكتاب الله ـ سبحانه ـ هو الذي أوقعهم في هذا الأمر، ولكنهم ـ مع ذلك ـ أدركوا العبء الذي يتحمله الطفل وهو يزود بهذه المادة الصعبة، ولهذا لحظناهم يحتالون لتيسيرها في مناهجهم التربوية، فدعوا إلى التلوين في المادة والانتقال بها من الصعب إلى السهل، ومن الجد إلى الهزل، ومن كتاب الله إلى الأخبار والقصص كي يخففوا عن الطفل، ويزيلوا الملل من نفسه(٢). ولكن تراثنا الأدبي ـ مع ذلك ـ لم يعدم وجود مادة تعليمية ذات صلة مباشرة بالطفل، لا تكاد تصلح إلاّ له، انبثت في دواوين الشعراء وكتب الأدب، دعت إلى تقويمه وتوجيهه، وهي التي تعنينا في هذه الدراسة، وسنعمل على استقصائها والكشف عنها، ما أمكن ذلك.

---

(١) نفسه ١٠٣.

(٢) تربية الابناء في الادب العربي.

(٣)

إن المتتبع لتراثنا الأدبي والدارس له، يجده اشتمل على مادة جيدة اتصلت بالطفل، وتنوعت هذه المادة بتنوع الهدف الذي أعدت من أجله، فهناك أشعار قيلت في ترقيص الأطفال ومناغاتهم، وأخرى عبرت عن حبهم والتعلق بهم، وثالثة اتصلت بالتمييز بين الولد والبنت، بالحب للولد، والبغض للبنت، ورابعة تحدثت عن الوصايا لهم، وخامسة نقلت مشاعر القوم تجاه الأبناء وهم بعيدون عنهم، فراسلوهم معبرين عن لواعج الشوق إليهم، وعما يتمنون لهم من سعادة وسؤدد، وسادسة تناولت ما يتمنى الأب أن يكون ابنه عليه، فنقل هذا لمعلمه، وأوصاه أن ينشئه عليه، ويزوده به(١). وسابعة بثت لوعتهم وحسرتهم عليهم عند فقدهم(٢).

وإن هذه المادة ـ على تشعبها وتعدد جوانبها ـ اتصلت بالحديث عن الطفل، ولم تكن ـ على ما فيها من سهولة في التعبير، وصدق في المشاعر والأحاسيس، وقرب في التناول ـ أقول: لم تكن موجهة للطفل، تخاطب عقله ووجدانه، وتتفاعل مع مشاعره وأحاسيسه، وتنسجم مع قدراته الذهنية والنفسية، اللهم إلا ما اتصل بجانب من الترقيص، وأقول بجانب من الترقيص، وليس ترقيص الأطفال على إطلاقه، لأنه أخذ بعداً آخر ندّ عن الغاية التي قيل من أجلها. فكان الرجال والنساء يتخذون الترقيص وسيلة للتعبير عن قضايا تتصل بالكبار وليس بالصغار.

(١) تربية الابناء في الادب العربي.
(٢) رثاء الابناء في الشعر العربي.

وقد كان الأساس في ذلك سعادة الأب أو الأم بالابن حين يرقصه كل منهما. ونجد مثالاً لذلك قول فاطمة الزهراء، وهي ترقص الحسين بن علي - رضي الله عنه:

إن بني شبــه النبي
ليس شبيهـاً بعـلي

وقول الزبير بن العوام، وهو يرقص ولده عروة - رضي الله عنهما:

أبـــيض مـــن آل أبي عـــتـــيـــق
مـبــارك مـن ولــد الـصــديـق
ألـــذه كـــما ألـــذ ريـــقــي

وقول أعرابي وهو يرقص ولده:

أحبـه حب الـشـحـيـح مـالـه
قـد كـان ذاق الفـقـر ثم، نـالـه
إذا يـــريـــد بـــذلـــه بـــدالـــه

وقول آخر وهو يرقص ولده:

أعـرف منـه قـلـبـة الـنـعـاس
وخـفـــة في رأســه مـن راسي(١)

وغير ذلك كثير نجده مبثوثاً في كتب الأدب والأخبار، وهذا اللون، كما هو واضح، لا يدخل ضمن أدب الأطفال، وإنما في باب الحديث عنهم.

وهناك جانب مهم يتصل بالطفل، وقد أولته الدراسات الحديثة عناية خاصة،

---

(١) العقد الفريد ٢: ٤٣٩

تتفق مع تطور المجتمعات، ورقي المناهج التربوية فيها، أعني به أدب الأطفال، فما نصيب تراثنا الأدبي من هذا الأدب الذي أعد للطفل وليس الذي تحدث عنه.

لقد قمت بدراستين سابقتين(١) تحدثت فيهما عن أدبنا العربي القديم الذي تكلم على الطفل، وتأتي هذه الدراسة لتنصب على الأدب العربي الذي اتصل بالطفل وقدم له في التراث نفسه.

وإنني أشعر أن هذه الدراسة وإن كانت لا تستوعب تراثنا كله ـ وأنىّ لها ذلك ـ إلا أنها تلج موضوعاً بكراً لا يزال في مرحلة التأسيس والاستكشاف، ويتطلب مزيداً من الدراسات التي تبين دور أدبائنا القدامى في هذا الجانب المهم، خاصة وأن هناك عدداً من الباحثين أشاروا إلى افتقار أدبنا العربي القديم لمثل هذه المعالجة(٢). وحسب هذه الدراسة أنها تنبه إلى مواطن المعالجة لأدب الأطفال، وأنها تثير عدداً من التساؤلات التي ستكون محل نقاش وحوار، قد يوصل إلى نتائج إيجابية، وينبه إلى عناصر جديدة في تراثنا الأدبي تثريه، وتظهر أصالة مبدعية.

(١) هما الدراسة الثانية والرابعة من هذا الكتاب. .

(٢) انظر مثال ذلك: أدب الاطفال للدكتور هادي نعمان الهيتي ١٠٣، وثقافة الاطفال، له، اذ قال في معرض حديثه عن أدب الاطفال في التراث العربي «ليس في تراثنا الادبي العربي ـ رغم ثرائه ـ ما يمكن ان نطلق عليه أدب أطفال. وما الف ليلة وليلة، وكليلة ودمنة، وغيرهما من الادب الشعبي، الا أقاصيص وحكايات خاصة بالكبار تناقلها الناس لما فيها من أخيلة جامحة».

(٤)

يعد الجاحظ أبرز الأدباء وأقدمهم ـ فيما أعلم ـ الذين فصلوا القول في طبيعة الطفل، ومتطلباته، ومستواه الفكري، وما يقدم له من مادة تتناسب مع قدراته. وقد لحظناه يلتفت من بعيد إلى أن مخاطبة الطفل وتحقيق حاجياته تعد من أصعب المهام، ووصف الذين يقومون بهذه المهمة، بأنهم أكفأ الناس، وأبعدهم غوراً في النفس الإنسانية حين قال:

«ألا ترى أن أبلغ الناس لساناً، وأجودهم بياناً، وأدقهم فطنة، وأبعدهم روية، لو ناطق طفلاً، أو ناغى صبياً، لتوخى حكاية مقادير عقول الصبيان، والشبه لمخارج كلامهم، وكان لا يجد بداً من أن ينصرف عن كل ما فضله الله به، بالمعرفة الشريفة، والألفاظ الكريمة»(١). وإن في قول الجاحظ هذا، بياناً واضحاً لطبيعة التقمص لشخصية الطفل من قبل الأديب الذي يخاطبه، وليس سهلاً أن يدرك المرء مقادير عقول الصبيان كما أشار الجاحظ، كما أنه ليس ميسراً أن ينصرف عن ما فضله الله به من المعرفة الشريفة والألفاظ الكريمة، ولكنها حاجة الطفل التي تضطره لكل هذا، وتجبره في الوقت نفسه على أن يستبدل معرفة بمعرفة، وألفاظاً بألفاظ، ذات سهولة وبساطة، وتحمل معاني وقيماً شريفة يدركها الطفل ويستوعبها.

وأدرك الجاحظ العلوم الجافة التي يجد المرء عسراً في فهمها، ويشعر بالضيق عند قراءتها. ويقف في مقدمة هذه العلوم النحو العربي، ولذلك رأيناه يدعو إلى تزويد

(١) رسائل الجاحظ ٣: ٣٧.

الطفل بالضروري منه، والابتعاد به عن خلافات النحويين وتعدد مدارسهم واتجاهاتهم، فقال:

«وأما النحو فلا تشغل قلبه منه إلا بقدر ما يؤديه إلى السلامة من فاحش اللحن، ومن مقدار جهل العوام في كتاب إن كتبه وشعر إن أنشده، وشيء إن وصفه، وما زاد عن ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به ومذهل عما هو أرد عليه منه، من رواية المثل والشاهد والخبر الصادق والتعبير البارع»(١).

إن هذه الدعوة كانت منذ عصر الجاحظ حتى يومنا هذا تشغل التربويين والمربين، وتحفزهم إلى أن يحققوا هذا التوازن الدقيق بين تمكن الطفل من النحو الذي يساعده على التعبير السليم، وبين أخذه في منأى عن آراء النحاة وخلافاتهم. وإني أجدها سانحة لأجدد الدعوة للأخذ بها، ومحاولة تحقيقها بعد أن قامت محاولات غير مرة، ولكنها لم تحقق الغرض، وإن كانت قد اقتربت منه في بعض الأحيان.

وأمر ثالث نبه إليه الجاحظ يتصل بالأسلوب الذي يتلاءم مع طبيعة الطفل، فيحبب إليه التعليم ويرغبه في المادة العلمية التي تلقى على مسامعه حين يجد سهولة في فهمها وقدرة على استيعاب مرماها، ولا تعوزه الحاجة إلى التفكير والتدبر في معانيها المستغلقة، أو عباراتها الطويلة التي تشتت ذهنه وتضيع المعنى منه، انظره يقول:

«ثم خذه بتعريف حُجج الكتاب، وتخلصهم باللفظ السهل القريب المأخذ إلى المعنى الغامض، وأذقه حلاوة الاختصار وراحة الكفاية، وحذره التكلف واستكراه العبارة، فان أكرم ذلك كله ما كان إفهاماً للسامع، ولا يحوج إلى التأويل والتعقب

---

(١) رسائل الجاحظ ٣: ٣٨.

ويكون مقصوراً على معناه، ولا مقصِّراً عنه ولا فاضلاً عليه. فاختر من المعاني ما لم يكن مستوراً باللفظ المتعقد، معرفاً في الإكثار والتكلف»(١).

هذه هي خلاصة آراء الجاحظ في المادة التي يجب أن يزود بها الطفل، وهو بهذا كأنه يدعو إلى أن يكون هناك أدب خاص بالأطفال يختلف في مضمونه وأسلوبه وتناوله عن ذلك الأدب الذي يقدم للكبار، فهل تحقق له ذلك، أو بتعبير آخر، هل استطاع الأدباء العرب أن يقدموا مادة أدبية تتصل بالطفل وتقتصر عليه، وتتدرج به حسب تدرجه في السن والنمو، ليكون نموه العقلي والذهني متناسباً مع نموه الجسمي والعضلي، أقول: هل استطاع الأدباء العرب أن يحققوا هذا، أو شيئاً منه على الأقل؟.

لقد اتخذت الخصائص التي حددها الجاحظ من قبل هاديا لي لتطبيقها على الأدب العربي القديم، فوجدتها تنطبق على مادة غزيرة جداً في التراث العربي الخالص، منذ العصر الجاهلي، وأعني بها تلك القصص والحكايات التي قيلت على لسان الحيوان في الشعر والنثر.

وقد ساعدني على الاطمئنان لهذا الرأي ما نص عليه عدد من الباحثين والنقاد المحدثين الذين أجمعوا على أن الغرض من هذه القصص كان في أساسه خلقياً تعليمياً عند كل الأمم(٢). وهو كذلك في الأدب العربي القديم، إذ كانت هذه القصص ترمي إلى «إثارة عبرة أخلاقية، أو إعطاء مثال للسلوك. وكأن غرض هذا النوع من الخرافات أن يقول: إن ما يجري في عالم الإنسان من تظالم وغصب واستبداد وما إلى ذلك، موجود مثله في عالم الحيوان»(٣) ورأى الدكتور محمد

(١) رسائل الجاحظ ٣: ٣٩.
(٢) الادب المقارن لمحمد غنيمي هلال ١٧٧. وأدب الاطفال لايزابيل جان، تعريب ماري سابا ١٩٩.
(٣) ملامح يونانية في الادب العربي ٧١.

غنيمي هلال أن هذا هو السبب الذي حدا بعبد الله بن المقفع إلى ترجمة كليلة ودمنة(١).

وقد اعتمد أسلوب القص والحوار على لسان الحيوان، مما يساعد على أن يشد المستمع إليه، وما كانت تخلو قصة من هذه القصص من بعد تعليمي أو أخلاقي يتشربه المرء بصورة غير مباشرة، فيترسخ في نفسه، بدلاً من الأسلوب الوعظي الذي ينفر المستمع، ويجعل المادة غير محببة إليه. وما أشك في أن هذه القصص كانت موجهة للطفل دون سواه في المجتمع الجاهلي بداية، والعربي الإسلامي بعد ذلك.

وقد امتدت فوائدها وقيمها لغير الأطفال، من الكبار الراشدين، لما فيها من عبرة وعظة. إلا أن فهمنا لطبيعة الإنسان العربي في الجاهلية خاصة تدعونا إلى أن نرجح أن الأطفال هم المعنيون أولاً بهذه القصص لما فيها من بساطة وتسلية وتوجيه.

ومن بعيد عبر حمزة الأصفهاني عن هذا الذي استنبطناه ووصلنا إليه، حين علل اتجاه العرب لهذا الأسلوب في حديثهم عن الحيوان وقصصه، فقال: «فحين تأملوا (أي العرب) أخلاق تلك البهائم فألفوها متفرقة في أنواعها، ثم رأوها مجتمعة في الإنسان، الذي يجمع إلى حرص الذئب حذر الغراب، وإلى تدبير الذر كسب النمل، وإلى هداية الحمام حزم الحرباء، وإلى حراسة الكراكي ختل الثعلب، إلى غير ذلك من أخلاقها، قالوا عند ضرب الأمثال بأخلاق الإنسان: إن فلاناً له جرأة الأسد، ووثوب النمر، وروغان الثعلب، وختل الفهد. . . . . »(٢).

---

(١) النقد الادبي الحديث ٥٠.

(٢) الدرة الفاخرة ٦٠. وملامح يونانية في الادب العربي ٧١.

وإن هذا الأمر لا ينسينا أن هناك اتجاهاً آخر ندّ ببعض هـذه القصص «عن دائرة العبرة الأخلاقية، وأصبح جزءاً أساسياً من الفكاهات الشعبية، أو النقـد الاجتماعي والفكري والسياسي»(١).

ولكن هذا الأمر جاء في وقت متأخر من تاريخنـا الأدبي والفكـري، وهـو الصق بالكبار منه بالأطفال، ولذلك فإننا سنخرجه من دائرة اهتمامنا في هذه الدراسة.

وأخذاً بهذه القناعة فإن حديثنا سيتركـز على قصص الحيـوان في الأدب العـربي، شعره ونثره، وعلى ما خاطب وجدان الطفل، ورسم له المنهج، وأوحى لـه بـه من الوصايا والقصص بوصف هذين الجانبين همـا الأدب الأقـرب للطفـل ووجـدانـه، وإنني سأحرص على تناول الأدب العربي الخالص غير المعرب، ولذلك لن يكون ما جاء في كتاب كليلة ودمنة الذي نقله ابن المقفع للعربية وما شابهـه من القصص التي اشتملت على روح غير عربية، محل عنايتها لأنه يمثل أدبـاً مترجمـاً لم يكن للقـريحـة العربية دور فيه غير الترجمة، وان كان قد ترك صدى على القصص العـربي فيـما تـلا عصر ابن المقفع.

(١) ملامح يونانية في الادب العربي ٨٢.

(٥)

سئل الكميت بن زيد الأسدي عن أمية بن أبي الصلت فقال: «أمية أشعر الناس، قال كما قلنا ولم نقل كما قال»(١). وقال صاحب الأغاني: «كان أمية بن أبي الصلت قد قرأ كتاب الله عز وجل، فكان يأتي في شعره بأشياء لا تعرفها العرب»(٢).

ويفهم من كلام الكميت أن الذي قاله كما قالته الشعراء، هو السير على طريقتهم في الشعر لغة، وأسلوباً، وبناء، وموضوعاً. أما الذي قاله ولم تقله الشعراء، فيفهم جانب منه من قول أبي الفرج الأصفهاني، ويكمل هذا الجانب نظرة في شعره. ويتمثل هذا في أن شعر الشاعر تفاوت تفاوتاً كبيراً بين السهولة والرقة، وبين الغرابة والتعقيد. وتميز شعره من الناحية الموضوعية بكثرة الإلحاح والتركيز على الزهد والتزهيد في الحياة الدنيا. وهو أمر كان مثار تساؤل وعجب في العصر الجاهلي وقبل البعثة النبوية الشريفة. كما أن شعره كان من الظواهر البارزة في الشعر الجاهلي، بإكثاره من القصص والحكايات التي تدور أحاديثها على ألسنة العامة، وألسنة الحيوان. وإن هذه الميزة الأخيرة هي التي تعنينا في هذا المقام. ذلك أن أمية أكثر من هذه القصص، وألبسها ثوباً وعظياً تعليمياً، وهي ألصق بالأطفال منها بغيرهم - فيما أرى.

---

(١) الاغاني ٤: ١٢٢.
(٢) المصدر السابق ٤: ١٢١.

ويقف في مقدمة أشعاره قصيدته المنسوبة له في عتاب ولده حين رأى منه ما لا يرضيه، فاهتبل أمية المناسبة، وبث ابنه مشاعر الأب تجاه ابنه مذ رأت عيناه النور، فشمله بعطفه ورعايته وفضله على نفسه في مأكله وملبسه. أما إذا ألم به مرض أو شكا من ألم، فإن الأب يقضي ليله ساهراً يتململ، حذار أن يحيط به الموت، أو تدنو منيته، وهو على يقين، أن المنية إن أقبلت لا تدفع، ولكنها عاطفة الأبوة التي تسيطر على عقله، وتجعله يتحلل من كثير من العقائد والمواقف، التي هي دأبه وديدنه، حين يتعلق الأمر بأحد أبنائه. إن هذه المشاعر والأحاسيس التي ضمنها أمية قصيدته، خير مرشد ومنبه للطفل حين يطلع عليها أو يتعلمها بما تحمله من قيم قال:(١).

غذوتك مولوداً وعلُتُك يافعاً
تُعَلّ بما أُحني عليك وتنهلُ
إذا ليلة نابتك بالشكو لم أبت
لشكواك إلا ساهراً أتململ
كأني أنا المطروق دونك بالذي
طُرقت به دوني فعيناي تهمل
تخاف الردى نفسي عليك وإنني
لأعلمُ أن الموت حتمٌ مؤجل
وأن ليس عن ورد المنايا مؤخرٌ
لعزّ ولا عنها لذلٌ معجّل

ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد مع الشاعر، وإنما يأتي بالصورة المخالفة التي

---

(١) أمية بن أبي الصلت ـ حياته وشعره ٣٥٤.
وعُلْتُكَ: انفقت عليك. تعلّ: من علّه أي سقاه ثانية, وتنهل: الشربةالاولى.

يكون عليها الابن حين ينسى عطف والده عليه، ورعايته له، وصبره على تنشئته، فيقابل البر بالعقوق، والعطف بالجحود، والدلال والمناغاة والحب بالغلظة والفظاظة، انظره يقول: (١)

فلما بلغت السن والغاية التي
إليها مدى ما كنت فيك أؤمل
جعلت جزائي غلظة وفظاظة
كأنك أنت المنعم المتفضل
فليتك إذ لم ترع حق أبوتي
فعلت كما الجار المجاور يفعل
فأوليتني حق الجوار ولم تكن
عليّ بمال دون مالك تبخل
زعمت بأني قد كبرت وعبتني
ولم يمض لي في السن ستون كمّل
وسميتني باسم المفنّد رأيُه
وفي رأيك التفنيد لو كنت تعقل
وإن كنت شيئاً فالتمس لك والداً
أباً لك تدعوه أباً حين تسأل
تراه معداً للخلاف كأنه
بردٍ على أهل الصواب موكّل

إن هاتين الصورتين المتقابلتين - بر الأب وعقوق الابن - اللتين جاء بهما أمية تصلحان - في تقديري - أن تكونا مادة أدبية معدة للطفل، أو أن يستلهم منها مادة جديدة تحمل المضمون نفسه، وتصاغ في قالب معاصر.

---

(١) المصدر السابق.

ويكثر الشعر الوعظي والتعليمي الذي أعده أقرب للطفل من سواه، في العصر الجاهلي خاصة، ومنه ما عبر عنه أمية بن أبي الصلت، حين صاغ قصة كانت ترددها العرب في الجاهلية حول القنزعة التي على رأس الهدهد، فقالوا: إنها ثواب من الله ـ سبحانه وتعالى ـ على ما كان من بر الهدهد بأمه، لأن أمه لما ماتت جعل قبرها على رأسه. وحين أرادوا تعليل رائحة الهدهد المنتنة، قالوا: إن هذا بسبب تلك الجيفة التي كانت مدفونة في رأسه. فالتفت الشاعر إلى هذا، وإلى المرمى الأخلاقي والتربوي الذي تشي به هذه القصة، ورأى أنها بحاجة إلى أن تصب في قالب فني جديد يسهل تناوله، ويقوى تأثيره في النشء خاصة، فجاءنا بهذه الأبيات التي تحكي القصة نفسها، ولكن شتان بين حكايتها نثراً، وبين إنشادها شعراً. قال:

غيم وظلماء وغيث سحابة
أزمان كُفّن واسترداد الهدهد
يبغي القرار لامه ليُجَنَّها
فبنى عليها في قفاه يُمَهّد
مهداً وطيئاً فاستقلَّ بحمله
في الطير يحملها ولا يتأود
من أمه يجزى بصالح حملها
ولداً وكلّف ظهره ما يعقد
فتراه يدلح ما مشى بجنازة
فيها وما اختلف الجديد المسند(١).

وما انفك أمية بن أبي الصلت يتخذ من أمثال هذه القصص على لسان الحيوان

(١) أمية بن أبي الصلت ـ حياته وشعره ١٩٤.
استراد: رجع الى امر الله ونهيه. يجنها: يخفيها، اي يدفنها. يتأود: يتمايل. ما يعقد: اي ما يجعله معوجا. يدلح: يعاني من حمله ويتمايل. والجديد او الجديدان: الليل والنهار ولعله يريدما قدم العهد بالخط المسند الجديد

والطير شواهد على إمكانية صياغتها صياغة شعرية، ليسهل تناولها، ولتكون نماذج للمكافأة على الجهد، والتسلية للنشء خاصة. وها هو يتخذ قصة أخرى وسيلة لنظم قصيدة تتصل بالحمامة، وكيف حصلت على الطوق الذي يزين عنقها. وأن ذلك كان مكافأة لها على بشارتها لنوح ـ عليه السلام ـ وهو في سفينته هو ومن معه من المؤمنين، وقد غمر الطوفان اليابسة. وبعد أن غرق الكافرون، بقى الطوفان على حاله. فطارت الحمامة مستكشفة، حتى إذا ما رأت اليابسة من بعد عادت لتبشر نوح ومن معه بهذا، وكان من حقها أن تجازى نظير ذلك، فطلبت الطوق الذي هو عليها، وكان لها ما أرادت. تنبه أمية إلى هذه القصة، وما تتركه من إيحاءات وظلال، تمتع الأطفال، وترسخ في نفوسهم قيماً فاضلة، فقال:

وما كان أصحاب الحمامة خيفة
غداة غدت منهم تضم الخوافيا
رسولاً لهم، والله يحكم سرّه
يبين لهم هل برنس الترب باديا
فجاءت بقطف آية مستبينة
فأصبح منها موضع الطين جاديا
على خطمها واستوهبت ثم طوقها
وقالت الا لا تجعل الطوق حاليا
ولا ذهباً إني أخاف نبالهم
يخالونه مالي وليس بماليا
وزدني لطرف العين منك بنعمة
وأرِّث إذا ما مت طوقي حماميا
وزدني علي طوقي من الحلي زينة
تصيب اذا اتبعت طوقي خضابيا

يكـون لأولادي جمـالاً وزينـة
وعنـوان زيني زينـة من تـرابيـا[1]

ولم يكن أمية بن أبي الصلت بدعاً في هذا الباب، وانما وجدنا غير واحد من الشعراء العرب يسيرون على النهج نفسه، بأن صاغوا القصص والحكايات في أبيات شعرية، فيها عبرة وعظة وقيم يتشربها الطفل، لاتفاقها مع تفكيره ومستواه. ومن هذه النماذج، ما صوره أحد الشعراء على لسان الطير، مجسداً روعة العفو عند المقدرة، وعطف القوي على الضعيف، فحكى قصة صقر انقض على عصفور صغير وأمسك به، فاستعطفه العصفور ليفكه لأنه لن يغنيه شيئاً، وكان له ما أراد، كرماً من الصقر، وتلبية لاستعطاف العصفور فقال:

زعـمـوا بـأن الـصـقـر صـادف مـرة
عـصـفـور بـر سـاقـه المقـدور
فـتـكـلـم الـعـصـفـور تحت جـنـاحـه
والـصـقـر مـنـقض عـلـيـه يـطـير
مـا كـنـت خـاميـزاً لمثـلـك لـقـمـة
ولـئـن شـويـت فـإنـنـي لحـقـير
فـتـهـاون الـصـقـر المـدلّ بـنـفـسـه
كـرمـاً، وأفـلـت ذلـك الـعـصـفـور[1]

ويعد أبو الشمقمق من الشعراء الشعبيين الذين ضمنوا شعرهم كثيراً من النوادر

(١) نفسه ٣١٩.
البرنس: الثوب. استعارة لوجه الارض. القطف: كل ما يقطف من الثمار. الجادي: الزعفران. خطمها: منقارها. خضابيا: الخضاب ما يختضب به كالحناء. من ترابيا: اي من التراب الذي حملته بمنقاري.
(٢) التمثيل والمحاضرة ٣٦٧.

والقصص ذات البعد الاجتماعي، تشخيصاً ونقداً، وحرص على أن ينقل كثيراً من هذه القصص على لسان الحيوان. فساعد هذا على أن يتردد شعره على الألسنة، وأن يكون محبباً لفئتين من المجتمع، أولادهما: فئة العامة من الطبقة البسيطة التي تشكو الفاقة وسوء الحال. وثانيهما: فئة الأطفال، لما لهذا النوع من الشعر من سهولة في اللفظ، وقصر في الوزن وطرافة في التناول، وقد زخر شعر الشاعر بهذه النماذج والقصص، وها نحن نمثل بواحدة منها، وهي تحكي قصة فئران نزلت ببيته وهو خلو من الطعام، فباتت تسرح وتمرح فيه، باحثة عما يسد رمقها، والشاعر منصرف عنها لا يطردها أو يلاحقها، لأنه على يقين من أنها لن تجد شيئاً تأكله، أو أمراً تدمره، انظره يقول:

نـــزل الـفـــأرُ بـبـيـتـــي
رفْقـــة مـــن بـعـــد رفْقـــه
حـلـقـــاً بـعـــد قـطـــار
نـــزلـــوا بـــالـبـيـت صـفـقـــه
ابـــن عـــــرْس رأس بـــيـتـــي
صـــاعـــداً في رأس نـبـقـــه
سـيـفـــه سـيـف حـــديـــد
شـقـــه مـــن ضـلـــع سـلْقـــه
جـــاءنـــا يـطـــرق بـــالـلـيـــ
ل فـــدق الـبـــاب دقـــه
دخـــل الـبـيـــت جـهـــاراً
لم يـــدع في الـبـيـت فـلـقـــه(١)

---

(١) الحيوان ٥: ٢٦٧.
حديد: حاد. والسلقة: الانثى من الذئاب. والفلقة: الكسرة من الخبز.

إن هذا اللون من الشعر يجمع بين بعدي التسلية والترويح، والواقع الاجتماعي السيء الذي كان يعانيه أبوالشمقمق وأمثاله من الفئات البائسة في المجتمع، ولذلك فإنه يعد من الأدب الهادف الطريف الذي يزود به الأطفال ليتشربوا قيمه، كما يزود به الكبار ليتحسسوا أهدافه ومراميه.

وأخذت الحكاية على لسان الحيوان، طابع الطرافة المحببة التي تأسر الأطفال، وتشدهم لسماعها وإنشادها، فيما بينهم، وبين يدي أولياء أمورهم. ونجد مصداقاً لهذا، الخبر الذي ذكره الدميري في حياة الحيوان، وهو يتحدث عن طائر الزاغ، وهو حديث خرافي، لكنه صيغ بصورة فنية جميلة، قال: قال«أبو سعيد السيرا في عن بعض الكتاب أنه قال: دخلت على يحيى بن أكثم القاضي وإلى جانبه قمطر فيه طائر على صورة الزاغ برأس كرأس الإنسان وعلى صدره وظهره سلعتان. فقلت له: ما هذا أصلحك الله، فقال لي: سله عنه. فقلت: ما أنت؟ فانتهض وأنشد بلسان فصيح وجعل يقول:

أنا الزاغ أبو عجوَة
أنا ابن الليث واللبوةْ
أحب الراح والريحا
ن والنشوة والقهوة
ولي أشياء تستظر
ف يوم العرس والدعوة
فمنها سلعة في الظه
ر لا تسترها الفروة
وأما السلعة الأخرى
فلو كانت لها عروة
لما شك جميع النّا
س فيها أنها ركوة

ثم صاح ومدّ صوته: زاغ زاغ، وانطرح في القمطر. فقلت: أيها القاضي، هو عاشق؟ قال: هذا ما لا علم لي به، حُمل إلى أمير المؤمنين من كتاب مختوم فيه ذكر حاله»(١)

إن حديث الزاغ هذا يشي بما يردده الأطفال في كل زمان ومكان من محاكاة للطير، ورغبة في تقليده، الأمر الذي جعل القدامى يلتفتون إلى هذا الجانب، ويحرصون على النظم بأسلوبه.

(١) حياة الحيوان٢: ٢ ـ ٣.
القمطر ـ بكسر القاف وفتح الميم وسكون الطاء: ماتصان فيه الكتب.
والسلعة: ورم غليظ غير ملتزم باللحم، يتحرك عند تحريكه، وله غلاف.
الركوة: اناء صغير من جلد يشرب فيه الماء.

(٥)

وكان عمرو بن كلثوم ـ الشاعر الجاهلي المعروف ـ من المعمرين، إذ قيل إن عمره بلغ خمسين ومائة عام. ولا شك في أن هذه السن أكسبته خبرة ودربة في أمور الحياة، جعلته بصيراً بها، خاصة وهو الرجل المغامر، المعتز بنفسه وقبيلته، إذ رفض الضيم، وتحدى الملك عمرو بن هند وعرَّضَ به حينما أراد أن ينال أمه بالأذى والهوان فقال معلقته المشهورة، ومنها بيته الذي لا يزال يتردد على الألسنة:

إذا بلغ الفطام لنا صبي
تخر له الجبابر صاغرينا

شاعرنا هذا جمع بنيه، عندما حضرته الوفاة، وأراد أن يوصيهم بخلاصة تجاربه في هذه الرحلة الطويلة مع الحياة، وإذا بها سبع عنده. أولها أن يكف أبناؤه عن تعيير الآخرين، وذلك أنه وجد نفسه لم يعير أحداً بشيء إلا عيِّر به، حقاً كان أم باطلاً. وثانيها الإحسان إلى الجار. وثالثها منع ضيم الغريب. ورابعها حسن الاستماع للآخرين والإيجاز. في الكلام معهم. وخامسها الشجاعة والاقدام. وسادسها التروي عند الغضب. وسابعها الزواج من خارج حيهم. انظره يخاطبهم بقوله «يا بني، قد بلغت من العمر ما لم يبلغه أحد من آبائي، ولا بد أن ينزل بي ما نزل بهم من الموت. وإني والله، ما عيرت أحداً بشيء إلا عيرت بمثله، إن كان حقاً فحقاً، وإن كان باطلاً فباطلاً، ومن سَبَّ سُبَّ، فكفوا عن الشتم، فإنه أسلم لكم. وأحسنوا جواركم يحسن ثناؤكم. وامنعوا من ضيم الغريب، فرب رجل خير

من ألف، وردّ خير من خلف، وإذا حُدثتم فعوا، وإذا حَدثتم فأوجزوا، فإن مع الاكثار تكون الأهذار. وأشجع القوم العطوف بعد الكر، كما أن أكرم المنايا القتل. ولا خير فيمن لا روية له عند الغضب، ولا من عوتب لم يعتب. ومن الناس من لا يرجى خيره، ولا يخاف شره. فبكؤه خير من دره. وعقوقه خير من بره، ولا تتزوجوا في حيكم فإنه يؤدي إلى قبيح البغض»(١).

وكان ذو الإصبع العدواني من سادات العرب في الجاهلية، وكان شاعراً مقدماً، صرف شعره للفخر والحماسة والحكمة. وغلبت على شعره السهولة والرقة، على الرغم من كونه من قدماء شعراء الجاهلية. وهو من أصحاب الوصايا المشهورة في النثر الجاهلي. وأبرز وصاياه وصيته لابنه أسيد الذي أراده سيداً من بعده، يسير على خطاه، ويحفظ سيرته التي سارها في قومه: سيادة، وشجاعة، وحلماً. ولذلك لحظناه يقول له: «يا بني إن أباك قدفني وهو حيٌّ، وعاش حتى سئم العيش، وإني موصيك بما إن حفظته، بلغت في قومك ما بلغته. فاحفظ عني: ألن جانبك لقومك يحبوك. وتواضع لهم يرفعوك. وأبسط وجهك لهم يطيعوك. ولا تستأثر عليهم بشيء يسوّدوك. وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم، يكرمك كبارهم، ويكبر على مودتك صغارهم. واسمح بما لك. واحم حريمك. واعزز جارك. وأعن من استعان بك. وأكرم ضيفك. وأسرع النهضة في الصريخ، فإن لك أجلاً لا يعدوك. وصن وجهك عن مسألة أحد شيئاً. فبذلك يتم سؤددك». هذه هي وصية ذي الإصبع العدواني التي تناقلتها كتب الأدب، وهي وصية لا تختلف في جوهرها عن كثير من الوصايا التي عُني بها سادات العرب لأبنائهم. لكن ذا الإصبع لا يتوقف عند هذا الحد، وكأنه رأى أن هذه الوصية لا يتحقق لها النجاح إلا إذا أعاد

(١) الاغاني ١١: ٥٣ ـ ٥٤ والاعتاب: رجوع المعتوب عليه الى ما يرضي العاتب. وأصل البكء: قلة اللبن وانقطاعه، والمعنى المراد، فمنعه خير من عطائه.

صياغتها في قالب فني آخر هو الشعر، وبذلك يتحقق لها أمران: أحدهما سهولة حفظها، و الثاني ـ وهو مترتب على الأول ـ أن تكون دستوراً للناشئة في كل زمان ومكان، يقرءونها، ويحفظونها، وتكون هادياً لهم في حياتهم المقبلة. أعاد ذو الإصبع صياغة وصيته لابنه شعراً، وإذا بها لوحة فنية جميلة، محببة للنفس، سهلة، تمتلىء بالقيم والمثل، وتجمع بين المتناقضات التي يظهر بها سمات القيم السامية، وخصائص السلوك المشين. فالأب يدعو ابنه إلى أن ينفق ماله في الطرق الصحيحة التي يجني بها الخير للآخرين والذكر الطيب له، ويدعوه إلى أن يختار صحبه من الكرام ذوي السيرة الحميدة والسلوك الحسن، وأن يبذل في سبيل ذلك الغالي والنفيس حتى وإن أدى ذلك إلى أن يقدم حياته ثمناً لذلك. وبالمقابل فإنه دعاه إلى أن لا يتهاون مع اللئام أو أن يلين جانبه لهم لأنهم لا يستحقون هذا من جهة، ولأنه لن يأمن غدرهم من جهة ثانية. وحثه على أن لا يلتفت للجبناء والبخلاء، الذين تطول حياتهم ويكثر مالهم، لأنه لا قيمة للحياة بلا كرامة ولا قيمة للمال إن لم يوظف لإنفاقه في طرق الخير، وتقديمه معونة للمحتاج. ولا ينسى ذو الإصبع العدواني أن يوجه ابنه إلى أهله وعشيرته بتقوية روابط المحبة بينه وبينهم، وأن لا ينساهم وإن بعدت المسافات، لأنهم أهله الذين يشدون أزره، ويحفظون وده. هذه هي المعاني التي اشتملت عليها القصيدة، ولا نجد كبير فرق بينها وبين معاني وصيته، ولكن شتان بين الاثنتين من حيث الوقع على النفس، والتأثير في النشء فالوصية تحمل الطابع الوعظي الإرشادي، أما القصيدة فإنها تحمل صورة الفن وإن أثرها يكمن في الاستيعاب والاستزادة في القراءة، لأنها تدعو للتأمل والتفكير من قبل المتلقي، وهذا بدوره يقود إلى تحقيق الغرض الذي أعدت من أجله، ولا أخالني أبعد عن الصواب إن قلت إن هذه القصيدة تعد من صميم أدب الأطفال الذي يقدم لأطفالنا اليوم كما قدمت لأطفال الجاهلية.

قال ذو الإصبع العدواني:

أأسيد إن مالاً ملكتَ
فسر به سيراً جميلاً
آخ الكرام إن استطعـ
ت إلى إخائهم سبيلا
واشرب بكأسهم وإن
شربوا به السم الثميلا
أهن اللئام ولا تكن
لإخائهم جملا ذلولا
إن الكرام إذا توا
خيهم وجدت لهم فضولا
ودع الذي يعد العشيـ
رة أن يسيل ولن يسيلا
أبُني إن المال لا
يبكي إذا فقد البخيلا
أأسيد إن أزمعت من
بلد إلى بلد رحيلا
فاحفظ وإن شحط المزا
ر أخا أخيك أو الزميلا
واركب بنفسك إن همـ
ت بها الحزونة والسهولا
وصل الكرام وكن لمن
ترجو مودته وصولا
ودع التواني في الأمو
ر وكن لها سلساً ذلولا

وابســـــط يـمـيـنـك بـــالـــنـــدى
وامـــدد لهـــا بـــاعـــا طـــويـــلا
وابســـــط يـــديـك بـــما مـلـــك
ت وشـيـــد الحـســب الـــدخـيـــلا
وابـــذل لـــضـيـــفـك ذات رحـــــ
لـك مـكـــرمـــا حـتـــى يـــزولا
واحـلـــل عـلى الإيـفـــاع لـلـعـــا
فـين واجـتـــنـــب المـســـيـــلا
واذا الـــقـــروم تخـــاطـــرت
يـــومـــا وأرعـــدت الخـصـيـــلا
فـــاهصر كـــهصر الـــلـيـث خـضّـ
ب مـن فـــريـســتـــه الـتـلـيـــلا
وانـــــزل إلى الهـــيـــجـــا إذا
أبـطـــالهـــا كـــرهـــوا الـنـــزولا
واذا دعـــيـــت إلى المـــهـــمـــ
م فـكـــن لـــفـــادحـــه حمـــولا(١)

إنها روح دعوة عمر بن كلثوم، يضاف إليها دعوة ذي الاصبع العدواني لابنه، إلى أن يكون سيداً، وما تتطلبه هذه الدعوة من مهام. وأية مهام؟ إنها المهام التي تكلف صاحبها جهداً، وبذلا لا يتحمله إلا الأقلون، وتتطلب منه جلدا وحنكة، قلما تمتع بها غيره. وهي مهام السيد الذي يذوب في الذين يسودهم، أو قل يذوب في سبيلهم وينفق ماله لتتوفر لهم سبل رخائهم وترفهم. دعوة ليس فيها مكر

(١) الاغاني ٣: ٩٨ ـ ٩٩
والسم الثميل: المنقع الذي انقع اياما حتى اختمر. والحزونة: غلاظ الارض.
والقروم: السادة العظام. والخصيل، مفردها الخصيلة: كل لحمة فيها عصب.
والتليل: المصروع.

ودهاء، بقدر ما فيها من حكمة ووفاء.

وهناك مثال آخر لهذا النهج الذي رسمه الآباء لأبنائهم، من العصر الأموي، جسده عبدالله بن شداد لابنه، ولكل الأطفال، حين حضرته الوفاة. وقد زاوج فيه ابن شداد بين الشعر والنثر. بث ابنه خبراته وتجاربه، وترجمها شعراً انتقاه من التراث الشعري الذي يعكس هذه التجارب، وكأنه رأى في النثر قصوراً، بحيث لا يرقى للدرجة التي يتمتع بها الشعر، لسهولة حفظه، ولأن الأمر كان يقتصر على الرواية حسب. حدث ابن شداد ابنه عن الموت، وأنه لا مفر منه. وعن الإيمان بوصفه خير زاد وعتاد يزود المرء به نفسه. ثم تكلم على المعروف وأثره في النفوس. وانتقل إلى الكرم ومميزاته، والبخل وآفاته. وعرج على كرم النفس وصونها عن الدنايا. وأشار إلى الحسد وما يخلفه من حزازات وإحن ووصل به إلى الحديث عن العشرة، والفرق بين الرفيق المخلص والمؤتمن، وبين رفيق السوء. وشخص له الحب وطبيعته وحثه على ضرورة الاقتصاد فيه، والبغض وأثره، ودعاه إلى عدم الإسراف فيه. وختم حديثه بدعوته إلى صحبة الأخيار وصدق الحديث، ونهاه عن صحبة الأشرار لأنها عار.

هذه ثمان قضايا اشتملت عليها وصية عبدالله بن شداد لابنه، وهي منهج كامل للأبناء والناشئة تصلح في كل زمان ومكان. وقد ضمنه ابن شداد ثمانية نصوص شعرية لثمانية من شعراء الجاهلية والإسلام. واللافت للنظر، أن هذه الأشعار اتسمت جميعها بالرقة والسهولة، وابتعدت عن الحوشي من اللفظ، والمستغلق في التعبير، مما جعلها مناسبة للمقام الذي قيلت فيه، وللمستوى الثقافي للمتلقي الذي تخاطبه، وهو جيل الأطفال الذين لم تكتمل شخصيتهم الثقافية والفكرية، وكانوا بحاجة إلى هذا القدر من التعبير الذي خاطبهم به عبدالله بن شداد، فقال: «يا بني، إني أرى داعي الموت لا يقلع، وأرى من مضى لا يرجع، ومن بقي فإليه

ينزع، وإني موصيك بوصية فاحفظها، عليك بتقوى الله العظيم، وليكن أولى الأمور بك شكر الله وحسن النية في السر والعلانية، فإن الشكور يزداد، والتقوى خير زاد، وكن كما قال الحطيئة:

ولست أرى السعادة جمع مال
ولكن التقي هو السعيد
وتقوى الله خير الزاد ذخراً
وعند الله للأتقى مزيد
وما لا بد أن يأتي قريب
ولكن الذي يمضي بعيد

ثم قال: أي بني، لا تزهدن في معروف، فإن الدهر ذو صروف، والأيام ذات نوائب، على الشاهد والغائب، فكم من راغب قد كان مرغوباً إليه، وطالب أصبح مطلوباً ما لديه، واعلم أن الزمان ذو ألوان، ومن يصحب الزمان يرى الهوان، وكن ـ أي بني ـ كما قال أبو الأسود الدؤلي:

وعد من الرحمن فضلا ونعمة
عليك إذا ما جاء للعرف طالب
وأن أمرأ لا يرتجى الخير عنده
يكن هينا ثقلا على من يصاحب
فلا تمنعن ذا حاجة جاء طالبا
فإنك لا تدري متى أنت راغب
رأيت التوا هذا الزمان بأهله
وبينهم فيه تكون النوائب.

ثم قال: أي بني، كن جوادا بالمال في موضع الحق، بخيلاً بالأسرار عن جميع

الخلق، فإن أحمد جُود المرء الإنفاقُ في وجه البِّر، وإن أحمد بُخْل الحُرّ، الضنُّ بمكتوم السر، وكن كما قال قيس بن الخطيم الأنصاري:

أجود بمكْنُونِ التلاد وانني
بسرِّكَ عمَن سالني لضنينُ
إذا جاوز الإثنين سرفانه
بنث وتكثير الحديث قمين
وعندي له يوما إذا ما ائتمنتني
مكان بسوداء الفؤاد مكين

ثم قال: أي بني، وان غلبت يوما على المال، فلا تدع الحيلة على حال فان الكريم يحتال، والدني عيال، وكن أحسن ما تكون في الظاهر حالا، أقل ما تكون في الباطن مالا، فإن الكريم من كرمت طبيعته، وظهرت عند الإنفاد نعمته، وكن كما قال ابن خذاق العبدي:

وجدت أبي قد أورثه أبوه
خلالا قد تعد من المعالي
فأكرم ما تكون عليَّ نفسي
إذا ما قلَّ في الأزمات مالي
فتحسن سيرتي وأصون عرضي
ويجمل عند أهل الرأي حالي
وإن نلت الغنى لم أغل فيه
ولم أخصص بجفوتي الموالي

ثم قال: أي بني، وإن سمعت كلمة من حاسد، فكن كأنك لست بالشواهد، فإنك إن أمضيتها حيالها، رجع العيب على من قالها، وكان يقال: الأريب العاقل،

هو الفطن المتغافل، وكن كما قال حاتم الطائي:

ومـــا من شيمتي شتم ابن عمي
وما أنا مخلف من يرتجيني
وكلمة حاسد في غير جرم
سمعت فقلت مرّي فانفذيني
فعابوها عليَّ ولم تسؤني
ولم يعرق لها يوما جبيني
وذو اللونين يلقاني طليقا
وليس إذا تغيب يأتليني
سمعت بعيبه فصفحت عنه
محافظة على حسبي وديني

ثم قال: أي بني، لا تواخ امرأ حتى تعاشره وتتفقد موارده ومصادره، فإذا استطعت العشرة، ورضيت الخبرة، فواخه على إقالة العثرة، والمواساة في العسرة، وكن كما قال المقنع الكندي:

أبْلُ الرجال إذا أردت إخاءهم
وتوسمنَّ فعالهم وتفقد
فإذا ظفرت بذي اللبابة والتقى
فبه اليدين قرير عين فاشدد
وإذا رأيت ولا محالة زلة
فعلى أخيك بفضل حلمك فاردد

ثم قال: أي بني، إذا أحببت فلا تفرط، وإذا أبغضت فلا تشطط، فإنه قد كان يقال: أحبب حبيبك هونا ما، عسى أن يكون بغيضك يوما ما، وابغض بغيضك هونا ما، عسى أن يكون حبيبك يوما ما، وكن كما قال هدبة بن الخشرم العذري:

وكن معقلا للحلم واصفح عن الخنا
فإنك راء ما حييت وسامع
وأحبب إذا أحببت حبا مقاربا
فإنك لا تدري متى أنت نازع
وأبغض إذا أبغضت بغضا مقاربا
فإنك لا تدري متى أنت راجع

وعليك بصحبة الأخيار وصدق الحديث، وإياك وصحبة الأشرار فإنه عار، وكن كما قال الشاعر:

اصحب الأخيار وارغب فيهم
رب من صاحبته مثل الجرب
ودع الناس فلا تشتمهم
وإذا شاتمت فاشتم ذا حسب
إن من شاتم وغدا كالذي
يشتري الصفر بأعيان الذهب
واصدق الناس إذا حدثتهم
ودع الناس فمن شاء كذب(١)

إن هذه الوصايا أخذت بعداً شمولياً، وصدرت عن أناس خبروا الحياة، وحققوا مواقع مرموقة فيها، فكانت جديرة بأن تكون مثالاً يحتذى، لما اشتملت عليه من قيم فاضلة، ومناهج للسلوك، وأسلوب رائع في العرض، صلحت في عصرها، وتصلح في كل عصر ـ هي بنصها، أو بمضمونها بعد صياغتها بما يلائم عصرنا الحاضر، وأي عصر قابل. إنها أدب أطفال، قدم لهم، وخاطب ضمائرهم.

(١) الأمالي ٢: ٢٠٢ ـ ٢٠٤.

ملحقان

الملحق الأول

نماذج من قصص الحيوان في كتب التراث قريبة من روح الأطفال

(في بيته يؤتى الحكم)

قولهم في بيته يؤتى الحكم، هذا شيء يتمثل به العرب على المزح ولا أصل له، زعموا أن الأرنب وجدت تمرة فاختلسها الثعلب منها فأكلها، فانطلقت به إلى الضب يختصمان إليه. فقالت الأرنب: يا أبا الحسيل. فقال: سمعا دعوت. قالت: أتيناك لنحتكم إليك فاخرج إلينا. قال: في بيته يؤتى الحكم. قالت: إني وجدت تمرة. قال: حلوة فكليها. قالت: فاختلسها الثعلب مني فأكلها. قال: لنفسه بغى الخير. قالت: فلطمته! قال: بحقك أخذت. قالت فلطمني. قال: حر انتصر. قالت: فأقض بيننا. قال: قد حكمت:

الفاخر ٧٦

(الضبع والظبية)

قالوا: رأت الضبع ظبية على حمار فقالت: أردفيني. فأردفتها. فقالت: ما أفره حمارك! ثم سارت يسيرا فقالت: ما أفره حمارنا! فقالت الظبية: انزلي قبل أن تقولي ما أفره حماري!

الأمثال ٤٧

(الأفعى والطائر)

زعموا أن وصعا ـ طائراً أصغر من العصفور ـ كان يجاور حية رقشاء، فكان ذلك إذا فرّخ سرت الحية لأكل فراخه في الظلام، في عام بعد عام. والله يجازي على الحيف والأنعام، فقضى ـ سبحانه ـ بتلك الحية أن كفّت في آخر عمرها، فلزمت الوجار (الجحر) لا تذعر النائي ولا الجار. فقال أحباؤه: ألا تأتي الظالمة مظهراً للشمات؟ قال: لو كنت، وهي المبصرة أقدر على ضير، لكنت اليها وشيك السير، فأما إذ كفتنيها الاقضية فإن عيني مغضية.

رسالة الصاهل والشاحج ٤٨ ـ ٤٩

(الأسد الأعمى المتكبر)

عمي أسد من عوام الأسد، فاضرّ ذلك به، فقيل له: لو جئت ملك الأسد فسألته أن يصلك لكان ذلك رأيا لك. فذهب إليه وسرد قصته عليه، فقال لخازنه: يجرى عليه في كل يوم عضوا مؤربا (مقطوعاً). فقال الأسد الذي التمس الجراية: اصلح الله الملك، إني كنت اصطاد الوعل أو البقرة الأهلية فلا أكاد ادرك بها الشبع، فأين مني هذا العضو يقع؟ فقال الملك من اتكل على كسب غيره وجب أن يقتنع بقليل خيره. قال الأسد: صدق الملك، ولا حاجة لي بهذا العضو. فقال الملك: فما تصنع؟ قال: اجتزي بنبت السحاب، ولا افتقر إلى الملك والأصحاب.

رسالة الصاهل والشاحج ٤٩

(الغراب والحمامة)

زعموا أن غراباً ألف مطبخاً لبعض الملوك، فأخذ من أطيب اللحمان التي قد صارت فيه شيئا. فظنوا أن الغراب أخذه لقلة وفائه ولؤم جوهره، فطردوه عن مطبخهم. وقالوا: ما نرجو من هذا الغراب، وهو من الطيور التي تعاف ويتطير منها. فأفشى ذلك الغراب أمره إلى حمامة قد كان بينهما معرفة، وفزع إلى رأيها. وأخبرها ما كان فيه من نعيم المأكل والمشرب، فقالت له الحمامة: انطلق بي حتى

تريني هذا المطبخ، فانطلق حتى أتى سطح المطبخ. فقالت الحمامة: أني أرى هذا البيت ليس فيه موضع مدخل، فاحفر لي بمنقارك قدر ما أدخل فيه فان منقاري يضعف عن ذلك. فحفر الغراب في سقف البيت بمنقاره، حتى دخلت فيه الحمامة، وتوسطت في البيت، فأعجبهم حسن خلقها وصفاء لونها. فجعل لها خازن المطبخ موضعاً تأوى إليه فلبثت في ذلك البيت قريرة العين. فناداها الغراب: ما هكذا قدرت فيك! فقالت الحمامة: لو وفيت لك حل بي غدرك، وان القوم عرفوا وفائي وحسن جواري وعرفوا غدرك وقلة وفائك ونكث عهدك!

المحاسن والاضداد ١٦٧

(صائد وعصفور)

كان صائد يصيد العصافير في يوم بارد، فكان يذبحها والدموع تسيل، فقال عصفور لصاحبه: لا بأس عليك من الرجل، أما تراه يبكي؟ فقال له الآخر: لا تنظر إلى دموعه، بل إلى ما تصنع يداه..

الحيوان ٥ : ٢٣٨

(الطيور والثعلب)

قالوا: أو لم طائر وليمة، فأرسل يدعو بعض أخوانه، فغلط بعض رسله، فجاء إلى الثعلب فقال: أخوك يدعوك. فقال: السمع والطاعة، فلما رجع أخبر الطائر، فاضطربت الطيور وقالوا: أهلكتنا وعرضتنا للحتف. فقالت القنبرة: أنا أصرفه عنكم بحيلة. فمضت، فقالت: أخوك يقرأ عليك السلام ويقول لك: الوليمة يوم الإثنين، فأين تحب أن يكون مجلسك، مع الكلاب السلوقية، أو مع الكلاب الكردية؟ فتجرعها الثعلب وقال: ابلغي أخي السلام، وقولي له: ابو سرور يقرئك السلام، ولكن قد تقدم لي نذر منذ دهر بصوم الإثنين والخميس.

البصائر والذخائر ١ : ٢٨٢

(القنبرة والصياد)

قال الشعبي: أخبرت أن رجلا صاد قنبرة فلما صارت في يده قالت: ما تريد أن تصنع بي؟ قال: أذبحك! وآكلك. قالت: ما أشفي من مرض ولا أُشبع من جوع، ولكن أعلمك ثلاث خصال خير لك من أكلي. أما واحدة: أعلمك وأنا في يدك! والثانية: على الشجرة. والثالثة على الجبل. فقال: هات الواحدة. قالت لا تتلهفن على ما فاتك. قال فلما صارت على الشجرة، قال: هات الثانية! قالت له: لا تصدق بما لا يكون أن يكون، يا شقي لو ذبحتني أخرجت من حوصلتي درتين في كل واحدة عشرون مثقالاً. قال: فعض على شفتيه وتلهف. فلما صارت على الجبل

قال لها: هات الثالثة. قالت: أنت نسيت اثنتين فيكف أحدثك بالثالثة. ألم أقل لك لا تتلهفن على ما فاتك، ولا تصدق بما لا يكون أن يكون؟ أنا وريشي ولحمي لا أكون عشرين مثقالاً. قال: وطارت فذهبت.

الأذكياء ٢٤١ ـ ٢٤٢

(الأسد المريض والذئب والثعلب)

قال الشعبي: مرض الأسد فعاده السباع ماخلا الثعلب. فقال الذئب: أيها الملك، مرضت فعادك السباع إلا الثعلب. قال: فاذا حضر فاعلمني. فبلغ ذلك الثعلب، فجاء. فقال له الأسد: يا أبا الحصين مرضت فعادني السباع كلهم ولم تعدني أنت. قال: بلغني مرض الملك فكنت في طلب الدواء له. قال الأسد: فأي شيء أصبت؟ قال: قالوا لي خرزة في ساق الذئب ينبغي أن تخرج. فضرب الأسد بمخالبه ساق الذئب، فانسل الثعلب وخرج فقعد على الطريق، فمر به الذئب والدم يسيل عليه. فقال له الثعلب: يا صاحب الخف الأحمر! إذا قعدت بعد هذا عند سلطان، فانظر ما يخرج من رأسك!

المستطرف ٢: ١١٩

(الفأرة والقطة)

قال أبو سليمان. . . . . (المثل) يدك عني وأنا في عافية. وأصل هذا فيما يتكلم به الناس على ألسنة البهائم: أن فأرة سقطت من السقف، فظفرت الهرة بحملها تقول: بسم الله عليك! فقالت الفأرة: يدك عني! وأنا في عافية!

الأذكياء ٢٤٥

(الأسد والذئب والثعلب يخرجون للصيد)

قال: حدثنا المعافى بن زكريا، قال: زعموا أن أسداً وذئباً وثعلباً اصطحبوا فخرجوا يتصيدون، فصادوا حمارا وظبيا وأرنبا. فقال الأسد للذئب: أقسم بيننا صيدنا. قال الأمر أبين من ذلك: الحمار لك، والأرنب لأبي معاوية والظبي لي!

قال: فخبطه الأسد فأندر رأسه. ثم أقبل على الثعلب وقال: قاتله الله ما أجهله بالقسمة. ثم قال: هات أنت. قال الثعلب: يا أبا الحارث الأمر أوضح من ذلك. الحمار لغذائك، والظبي لعشائك، وتخلل الأرنب فيما بين ذلك! قال الأسد: ويحك ما اقضاك من علّمك هذه القضية؟ قال: رأس الذئب النادر بين عينيّ.

الأذكياء ٢٤٣

(الفخ والعصفور)

حدثنا عثمان بن عطاء أن أبيه قال: نصب رجل من بني إسرائيل فخا من ناحية الطريق، فجاء عصفور فسقط ثم انطلق إلى الفخ. فقال للفخ: مالي أراك متباعداً عن الطريق؟ قال: أعتزل شرور الناس. قال: فما لي أراك ناحل الجسم؟ قال: أنحلتني العبادة! قال: فما هذا الحبل على عطفيك؟ قال: المسوح والشعر، لبس الرهبان والزهاد. قال: فما هذه العصا في يدك؟ قال: أتوكأ عليها. قال: فما هذه الحبة في فيك؟ قال: رصدتها لابن السبيل ومحتاج. قال: فأنا ابن السبيل ومحتاج. قال: فدونك! قال: فوضع العصفور رأسه في الفخ فأخذ بعنقه. فقال العصفور: سيق سيق!! ثم قال: لاغرَّني بعدك قارىء مرائي مرة أخرى

الأذكياء ٢٤٢

(مثل فأرة البيت وفأرة الصحراء)

قيل إن فأرة البيت رأت فأرة الصحراء في شدة ومحنة فقالت لها: ما تصنعين هنا؟ اذهبي معي إلى البيوت التي فيها أنواع النعيم والخصب. فذهبت معها وإذا صاحب البيت الذي كانت تسكنه قد هيأ لها الرصد: لبنة تحتها شحمة. فاقتحمت لتأخذ الشحمة فوقعت عليها اللبنة فحطمتها. فهربت الفأرة البرية وهزّت رأسها متعجبة وقالت: أرى نعمة كثيرة وبلاء شديدا. إن العافية والفقر أحب إليّ من غنى يكون فيه الموت. ثم فرّت إلى البرية.

المستطرف ٢: ٣

الملحق الثاني

مصادر من التراث الأدبي
عند العرب
ذات صلة بأدب الأطفال

١ ـ ألف ليلة وليلة، دار التوفيق، بيروت ١٩٧٨.
٢ ـ الإمتاع والمؤانسة، أبو حيان علي بن محمد بن العباس التوحيدي (توفي ٣٨٠ هـ)، تحقيق أحمد أمين وأحمد الزين، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت.
٣ ـ الامثال، مؤرج بن عمر السدوسي (توفي ١٩٨ هـ)، تحقيق احمد الضبيب الرياض، ١٩٧٠م.
٤ ـ أمثال العرب، المفضل بن محمد الضبي (توفي ١٦٨ هـ) نشره د. إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٨٣م.
٥ ـ البصائر والذخائر، أبوحيان التوحيدي، تحقيق ابراهيم الكيلاني، دمشق ١٩٦٤.
٦ ـ تحفة النظار في غرائب الامصاروعجائب الاسفار. محمد بن عبدالله بن محمد ابن بطوطة (توفي ٧٠٣ هـ) المكتبة التجارية، القاهرة ١٩٨٣م.
٧ ـ تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة، ابو الريحان محمد بن أحمد البيروني (توفي ٤٤٠هـ)، عالم الكتب، بيروت ١٩٧٧م.
٨ ـ التمثيل والمحاضرة، أبومنصور عبدالملك بن محمد، أبواسماعيل الثعالبي (توفي ٤٢٩ هـ)، تحقيق عبدالفتاح الحلو، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٣٨١ هـ/ ١٩٦١م.
٩ ـ حياة الحيوان الكبرى، كمال الدين محمد بن موسى الدميري (توفي ٨٠٨ هـ)، مطبعة حجازي، القاهرة ١٣٦٧ هـ.
١٠ ـ الحيوان، أبوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ (توفي ٢٥٠ هـ)، تحقيق عبدالسلام هارون، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة ١٩٣٨ ـ ١٩٤٥م.
١١ ـ الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة، حمزة بن الحسن الأصفهاني (توفي ٣٥١ هـ)، تحقيق عبدالمجيد قطامش، دار المعارف بمصر ١٩٧١م.
١٢ ـ ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، محمود بن عمر الزمخشري (توفي ٥٣٨ هـ)، تحقيق د. سليم النعيمي، مطبعة العاني، بغداد ١٩٧٦م.
١٣ ـ رسالة الصاهل والشاحج، أبوالعلاء المعربي (توفي ٤٤٩هـ)، تحقيق د.

عائشة عبدالرحمن، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤ م.
١٤ ـ عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، زكريا بن محمد بن محمود القزويني (توفي ٦٨٢ هـ)، دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٧٨م.
١٥ ـ العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبدربه (توفي ٣٢٨ هـ)، تحقيق د. احمد أمين وآخرين، دار الكتاب العربي، القاهرة ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م.
١٦ ـ عيون الأخبار، محمد بن عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (توفي ٢٧٦هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت.
١٧ ـ الفاخر، المفضل بن سلمة بن عاصم (توفي ٢٩٠هـ)، تحقيق عبدالعليم الطحاوي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٧٤م.
١٨ ـ كتاب أخبار الحمقى والمغفلين، ابوالفرج عبدالرحمن بن علي بن الجوزي (توفي ٥٩٧ هـ)، دار الآفاق الجديدة، بيروت. د.ت.
١٩ ـ كتاب الأذكياء، ابوالفرج عبدالرحمن بن علي بن الجوزي، دار الآفاق الجديدة، بيروت. د.ت.
٢٠ ـ كليلة ودمنة، ترجمة عبدالله بن المقفع (توفي ١٤٢ هـ)، دار الآفاق الجديدة، بيروت ١٩٨٠م.
٢١ ـ مجمع الأمثال، احمد بن محمد الميداني (توفي ٥١٨هـ)، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة ١٣٧٤هـ/ ١٩٥٥م.
٢٢ ـ المحاسن والأضداد، أبوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ، تحقيق فوزي عطوي، بيروت ١٩٦٩ م.
٢٣ ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر، علي بن الحسين المسعودي (توفي ٣٤٦هـ)، تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد، المكتبة التجارية، القاهرة، ١٩٤٨.
٢٤ ـ المستطرف في كل فن مستظرف، شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي (توفي ٨٥٠ هـ)، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٨٧م.
٢٥ ـ المستقصي في أمثال العرب، محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧٧م.

٢٦ ـ الموشى، أو الظرف والظرفاء، محمد بن اسحاق بن يحيى الوشاء (توفي ٣٢٥ هـ)، دار صادر، بيروت ١٩٦٥م.

٢٧ ـ نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، شمس الدين محمد بن أبي طالب الانصاري (توفي ٧٢٧ هـ)، طبعة ميرن، لايبزك، ١٩٢٣، صورة بالاوفسيت، د.ت.

المصادر والمراجع

١ ـ أخبار الحمقى والمغفلين، ابن الجوزي، دار الافاق الجديدة، بيروت، د.ت.

٢ ـ أدب الأطفال، ايزابيل جان، ترجمة ماري سابا، المكتبة الأهلية، بيروت ١٩٨٦م.

٣ ـ أدب الأطفال: فلسفته، فنونه، وسائطه، د. هادي نعمان الهيتي، وزارة الاعلام، بغداد ١٩٧٧م.

٤ ـ الأدب المقارن، د. محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر، القاهرة ١٩٧٧م.

٥ ـ الأغاني، أبوالفرج الأصفهاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.

٦ ـ الأمالي، ابوعلي القالي، دار الآفاق الجديد، بيروت ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

٧ ـ أمية بن أبي الصلت ـ حياته وشعره، د. بهجت الحديثي، مطبعة العاني، بغداد ١٩٧٥م.

٨ ـ البيان والتبيين، الجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

٩ ـ تربية الأبناء في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي، د. محمد ابراهيم حور، مكتبة المكتبة، العين، ١٩٨٠م.

١٠ ـ التربية في الاسلام، د. أحمد فؤاد الاهواني، دار المعارف بمصر ١٩٨٠م.

١١ ـ التمثيل والمحاضرة، الثعالبي، تحقيق عبدالفتاح الحلو، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م.

١٢ ـ ثقافة الأطفال، د. هادي نعمان الهيتي، عالم المعرفة رقم ١٢٣، الكويت ١٩٨٨م.

١٣ ـ الحيوان، الجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الثانية.
١٤ ـ الدرة الفاخرة في الأمثال السائرة، حمزة الأصفهاني، تحقيق عبدالمجيد قطامش، دار المعارف بمصر ١٩٧١م.
١٥ ـ رثاء الابناء في الشعر العربي حتى نهاية العصر الأموي، د. محمد ابراهيم حور، مكتبة المكتبة، العين ١٩٨١م.
١٦ ـ رسائل الجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي بمصر ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م.
١٧ ـ العقد الفريد، ابن عبدربه، شرح د. أحمد امين وآخرين، دار الكتاب العربي، بيروت ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
١٩ ـ كتاب الأذكياء، ابن الجوزي، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د.ت.
٢٠ ـ محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء، الراغب الأصبهاني، بدون تاريخ ومكان نشر.
٢١ ـ ملامح يونانية في الأدب العربي، د. احسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٨م.
٢٢ ـ النقد الأدبي الحديث، د. محمد غنيمي هلال، دار العودة، بيروت ١٩٨٢م.

تربية الأبناء في الأدب العربي

حتى نهاية العصر الأموى

مقدمة

زاد الاهتمام في عصرنا الحديث بالمناهج والدراسات التربوية، وظهرت كتب كثيرة في هذا الباب، تحدثت عن التربية عند المسلمين ومن سبقهم من الأمم القديمة، كما تناولت بالبحث، الاتجاهات التربوية التي شاعت في أوروبا في وقتنا الحاضر. وقد انصبت هذه الدراسات ـ جميعها تقريباً ـ على المدرسة وطرق التدريس وعلى المدرسين وأساليبهم وأهملت ـ أو كادت ـ المدرسة الأساسية الأولى ـ التي ينشأ الطفل، وهو يتشرب منها الأسس التربوية، التي تغذيه وترشده، وتولد فيه عناصر العطف والحنان والمحبة، وتجعل منه لبنة صالحة لبناء المجتمع وتماسكه. كل هذا من خلال الخلية الأولى في المجتمع، وهي الأسرة.

وقد زخر الأدب العربي بهذا ـ تربية الآباء للأبناء، والاهتمام بهم ورسم المنهج الذي لا بد أن يسير الابن عليه... تحدث الآباء للأبناء شعراً ونثراً، في كل شؤون حياتهم. وبينوا لهم سبل الرَّشاد، ونهوهم عن طريق التيه والضّلال. فكان أن خلفوا رجالا ميامين، تركوا بصماتهم على كل بيئة عاشوا بين جنباتها، وفي كل عصر تواجدوا فيه.

ويكى الآباء الأبناء بكاء مراً مؤلماً، صور مدى حبهم لهم ولوعتهم عليهم عند موتهم.

من هنا كانت ضرورة هذا البحث، الذي آمل أن يسد، فراغاً في المكتبة العربية، بدراسة مناهج التربية في الأدب العربي ـ في الأسرة خاصة ـ لنتبين كيف كان نهج العرب في هذا ولنحاول الاستفادة منهم في عصر غلبت عليه روح الإهمال للأسرة ـ بعد أن شغلت الأم والأب بالعمل اليومي خارج البيت، وبعد أن شاع الاتجاه نحو إرسال الأبناء منذ أيامهم الأولى إلى دور الحضانة ـ التي ينقصها في مجتمعاتنا من وسائل العناية والرعاية، الصحية والتربوية الشيء الكثير. كما أن المربيات فيها يغلب عليهن الافتقار الى التكوين والاعداد الكافيين لهذه المهمة الخطيرة التي أسندت اليهن، وقمن بتنفيذها. مما جعل دور الحضانة في بلادنا تأتي بمردود عكسي، الأمر الذي يلح في أن تلتفت الأنظار إلى هذا الجانب، وتسعى إلى إصلاحه ـ أقول يرسلون إلى دور الحضانة فلا يرى الأبوان ابنهما إلا لماماً، ولا يعرفان عن أسلوب تربيته ورعايته إلا القليل ولا يبثانه من عطفهما وحبهما شيئاً، فينشأ الطفل غريباً عن أهله لا تربطه بهم روابط البنوة مثلما لم تربط أبويه رابطة الأبوة من قبل.

ولذلك فإننا ـ ان سرنا على هذا الإتجاه ـ نجدنا أمام خطر محدق يهددنا من أساسنا، في تفكك أسرنا وفي خلق جيل لا يبالي بأهله ومن ثم بمجتمعه وأخيراً بقيمه ووطنه. . .

فهل يكون هذا البحث منبهاً لأمر مهم غفلنا عنه، وطريق سديد حدنا عن نهجه، وذلك باعتناء الأبوين بأطفالهما وتربيتهما لهم تربية خلقية روحية أصيلة مثلما كان سلفنا الصالح يقوم ويسهر على تربية أبنائه، أقول هل يكون هذا البحث كذلك؟. . هذا ما أرجوه.

وقد حددت الفترة الزمنية التي تناولتها بالدرس بنهاية العصر الأموي، ذلك لأن النصوص التي عثرت عليها في العصر العباسي تكاد تكون مطابقة للنصوص التي جاءت في الفترة التي سبقته، ولم أجد اختلافاً كبيراً لا في الأسلوب ولا في المنهج مما

دعاني إلى أن أغض النظر عنه، كي لا تطول الفترة الزمنية في الدراسة بدون مبرر. وجاء البحث في تمهيد وفصلين. تكلمت في التمهيد على تربية الأبناء عند غير العرب من الأمم القديمة، ولاحظت فيه أن الأبناء عند تلك الأمم كانت لهم منزلة رفيعة، وكانوا يولونهم رعاية ما بعدها رعاية ـ الفراعنة، واليونان، والرومان والفرس حتى إذا وصلنا إلى الأمم الأوروبية الحديثة لاحظنا أن الفلاسفة والمربين يقفون في الصف الأول بدعوتهم إلى أن تولي الأسرة ـ الأب والأم ـ مزيداً من الوقت والجهد للأبناء كي يتوفر لديها، وفي النتيجة للمجتمع جيل قوي متماسك.

وأما الفصل الأول فكان عن العرب والأبناء، تحدثت فيه عن حب العربي للولد وتفضيله على البنت، وجئت بنصوص تؤيد هذا، وتكلمت على الدوافع التي اضطرته لهذا. ورأيت دوافع معقولة، ولا تخلو من منطق، وعذر لهم في ذلك الموقف.

ثم انتقلت إلى الحديث عن موقف العرب من البنات. ولاحظت أنه على الرغم مما شاع عنهم في وأدهم للبنات وبغضهم لهن. إلا أنني وجدت حباً جماً لهن. ودفاعاً قوياً عنهن، لا يقلان عن ذلك الموقف المضاد، وقد صادفني نصوص جميلة مؤثرة بينت تعلق العربي بابنته، وحبه لها.

أما الفصل الثاني فكان يمثل صلب البحث، حيث تكلمت فيه على مناهج التربية عند العرب وأساليبها. بينت فيه القيم التي كانوا يؤمنون بها، والتي كانوا يسعون إلى أن يرضعوا أبناءهم إياها. ورأينا أنهم لم يتركوا فرصة إلا وانتهزوها من أجل تقديم التوجيه والإرشاد لأولادهم. وسلكوا أساليب متعددة. فمنها التنشئة، ومنها استدعاء المعلمين، وإرسالهم للكتاب، ومنها الوصية ومنها ـ أخيراً ـ المراسلة. وقد توفرت لدينا المادة الغنية بكل أسلوب سلكوه. ومنهج نهجوه.

تمهيد

تربية الأبناء عند غير العرب

حب الأبناء ظاهرة إنسانية عامة، تتخطى حدود الزمان والمكان، ولا تتوقف عند شعب دون آخر، أو أمة دون أخرى، ذلك لأن الأولاد قطعة من الأكباد كما يقولون. وقد عبَّر الآباء عن مدى حبهم لأبنائهم بشتى الأساليب، ومختلف الطرق. وبلغ حبهم لهم أن فضلوهم على أنفسهم في أحيان كثيرة، وفدوهم بأرواحهم.

ويبدو أن لهذه الظاهرة الإنسانية الفطرية ـ إن جاز لنا هذا القول ـ أسباباً كثيرة يصعب على الإنسان حصرها، أو الوقوف على كنهها، وإن كان يمكنه أن يعدد بعضاً منها. فمنها مثلاً عاطفة الوالدية، ومنها العلاقة الوطيدة والعشرة الطويلة، ومنها أيضاً الأمل في أن يكون لهذا الابن شأن يذكر، يرفع به ذكر والديه ويخلدهما ومنها بعد ذلك، اعداد هذا الابن ليقوم برعاية أبويه في مرحلة الشيخوخة والعجز، التي تلاحق كل انسان مهما بلغت عظمته، أو طال عمره. ويمكننا أن نضيف لهذا أسباباً أخرى، تتمثل في القيم والمثل العليا التي يفكر فيها القسم الواعي الناضج من المجتمع ـ أي مجتمع ـ كأعداد جيل واع مثقف مسلح بأسلحة العلم والمعرفة لخدمة وطنه ومجتمعه الذي يعيش فيه، وليس أولى من أن يبدأ هذا القسم بأبنائه وهم أقرب الناس اليه، ويمكنه أن يحقق ما يريده تجاههم من خلال علاقته بهم، وتنشئته لهم.

ومما لا شك فيه، أن هذه الأسباب مجتمعة، تتعلق بالتربية التي يقوم بها الآباء لأبنائهم، بل إنها تلح على الآباء في أن يعدوا أبناءهم كي يتمتعوا بالمكانة التي يطمحون إليها، ويحققوا الأمل الذي يتطلعون إليه. واختلفت طرق التربية وأساليبها من أمة لأخرى، بل من أب لآخر، كل حاول أن يوجه أبناءه الوجهة التي يراها صائبة ناجعة. كما اختلفت طرق المربين وأساليبهم في دعواتهم وآثارهم التي حثوا فيها على تربية الأبناء تربية سليمة سديدة. وأظهروا دور الأسرة البارز في إعداد الأجيال الصالحة للمجتمع والوطن. إلا أنها برغم اختلافها في الأسلوب والوسيلة، اتفقت في الغاية المثلى التي كانت تدعو من أجلها، وهي أن يظهر في الأسرة الضيقة، والمجتمع المحدود، والأمة الكبيرة، أجيال قوية صلبة واعية، فيها تجديد لشباب الآباء والأجيال، وفيها سند وحمى للحضارات المختلفة، وفيها بذل وعطاء وتضحية في سبيل هذا وذاك.

ولو عدنا للأمم القديمة، التي سبقت العرب بتاريخها وحضارتها ونظرنا في أساليب التربية عندها تجاه الأبناء، لوجدناها تدعم ما سبق أن قررناه وتؤيده.

فالفراعنة كان حبهم جما للولد، وكانوا يستقبلونه بالزغاريد والتهاليل(١) وكانوا يعدونه إعداداً علمياً وثقافياً، لأن الثقافة في نظرهم لا يعلو عليها شيء. نلحظ هذا في وصية أحد حكمائهم لابنه حين قال له «امنح قلبك العلم وأحبه كما تحب أمك، فلا يعلو على الثقافة شيء» ولا يترك هذا الحكيم قوله دون تعليل وتوضيح، بل أنه يغوص إلى أعماق الفكرة، ويحاول أن يدلل على منهجه هذا بسبب منطقي سليم وجيه حين أضاف «اذكر يا بني أن أية مهنة من المهن محكومة بسواها إلا الرجل المثقف فإنه يحكم نفسه بنفسه»(٢) ألا ترى أن هذا يشي بحرية الفكر والاستقلال

(١) أغاني ترقيص الاطفال عند العرب ٥٥. أحمد ابو سعد. دار العلم للملايين ببيروت. الطبعة الاولى ١٩٧٤.

(٢) التربية عبر التاريخ ٤٧. الدكتور عبدالله عبدالدايم. دار العلم للملايين ببيروت ١٩٧٣.

فيه، والتمرد على كبح جماحه وإعداد الابن إلى أن يطلق لفكره وعقله العنان، ما دام لا يحكمه إلا نفسه؟.

وقالوا أن كتاب «الأخلاق» ـ الذي ألفه «فتاح حوتيب» ـ أعظم كتاب في العالم(١). وقد اشتمل هذا الكتاب على وصايا وحثّ على تربية الأبناء، ودعوتهم إلى طاعة والديهم، فمما جاء فيه قول مؤلفه «يسعد الولد المطيع الخاضع (!) ويحيى حياة طويلة حافلة بالخير والبركة، وإني لم أبلغ هذه السن العالية إلا بفضل طاعة الوالدين، وطاعة المليك، وقيامي بواجبي لهم خير قيام»(٢).

وقد كانت طاعة المليك من الأمور الواجبة في القديم ومن القيم التي يربى الأبناء وهم يتشربونها منذ الصغر لأن نظرتهم إليها كان فيها شيء من التقديس عند بعض الأمم، فليس غريباً ـ آن ذاك ـ أن يقرن المؤلف طاعة الوالدين بطاعة المليك، ويظهر أن الخير والبركة وسنه العالية لم تكن إلا بفضل طاعة هؤلاء.

ثم يواصل حوتيب نصائحه لابنه في ما يتعلق بالمجتمع وسلوكه فيه ومعاملته مع الآخرين، وسلاحه في العلم وبلاغة القول، وتجنب الطمع، والتواضع، والتلطف مع الزوجة، والاستشارة بالرأي، انظره يوصيه بقوله «إذا أردت حسن الثناء فتجنب الطمع، فإنه داء لا يشفى، ومحال أن تكون معه صداقة. فوجه عنايتك للعلم وبلاغة القول. وفكر قبل أن تأمر، فما أقبح التصرف من غير تفكير. ثم إذا أمرت فلا تتعاظم في أمرك. ولا تحتد في أقوالك، وتحرّ أن تكون مطاعاً في أمرك، مسدداً في إجابتك، فالحلم يذلل الصعاب، والغضب ينغص العيش. تحرّ بفضلك من صادقك في شدتك، فإنهم أحق بفضلك، ممن لا يعرفونك إلا في رخائك.

(١) تاريخ التربية ١٢. مصطفى امين. مطبعة المعارف بمصر ١٩٥٥.
(٢) المرجع نفسه ١٢.

الرجل الغر ينصح فلا يسمع، ويرى العلم في الجهل، والربح في الخسارة، ويأتي ما يأتي على غير هدى، ويجد في كلام السوء غذاء لنفسه.

تلطف مع زوجك، واقصد أن تجعلها أسعد امرأة في بلدها، وأسلس قيادها يستقيم سيرها، وبشّرها ولا تنفرها، وتحبب إليها بموافاتها بما تطلب.

ولا يغرنك علمك ولا تثق به، وشاور الجاهل والعاقل، فالعلم لا حد له، والوصول إلى نهايته لا يستطيعه أحد، وليس هناك عالم بفن يستطيع أن يقول فيه الكلمة الأخيرة، والكلام القيم أخفى من الحجر الكريم الأخضر، ومع هذا فقد تجده في يد أمة تدير الرحى.»(١)

ومن المواعظ السياسية موعظة «خيتي الثالث» لابنه «خيتي الرابع». وكانت نصائحه ابان ثورة شعبية على نظام الحكم فمن قوله «كن بليغاً تكن قوياً. فاللسان للملك أصدق سيف في القتال. والملك مدرسة لمن حوله من العظماء. وهو اذا اتسع اطلاعه أمن من أن يُخدع بالكذب، لأن الحقيقة تأتيه خالية من الشوائب. اجعل أساس اختيارك للرجال الكفاية، سواء في ذلك ابن العظيم وابن الحقير. من الخير لك أن تكون رحيماً، واجعل وكدك أن يقيم لك الناس تمثال الحب في قلوبهم، فإن فعلت فسيذكرون لك جميلك، ويدعون لك بالصحة وطول العمر. تمسك بالعدل ما حييت وإياك والإساءة إلى الأيامى، والتعرض لمال أحد في ما يرثه من أبيه، والعقوبة في غير جريرة. ليس لأحد أن يظلم، فسوف يحاسب كل انسان على عمله. ولا تغتر بطول العمر، فما حياة الإنسان في هذه الدنيا إلا لمحة، وسيبعث الإنسان حين وصوله إلى الشاطىء الثاني، وكل نفس بما كسبت رهينة، وهناك الأبدية لا شك فيها، وويل لم يحتقرها، وطوبى لمن أتى إليها وليس له

(١) قصة الادب في العالم ١: ٢٨ ـ ٢٩. احمد امين وزكي نجيب محمود. مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٥.

ذنب، إنه يحيى كما تحيى الآلهة. إن الناس عبيد الله، وهو يهديهم سواء السبيل، خلقهم منه وعلى صورته، وخلق لهم ما في الأرض جميعاً، وهو يسمع بكاءهم وشكواهم، وقد جعل لهم رؤساء أوصياء عليهم يأخذون بيد الضعفاء منهم.(١)

وكانت التربية عند اليونان في عصر هوميروس تشبه تربية الإنسان في عصوره الأولى. فلا مدارس، ولا معاهد علمية، ولا معلمين يحترفون صناعة التعليم. وكانت التربية عندهم محض أنواع من التمرين على شؤون الحياة العملية. وكان الأطفال يصلون إلى ما يصلون من مراتب التربي بفضل تدخلهم في الحياة العلمية للأسرة والمجتمع. فكان الولد يتعلم من أبويه في المنزل وسائل المحافظة على الحياة فيتعلم منها التماس الأقوات، وبناء المساكن، وحياكة الملابس، وهذه هي التربية الأولية.

أما التربية الراقية فتأتي من محاكاته من يخالطهم ويعاشرهم من الرجال الذين علمتهم التجارب، ودربتهم ظروف الزمان.

وفي العهد الاسبرطي هيمنت الحكومة على تربية الأطفال من يوم ولادتهم، ولم تترك الآباء أحراراً في تربية من يشاؤون من أولادهم، بل كان من واجب الأب إذا ولد له ولد أن يحمله إلى دار الندوة حيث يجتمع رؤساء العشائر وشيوخ المدينة، فيضعه بين أيديهم ليختبروا قوة جسمه ومبلغ تحمله، فإذا وجدوه قويّ الجسم، كامل الخُلق متناسب الأعضاء، أساغوا له العيش، ثم أمروا بتربيته وعدوه من أبناء الحكومة، وتركوه لأمه تتولى شؤونه إلى السنة السابعة من عمره، وإذا بلغ هذه السن أخذته الحكومة من أبويه وتولت تربيته، فأسلمته إلى مروض غلمانها، وهو

(١) المصدر السابق ١: ٢٩ ـ ٣٠.

رجل من أتباعها، له أعوان وأنصار يساعدونه في عمله ويشرفون معه على حياة الغلمان الاسبرطيين، ويتولون جميعا شؤون تربيتهم.(١).

واهتم فلاسفة اليونان بالتربية، وركزوا على دور الأسرة فيها، لأنها هي التي تغرس البذور الأولى في نفوس النشء، من تقديس للآلهة، وسير الأبطال، على نحو ما دعا افلاطون حين قال «أول واجب علينا أن نختبر ما يؤلف من الحكايات والخرافات اختباراً دقيقاً، ونختار منها الصالح الحسن، وننبذ ما اختير لهن من هذه الخرافات الصالحة فيكثرن من قراءتها على الأطفال، ويقومن بها ما شئن من عقولهم وأخلاقهم»(٢) كل هذا يكون حتى سن السابعة للطفل إذ رأى أفلاطون ضرورة وجود الطفل عند أهله وبين أحضان والديه يرضعانه تلك الأمور، وينشآنه عليها، حتى إذا ما انتقل إلى مدارس التعليم الابتدائي، ومدارس المصارعة التي كانت شائعة عندهم، يكون قد توفرت لديه الأرضية الصلبة التي تهيئه لأن يواجه الحياة الجديدة خارج بيت الأبوين.

وأرسطو أعمق نظرة من أستاذه في هذا الجانب وأكثر حرصاً على الأبناء، وأشد تركيزاً على دور الأسرة في تربيتهم. ذلك لأنه عرف حياة الأسرة، وتمتع بالعطف والحنان الذي غمره من أبويه كما شعر بعاطفة الأبوة وصدق المشاعر التي تتمثل في الآباء تجاه أبنائهم ومن هنا أصاب كبد الحقيقة حين عبر عن هذا بقوله «إن الآباء يحبون أبناءهم حبهم لقطعة منهم»(٣). وانطلاقاً من هذا الفهم فقد كان أرسطو من أكثر الفلاسفة والمفكرين القدامى حرصاً على أن ينعم الأبناء بأكبر قسط من حياتهم

(١) تاريخ التربية ٣٣.
(٢) المصدر السابق، ٧٩.
(٣) التربية عبر التاريخ، ٧٩.

في كنف آبائهم، وكان يدعو إلى أن يتـولى الآبـاء فلـذات أكبـداهم تـربيـة سـديـدة نموذجية.

أما الرومان فكانت الأسرة أهم وسـائطهم وأعظم وسـائلهم في تـربيـة الأبنـاء، ولذلك كان للأسرة المنزلة الرفيعة بين معاهد التعليم الرومـانيـة القديمة. وهم بهذا كانوا على العكس من الاسبرطيين والفلاسفـة الأثينيين يـرفعـون من شـأن الأسرة، وينظرون إليها نظرهم إلى الأشياء المقدسة. وكان نفوذ الأب على بنيه وبناته عنـدهم يمتد إلى بلوغ الولد سن الرشد، وإلى ما بعد ارتباط البنت بعهود الزوجية.

ولم يكن شأن الأم في الأسرة بأقـل من شـأن الأب فيهـا، فكـانت في أول نشـأة أولادها تأخذهم جميعاً بالتربيتين البدنية والخلقيـة من غير تفـرقـة في ذلك بين البنين والبنات. ولكن الولد متى ترعرع فـارق أمـه وصحب أبـاه في غـدواتـه ورواحـه، ولازمه في وحدته، وحين يجتمع بإخوانه وزملائه، فأخذ عنه وعمن يراهم معه من الرجال كثيراً من العادات والأخلاق، واكتسب منهم بالتقليد والمحاكاة مـا اتفق لـه من الأعمال والكفايات(١).

وكان فلوطارخس يرى أنه يجب ألا تكون للدولة سلطة تستغرق كـل شيء حتى تشمل تربية الأبناء. «وهو بهذا يوطد أركان الأسرة بعدما تداعت، وإليها يتوجه في تربية ألأطفال. . . فبعد أن يتكون الفتى تحت رعاية مربية، ورقابة أبوية، في وسعه أن يحضر دروس الفلاسفة، وأصحاب الأخلاق، ويدرس الشعر والشعراء». (٢).

وكانت التربية عند الفرس تبدأ في الأسرة. ولـلأب عنـدهم سلطـة كبيرة، فهـو «السيد المطاع المحترم. ومثله الأعلى أن يدرب أبناءه على الفضيلـة، وأن يسهـر على

(١) المصدر السابق، ٨٦.
(٢) نفسه، ٩٥.

صحتهم، وأن يجعل منهم خداماً نافعين للدولة».

ويخبرنا هيرودوت أن الفرس كانوا يعلمون أبناءهم أموراً ثلاثة، ركوب الخيل، ورمي السهام، وقول الحق. وكانوا يتعهدون فيهم جملة من الصفات الخلقية الحميدة كالطاعة، ومحبة الآباء، والعدل، والشجاعة، والاعتدال، والتعلق بالشرف، والسعي إلى إرضاء هرمزد»(١).

وأُثر عن الفرس وصايا كثيرة لأبنائهم، خاصة وصايا الملوك لولاة عهودهم من أولادهم. فكان الواحد منهم يحاول أن يبث خبرته وتجاربه التي تعلمها في حياته لدى خليفته، كي يستفيد منها ابنه من بعده، فمنهم من أوصى ولده بالعدل، الذي اعتبره حارساً للملك، كما فعل أردشير حينما أوصى ابنه فقال له، يا بني إن الملك والعدل أخوان لا غنى لأحدهما عن صاحبه، فالملك أُسٌّ(٢)، والعدل حارس. فما لم يكن له أُسٌّ فمهدوم، وما لم يكن له حارس فضائع. يا بني اجعل حديثك مع أهل المراتب، وعطيتك لأهل الجهاد، وبشرك لأهل الدين، وبرك لمن عناه ما عناك من ذوي العقول. (٣)

وأبرويز يرسم لابنه منهجاً في الحكم تجاه جنده ومعاملته لهم، كما يحثه على أن يكون حذراً في تصرفاته، بعيداً عن اتخاذ القرارات وقت الغضب، دقيقاً في ألفاظه، لأن نفاذ أمره مع ظهور كلامه ـ على حد تعبيره ـ انظره يوصي ابنه شيرويه فيقول «لا توسعن على جندك سعة يستغنون بها عنك فيطغوا ولا تضيق عليهم ضيقاً يضجون به منك، ولكن أعطهم عطاء قصدا، وامنعهم منعاً جميلاً، وابسط لهم في

(١) المصدر السابق، ٤٣
(٢) الأس: أصل البناء.
(٣) العقد الفريد، ١ : ٢٧. ابن عبدربه. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة، ١٩٤٠ .

الرجاء، ولا تبسط لهم في العطاء. وكتب إليه أيضاً من الحبس، اعلم أن كلمة منك تسفك دماً وأخرى تحقن دماً، وان سخط سيفك مسلول على من سخطت عليه، وأن رضاك بركة مستفادة على من رضيت عنه وأن نفاذ أمرك مع ظهور كلامك، فاحترس في غضبك من قولك أن يخطىء ومن لونك أن يتغير، ومن جسدك أن يخف، فإن الملوك تعاقب حزماً وتعفو حلماً. واعلم أنك تجل عن الغضب، وأن ملكك يصغر عن رضاك، فقدر لسخطك من العقاب كما تقدر لرضاك من الثواب. وكتب إليه من الحبس أيضاً اختر لولايتك أمرأ كان في وضيعة فرفعته، وذا شرف كان مهملاً فاصطنعته، ولا تجعله أمرأ أصبته بعقوبة فاتضع لها، ولا أمرأ أطاعك بعد ما أذللته، ولا أحدا مما يقع في خلدك أن إزالة سلطانك أحب إليه من ثبوته، وإياك أن تستعمله ضرعاً غمراً، كثيراً اعجابه بنفسه، قليلا تجربته في غيره، ولا كبيراً مدبراً قد أخذ الدهر من عقله كما أخذت السن من جسمه.»(١)

ويكتب سابور اردشير إلى ولده، يوصيه بوزيره لأنه حافظ سره ومصدر معلوماته، فلا يجب أن يشك في قول يقوله، أو خبر ينقله إليه، وألا يلتفت إلى أقوال الوشاة ضده. كما يحثه على ألا يؤنبه أو يصده إن جاء بها لا يوافقه من رأي، لأن ذلك يفت في عضده، ويقبضه عن أثباته كل رأي يلوح صوابه له. ويدعوه إلى ألا يقرب سواه منه قرب وزيره له لأنه لا يؤتمن جانب أولئك. ها هو يقول «ليكن وزيرك مقبول القول عندك، قوي المنزلة لديك، يمنعه مكانه منك، وما يثق به من لطافة منزلته، من الخشوع لأحد، أو الضراعة أو المداهنة لأحد، في شيء مما تحت يده، لتبعثه الثقة بك على محض النصيحة لك، والمنابذة لمن أراد غشك وانتقاصك حقك. وإن من أورد عليك رأياً يخالفك ولا يوافق الصواب عندك، فلا تجبهه جبه الظنين، ولا ترده عليه بالتجهم، فيفت ذلك في عضده ويقبضه عن إبثاثك كل رأي

(١) المصدر السابق ١: ٣٠

يلوح صوابه، بل اقبل ما ارتضيت من قوله، وعرفه ما تخوفت من ضرر الرأي الذي انصرف عنه، لينتفع بأدبك في ما يستقبل الرأي فيه. واحذر كل الحذر أن تنزل هذه المنزلة سواه ممن يطيف بك من خدمك وخاصتك، وأن تسهل لأحد منهم سبيل الانبساط بالنطق عندك والافاضة في أمور ولايتك ورعيتك فإنه لا يوثق بصحة رأيهم، ولا يؤمل الانتشار في ما أفضي من السر اليهم.»(١)

هكذا كان حال ملوك الفرس ورجالاتهم في وصاياهم وتربيتهم لأبنائهم، يرسمون لهم مناهج الحياة وسبل المعاملة مع رعاياهم، والناس الآخرين. وهي مناهج يمكن أن يأخذ بها كل وال، بل كل فرد في معظم العصور، فما فيها من عظة، وحسن معاملة، وقدرة على التصرف في الأمور تجاه الفرد نفسه، وبينه وبين الآخرين ممن يتعامل معهم. إلا أننا في الوقت نفسه لا نغفل ما في بعض هذه الوصايا من اضطهاد للشعوب وإنكار لحقوقها في التعبير عن رأيها ومتطلباتها.

وإذا ما انتقلنا من العصور القديمة من الحضارات التي اندثرت وخلفت تراثاً مهماً للأجيال التالية، كان وما يزال نبراساً تهتدي بهديه الأمم على اختلاف بيئاتها وعصورها، أقول إذا ما انتقلنا من تلك الحقب البعيدة إلى عصور النهضة بمختلف جوانبها العلمية والاجتماعية والاقتصادية.... فاننا نلحظ أن التربية بصفة عامة أخذت قسطاً كبيراً من جهود الباحثين والمفكرين، كما حظي الأبناء باهتمامات بعض أعلام المربين الذين ركزوا على الآباء والأمهات في دورهم في تنشئة ابنائهم.

فهذا رابليه الفرنسي (١٤٩٤ ـ ١٥٥٣) يهتم بتربية الأب لابنه، ويرى أن هذه التربية يجب أن تكون شاملة، قائمة على المزج بين القراءة والملاحظة المباشرة،

(١) نهاية الأرب في فنون الأدب، ٦: ٣٤. شهاب الدين النويري، دار الكتب المصرية، ١٩٢٥.

ويمكن أن تكون رسالته التي ذكرها عن لسان (غرغونتيا) لولده (بـونطـاغـرويـال) خير ممثل لمنهجه في التربية. فهو يبدأها بقوله «انبهك يـا بني إلى أن تصرف شبـابك في المطالعة والتمرس على الفضائل» ومن ناحية اللغـات يـدعـو ولـده إلى أن يتقنهـا «أولا اليونانية.. ثانيا اللاتينية، ثم العبرية بـواسطـة الكتـابـات المقـدسـة وكـذلك الكلدانية والعربية».

ويبين رابليه كيف أن الأب اهتم بولده منذ الصغر. انظره يخـاطبـه بقـولـه «لقـد أذقنك في صغرك، وأنت في سن الخامسة والسادسة طعم الفنون الشريفة، هندسة، وحساب، وموسيقى، فعليك أن تتابعها... وفيما يتعلق بمعرفة عوامـل الطبيعـة، أريدك مندفعاً وراءها بشغف، حتى لا يبقى نهر ولا نبع ولا بحر لم تعرف أسماكه، وحتى تحيط علماً بجميع أطيار الفضاء، وجميع أشجار وشجيرات الغـابـات... ثم راجع باعتناء كتب الطب اليونانية والعربية واللاتينيـة... خصص بعض سـاعـات نهارك لتصفح الكتب المقدسة.. وخلاصة القول يجب أن أراك بحراً من العلوم(١).

ووما لاشك فيه أن في دعوة رابليه غلوا واسرافاً فيما طلبه الأب من ولـده، لأن الاحاطة باللغات جميعاً، ومعرفة العلوم كافة، وقـراءتهـا بلغـاتهـا، أمـر من العسير تحقيقه، إن لم يكن مستحيلاً، إلا أنها على ما فيها من غلـو واسراف، تشي بعـاطفـة الأبوة، ورغبة الأب الأكيدة، في كل زمـان ومكـان في أن يكـون ولـده ملـما بشتى صنوف المعرفة، له سلوك حسن، وسيرة عطرة، وأن يكون حذراً من «سيئات هذا العالم.. لأن هذه الدنيا زائلة، وإنما الله وحده خالد» على حد تعبير رابليه.

وبعد رابليه بقرنين من الزمان تقريباً ظهر في فرنسا جان جـاك روسـو (١٧١٢ -

(١) التربية من أفواه رجالها ٦٠. أنطوان الخوري. ١٩٦٨، بدون مكان طبع.

١٧٧٨) وثار على عـادة شـائعـة في عصره تتعلق بـالتربيـة، و «هي تسليم الأطفـال لمرضعات مرتزقات. ويهيب بالأمهات للقيام بواجبات الأمومة، مبيناً أبلغ بيان أنـه إذا لم تكن ثمة أم لم يكن ثمة طفل، أو إذا لم يكن ثمة أم، لم يكن ثمة أسرة.. ومما يقولـه أيضـا «إذا أردتم أن تعيـدوا كـل انسـان لـواجبـاتـه الأولى، عليكم بـالبـدء بالأمهات، وستعجبون لما تحدثونه من تغيير». (١)

وقد كان كتـاب «إميـل أو التربيـة» لـرسـو متضمنـا آراءه في التربيـة، ودعـوتـه للأمهات برعاية أبنائهن، وها هو يفتتح كتابه بقوله «فاليك أوجه حديثي أيتهـا الأم الحنون البصيرة، التي تعرف أن تبتعد عن الشارع، وأن تصون الشجيرة الناشئة من صدم الآراء البشرية.

وتعهدي الغرس الحديث، ورويه قبل أن يموت، فستكون ثماره مدار سعـادتك ذات يوم. وأقيمي مبكرة نطاقـاً حـول روح ابنك، أجـل يمكن آخـر أن يـرسم الدائرة، ولكنه يجب عليك وحدك أن تضعي الحاجز.» (٢)

ويصيب روسو كبد الحقيقة عندما يصل في حديثـه عن تـربيـة الأبنـاء في الأسرة ومقارنته بين ذلك وبين تربيتهم خارج البيت بـأجـر فيقـول «ولكن مـا يصنـع هـذا الرجل الغني، هذا الرب للأسرة الشغال، المضطر على زعمه إلى إهمال أولاده. هو يؤدي أجراً إلى رجل آخر ليقوم مقامه في هذه العنايـة الملقـاة على عـاتقـه. فيـا أيهـا الـروح المطـماع أو تعتقـد أنك تنعم على ابنك بـأب آخـر بـالمـال؟ لا تخـادع نفسك

(١) جان جاك روسو وآراؤه في التربيـة ٣٨١. محمد عطية الابراشي، دار احياء الكتب العربية بالقاهـرة، الطبعة الثانية، ١٩٥١.

(٢) اميـل أو التربيـة ٢٧. جان جاك روسو. ترجمـة عـادل زعيتر. طبـع لجنـة التـأليف والترجمـة والنشر بالقاهرة، ١٩٤٠.

مطلقاً، فليس معلما ذاك الذي تعطيه اياه، بل أجير لا يلبث جن يجعل منه خادماً مثله.»(١)

وما هي النتيجة من وراء ذلك؟ تفكك الأسرة الذي عبر عنه بقوله «ولكن الأشغال أو الوظائف والواجبات.. آه الواجبات، واجب الأب آخر الواجبات لا ريب. لا نعجب من استخفاف زوجته بارضاع هذا الذي هو ثمرة قرانهما، لا توجد أدعى إلى الفتون من صورة الأسرة، ولكن خطا ناقصا يشوه جميع الخطوط الأخرى. وإذا كانت الأم من قلة الصحة، ما لا تكون معه مرضعاً فإن الأب من كثرة الأعمال ما لا يكون معه معلما، ويجد الأولاد البعداء الموزعون في المدارس الداخلية والأديار والكليات، حب المنزل الأبوي في مكان آخر، أو بالأحرى أن يقال، انهم يرجعون إلى هذا المنزل حاملين عادة عدم الارتباط في شيء، ولا يكاد الأخوة والأخوات يتعاشرون، ومتى اجتمع هؤلاء كلهم في احتفال أمكن أن يكونوا مهذبين نحو بعضهم بعضا، متعاملين تعامل الغرباء، ومتى عادوا لا يكون بين الأقرباء الفة، ومتى عاد مجتمع الأسرة لا ينعم بلطف الحياة نشد سيء الأخلاق ليقوم مقام ذلك، وأين الرجل الذي يكون من البلاهة ما لا يرى معه سلسلة جميع هذا؟»(٢).

ولم يقف الأمر عند روسو، بل «نادى بهذه الإرشادات كثير من المربين مثل مولي وبوغون. نادوا بواجب الأمهات نحو تربية الأبناء»(٣).

---

(١) المصدر السابق، ٥١.
(٢) نفسه، ٥٠.
(٣) جان جاك روسو وآراؤه في التربية والتعليم، ٦٣.

كما أن ارزمس الألماني (١٤٦٧) يرى أن الأم هي المربية الطبيعية للطفل في سنواته الأولى، وكل امرأة لا تشغل نفسها بتربية ابنائها، ولا تعنى بتنشئتهم، فهي نصف امرأة.(١)

وكان جون ايموس كومينوس الانجليزي (١٥٩٢ ـ ١٦٧١) من أوائل الذين نصحوا باقامة اربعة أنواع من المدارس تلتئم جميعها لتربية النشء وتعليمه «النوع الأول مدارس الأمهات، ويجب أن لا يخلو منها منزل، ويربى فيها الأطفال ذكوراً وإناثاً حتى يبلغوا السادسة من أعمارهم. النوع الثاني مدارس اللغات الوطنية، ويجب أن توجد واحدة منها في كل قرية أو مجتمع صغير، ويدخلها الأحداث ذكوراً وإناثاً في السادسة من أعمارهم ويبقون بها إلى الثانية عشرة، ويعلمون فيها لغة البلاد تعليماً صحيحاً. النوع الثالث المدارس اللاتينية ويجب أن توجد واحدة منها في كل مدينة، ويدخلها التلميذ في الثانية عشرة من عمره، ويبقى بها إلى الثامنة عشرة، ويتعلم بها اللغة اللاتينية والآداب القديمة. النوع الرابع الجامعات ويبقى بها ست سنوات يرحل في أثنائها رحلة طويلة إلى بلد أجنبي يستفيد فيه علماً وتهذيباً»(٢)

ويكاد يكون هذا النظام الذي نصح به كوميوس في القرن السابع عشر هو الذي يأخذ به كثير من الدول إلى يومنا هذا.

وفي كتاب الوالد والولد، لادمون جوس، نلحظ كيف أن الأب والأم سهرا على تربية المؤلف تربية قويمة سديدة، منذ نعومة أظفاره، وما كان من صدى لهذه التربية على حياة الطفل.

---

(١) تاريخ التربية، ٢١٩.
(٢) المصدر السابق، ٢٦٤.

وقد نقل لنا جوس قصيدة جميلة من نظم أمه، كانت تغنيها له وهو صغير، وهي قصيدة تعليمية، تعبر فيها عن حبها لولدها، وتدعوه فيها إلى تعلم القراءة، انظرها تقول:

ما أبهى ضياءك أيها القمر الجميل
سأمضي لأقرىء أمي تحية المساء
ثم أرقد بعدها في فراشي
وأرقبك وأنت تسبح من فوق رأسي
آه، لقد حجبتك عن ناظري سحابة
ولكني أرى نورك منبعثاً من خلالها
إنها تحاول أن تحجبك عني ولكن هيهات
فها أنت تظهر سريعا من جديد
إني لأعلم أن الله هو الذي يجعلك
تضيء فراشي هذا الصغير بنورك
ولكني سأعلم من أمرك كل شيء
حين أستطيع القراءة وأشب عن الطوق(١)

ومثلما كانت الأم الإنجليزية تغني لطفلها وتدعوه لتعلم القراءة، كانت الأم الروسية تغني لولدها وتعلمه الحذر والحيطة في حياته، وأن لا يسيء لأحد، فهي تغني له قصة أحد الدببة فتقول:

مرة في صقيع الشتاء
سار الدب إلى بيته

(١) الوالد والولد، ١٥. ادموند جوس. ترجمة فؤاد اندراوس، طبع وزارة الثقافة والارشاد القومي بالاقهرة، د. ت.

في رداء من الفرو الدافىء
سار هو . . سار إلى بيته
في الطريق الريفي
عابراً الجسر
وطىء ذيل الثعلب
زعقت الثعلبة صارخة
واهتزت الغابة المعتمة
وذعر الدب بسرعة البرق
تسلق شجرة السرو الكبيرة
وعلى شجرة السرو كان الهدهد مسروراً
يصلح بيت السنجاب
يجب أن تفتح عينيك وتنظر أمامك
وعندها قرر الدب
أنه يجب أن ينام في الشتاء
وأن لا يسير في الطرقات
وأن لا يطأ ذيول الثعالب.(١)

ومن الكتب المهمة في التربية، التي تدعو الآباء والأمهات إلى الاهتمام بأبنائهم إلى أبعد حد كتاب «التربية الاستقلالية أو أميل القرن التاسع عشر» لألفونس اسكيروس. الذي سار في منهجه على أسلوب روسو، وان كان قد ركز أكثر من روسو على دور الأبوين.

---

(١) اغاني ترقيص الاطفال، ٣٤.

بدأ المؤلف كتابه بتعريف التربية، حتى يكون على بينة من أمره في منهجه الذي أستنه لنفسه وللأخرين في التربية، فقال «إنها ـ على ما يؤخذ من معنى لفظ التربية اللغوي ـ عبارة عن تكميل العقل الناشىء، وتهذيب نفسه، بإظهار جميع ما استكن فيه من ضروب الاستعداد، وأنواع القوى وانمائها، لأن ذلك اللفظ مأخوذ من ربى أي زاد ونما. . . وأراد جمهور علماء الأخلاق بالتربية، الوصول إلى ما تصوروه في الإنسان من «معنى الكمال» فغرضهم منها ايجاد الإنسان الكامل، وهو غرض يظهر لأول نظرة انه موافق للعقل تمام الموافقة، لكنه مثار لاعتراضات كثيرة. فلقائل أن يقول، إن الإنسان الكامل ليس له إلا صورة خيالية لا تحقق لها في الوجود الخاجي قطعاً فنحن نحلم به كل على حسب تصوره. فايانا والتشبه بهذه الصورة الوهمية التي يريد الخيال أن يتغلب بها على الواقع المحقق، فإنه لا شيء أيسر علينا من تخيل ذات عاقلة، ونعتها بالآلاف من نعوت الكمال الخيالية، حتى تكون نموذجاً لجميع الفضائل، ولكن من لنا بانزال هذه الذات من السماء وابرازها إلى عالم الظهور.»(١)

والكتاب عبارة عن رسائل بين المؤلف وزوجته، يرسم فيها المنهج القويم الذي سارا عليه في تربية ولدهما إلى أن شب وأصبح رجلا يعتمد على نفسه، وقادرا على أن يعيش مستقلا ويبني حياته من جديد.

والحديث يطول بنا لو أردنا أن نستقصي جميع الآراء في تربية النشء، ويخرج بنا عن الغرض من هذه التوطئة، التي وددنا أن نوضح من خلالها آراء ومذاهب غير العرب قديما وحديثا في تربيتهم لأبنائهم.

وقد لمسنا مما تقدم أن الأبناء والاهتمام بهم من قبل آبائهم وأمهاتهم، والحرص

---

(١) التربية الاستقلالية او اميل القرن التاسع عشر. الفونس اسكيروس. ترجمة عبدالعزيز محمد. مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٣١.

على تربيتهم على أجمل الصور منذ أيامهم الأولى إلى أن يصبحوا قادرين على الاعتماد على الذات وأن واجب الأبوين في هـذا أسـاسي وكبير لا يمكن التغـاضي عنـه، أو القفز عليه. كان ذلك عند جميع الأمم، في مختلف العصور.

إلا أننا لا نريـد أن نترك القلم في هـذا المقـام دون الاشـارة إلى ظـاهـرة مهمـة، وصف بها العرب أكثر من سواهم، أو قل تصورها البعض أنها تقتصر على العرب، تلك الظاهرة هي الحديث عن البنات ومدى حبهن والعنـايـة بتربيتهن. إن الذي مر بنا من أحاديث هو كلام منصب على الأولاد عند الأمم كافة، ولم يقـع بين أيـدينـا كتاب تحدث عن الأبناء عند هذه الأمم، تعـرض للبنـات. فهـل كـانت الأمم غير العربية تقف الموقف ذاته من المرأة، باعتبارها أقل أهمية من الرجل؟ وبالتالي فيجب ألا تحظى بالعناية التي يتمتع بها الرجل، وعليه فهم يفرحون للأولاد ويعنـون بهم، وحولهم تدور أحاديثهم، ويصيبهم الغم والهم إذا بشروا بـالأنثى، هـل كـانت على هذا الحال؟ هذا ما يمكن أن نستنتجه مما مر بنا من نصوص، وممـا وقعنـا عليـه من مصادر، ذلك لأنها خلت خلوا تاماً من الحديث عن البنت وتربيتها.

وقد دعم استنتاجا هذا ما وجدناه عند العقاد في حـديثـه عن المـرأة غير العـربيـة ومكانتها في مجتمعها فقال «ربما كانت الحضارة المصرية القديمة هي الحضارة الوحيدة التي خولت المرأة مركزاً شرعياً تعترف به الدولة والأمة، وتنال به حقوقا في الأسرة والمجتمع تشبه حقوق الرجل فيها.. فشريعة «أنـو» في الهنـد لم تكن تعـرف للمـرأة حقا مستقلا عن حق أبيها أو زوجها أو ولدهـا في حـالـة وفـاة الأب والـزوج... وشريعة «حمورابي» التي اشتهرت بها بابل كانت تسحبهـا «المـرأة» في عـداد المـاشيـة المملوكة... وكانت المرأة عند اليونان الأقدمين مسلوبة الحرية والمكـانـة في كـل مـا يـرجـع إلى الحقـوق الشرعيـة، وكـانت تحـل في المنـازل الكبيرة محلاً منفصـلاً عن الطريق، قليل النوافـذ محروس الأبواب..... وقد كـان أرسطـو يعيب على أهـل

اسبرطة انهم يتساهلون مع نساء عشيرتهم، ويمنحوهن من حقوق الوراثة والبائنة، وحقوق الحرية والظهور ما يفوق أقدارهن، ويعزو سقوط اسبرطة واضمحلالها إلى هذه الحرية وهذا الإسراف في الحقوق... ومذهب الرومان الأقدمين كمذهب الهنود الأقدمين في الحكم على المرأة بالقصور حيث كانت لها علاقة بالآباء أو الأبناء، وشعارهم الذي تداولوه ابان حضارتهم «ان قيد المرأة لا ينزع ونيرها لا يخلع.»(١)

ولم يفت العقاد ان ينبه إلى حالات في التاريخ الانساني مرت، وقد نالت المرأة حظا من الاهتمام بها في عصور الترف والبذخ، التي تنتهي اليها الحضارات الكبرى، وعلل ذلك بأنه لم يكن لقيمة المرأة في نظر تلك الحضارات وانها نالت هذا الاهتمام «لأنها ـ في عصور الترف والبذخ ـ مطلب من مطالب المتعة والوجاهة الاجتماعية»(٢).

أما المصريون القدماء، فعلى الرغم من تقديرهم للمرأة، إلا انها كانت لا ترقى إلى مكانة الرجل، وقد مر بنا في مفتتح حديثنا انهم كانوا يستقبلون الولد عند ولادته بالزغاريد والافراح.

وبهذا نخلص الى أن البنت لم تكن تتمتع بالتربية التي يتمتع بها الولد في المجتمعات القديمة، الأمر الذي جعل الحديث عن التربية والمحبة محصوراً في الأولاد دون البنات.

---

(١) المرأة في القرآن، ٧١. عباس محمود العقاد. دار الكتاب العربي ببيروت، الطبعة الثانية، ١٩٦٧.
(٢) المصدر السابق، ٧٢.

الفصل الأول

العرب والأبناء

- ١ -

حبهم للأولاد

عاش العرب في جاهليتهم في بيئة قاحلة، وظروف صعبة، يغلب عليها طابع الكر والفر، والغزو والسلب والنهب، وقلة الماء والجفاف والجدب، الأمر الذي كان يحتم عليهم ألا يقر لهم قرار، فسرعان ما يقيمون في منطقة حتى تفرض عليهم الطبيعة أو القتال والحرب مبارحتها إلى مكان آخر أكثر خصباً إذا كان السبب هو القحط، أو الأمان إذا كان الحرب.

وكانت هذه الظروف تطبع حياتهم بطابع مميز، ينسجم معها، ويجعلهم قادرين على التكيف مع طبيعتها. منها حاجتهم الملحة إلى الفرسان، ورجال القتال القادرين على الدفاع عن حمى القبيلة وأفرادها. ومنها - أيضاً - رغبتهم في أن يكون لديهم لسان حال يعبر عن أمجادهم ومآثرهم، ويرد على المثالب والمطاعن التي توجه إليهم نتيجة الغزوات والحروب... لذلك رأيناهم لا يهنئون إلا بغلام يولد، أو فرس تنتج، أو شاعر ينبغ(١).

(١) بلوغ الأرب، محمود شكري الألوسي، دار الكتاب العربي بمصر، ط ٣، ٣ ٢٨

ومما لا شك فيه أن لهذا ما يسوغه عندهم لما لهؤلاء الثلاثة من أهمية كبيرة، يعتمدون على كل منها أشد اعتماد، بل تكاد تكون متكاملة في أهميتها عند قوم طبيعة حياتهم كر وفر، وفخر واعتزاز، فالفرس للغلام الفارس، والشاعر للحديث عنه وعن فروسيته وبطولته. وما أكثر ما جمع الغلمان العرب بين الفروسية والشعر، فكانوا رمز فخر واعتزاز بين قبائلهم، وكثيراً ما باهت بهم قبائلهم القبائل الأخرى، واقترن اسم الشاعر الفارس باسم قبيلته، كعنترة العبسي، والمهلهل التغلبي، وسلامة بن جندل التميمي، وعامر بن الطفيل فارس بني عامر.

وكان العربي يحب ولده حباً جماً، لأنه يخلد ذكره، ويدفع عنه الضيم، وقد خلف لنا التراث الجاهلي مواقف عديدة عبرت عن حب العرب لأولادهم، وصورت مدى تعلقهم بهم، وقد تجلت عاطفة الأبوة بأسمى معانيها في أحاديثهم، وبينت الضعف الحقيقي للأب أمام ولده، وقد أثر عن العربي القديم الشدة والغلظة، وقوة التحمل للمصاعب والأهوال وشدة بأسه وعزيمته في مواجهة المصائب والنكبات، حتى إذا وصل الأمر إلى فلذة كبده ظهر ضعفه واستسلامه الذي لا محيص له عنه، ولا مفر له منه، وإذا به يتألم ويتأوه، وهو الذي لا يعرف التألم والتأوه ـ الظاهران على الأقل ـ طريقاً إليه. ولم يكن هذا إلا بسبب الابن والتعلق به

(ذكروا أن رجلاً ضرب وطولب بمال فلم يسمح به، فأخذ ابنه وضرب، فجزع. فقيل له في ذلك، فقال ضرب جلدي فصبرت، وضرب كبدي فلم أصبر.)(١) نعم، بهذا كانوا يشعرون ـ وما يزالون ـ وأخشى أن أكون مبالغاً أن قلت، بهذا يشعر الأب، أي أب، في كل عصر وأية أمة. وكثيراً ما كان الأبناء هم

(١) محاضرات الأدباء، الراغب الأصبهاني، دارصادر ببيروت ١٩٦١، ١: ١٥٥.

عنصر الضغط على الآباء لابتزاز مال منهم أو أخذ اعتراف، أو تسجيل موقف عليهم، وما ذلك إلا لمعرفة نقطة الضعف عند الآباء، بعد أن يتم العجز عن أخذ ما يراد منهم مباشرة.

ويتفاوت أبناء الأب، من حيث الطاعة، والسيرة، والسلوك، والعمر، والفروسية، والذكاء، والفطنة... ولكن إذا سئل أبوهم عن أيهم أحب إليه، لا يجد ما يقول إلا (صغيرهم حتى يكبر، ومريضهم حتى يبرأ، وغائبهم حتى يقدم)(١) بينما يدرك الأب أن أبناءه يتفاوتون ومع ذلك فهو لا يستطيع أن يميز بينهم، ذلك لأنه عاجز عن القول بأن أحدهم أحب إليه من الآخر، خاصة وبينهم الصغير، أو المريض، أو الغائب، فهل تراه يقدر على التمييز بينهم، والإفصاح عن إيثاره لأحدهم دون سواه فيما لو انعدمت الأسباب الثلاثة التي أوردها؟ هذا ما أشك فيه.

وتطالعنا امرأة هذه المرة، هي فاطمة بنت الخشرب، وقد سئلت عن بنيها وكانوا سبعة، وكأنها ـ في جوابها ـ تجعل الشك، الذي سبق أن أوردناه، يقيناً، فهي في حيرة من أمرها، لا تقر على قرار، انظرها كيف تجيب (الربيع، لا بل أنس، لا بل قيس، وعيشي ما أدري، أما والله ما حملت واحداً منهم تضعاً، ولا ولدته يتناً، ولا أرضعته غيلاً، ولا منعته قيلاً، ولا أبته على ماقة)(٢).

ويصل حب فاطمة ـ هذه ـ لأولادها، بأن تضحي بحياتها في سبيلهم، خشية أن يلحق بنيها عار، وذلك عندما أسرها حمل بن بدر الفزاري، فرمت بنفسها على رأسها من البعير الذي كانت تركبه فماتت. روى صاحب الأغاني أنه (أغار حمل بن

(١) عيون الاخبار، ابن قتيبة، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ١٩٦٣، ٣: ٩٢.
٢) الاغاني (طبعة دار الثقافة) ١٧ : ١١٧. والتضع: الذل. واليتن: ان تخرج رجلا المولود قبل رأسه ويديه في الولادة. والغيل: أرضعته وهي حامل. والقيل: النوم في القائلة وعلى ماقة: على بكاء.

بدر وأخوته، وفاطمة راكبة على جمل لها، فقادها بجملها، فقالت له أي رجل ضل حلمك، والله لئن أخذتني فصارت هذه الأكمة بي وبك التي أمامنا وراءنا، لا يكون بينك وبين بني زياد صلح أبداً، وحسبك من شر سماعه. قال إني أذهب بك حتى ترعي على إبلي. فلما أيقنت أنه ذاهب بها، رمت بنفسها على رأسها من البعير فماتت خوفاً من أن يلحق بنيها عار فيها)(١). فهذان مثلان تجسدهما بنت الخشرب وتصور فيهما حب المرأة العربية لأولادها ذلك الحب الذي يقتل أهله في بعض الأحيان كما حدث مع صاحبتنا فاطمة.

وروعة حب العربي لولده، حينما يقف أمام خيارين، بين حبه لزوجه وإيثاره لها وبين حبه لولده من زوجة أخرى وتفضيله عليها. وأية زوجة أخرى تلك إنه ابن أمة سوداء. إن موقفاً كهذا يجعل البدوي ـ يكون خجلاً من ابنه الذي أنجبته أمة، بل يكون خجلاً من نفسه من تلك الغلطة التي ارتكبها، وقبل الزواج من أمة سوداء. ذلك الزواج الذي غالباً ما كان يتم نتيجة نزوة عابرة، من الرجل تجاه أمته، وإذا بها تحمل وتنجب ابناً لا مفر له عندئذ من الالتزام به والمحافظة عليه. أما أمه فسرعان ما تنقطع العلاقة بينه وبينها. لقد نقل إلينا صاحب الأمالي خبراً كهذا، تجسد فيه سمو المحبة الأبوية للإبن، التي تنم على حقيقتها، وتترجم أحاسيس ومشاعر قائلها. قال. «كانت لعمرو بن شأس امرأة من رهطه، يقال لها أم حسان بنت الحارث، وكان له ابن يقال له عرار، من أمة له سوداء، فكانت تعيره به، وتؤذي عراراً ويؤذيها، وتشتمه ويشتمها، فلما أعيت عمراً بالأذى والمكروه في ابنه، قال الكلمة التي فيها هذه الأبيات:

---

(١) المصدر السابق. ١٧: ١١٩.

ألَـمْ يـــــأتها أني صَحَوْتُ وأنـــــي
تحملت حتى ما أعارمُ مَن عـرمْ(١)
وأطرقت أطراق الشجاع ولـو رأى
مساغاً لنابيه الشجاع لقـد أزمْ(٢)
فإن عـراراً ان يكن غير واضـح
فأني أحب الجون ذا المنكب العمم(٣)
وإن عـراراً أن يكن ذا شكيمـة
تقاسينها منـه فـما أملك الشيم
أردت عراراً بالهوان، ومن يـرد
عراراً لعمري بالهـوان فقـد ظلم
فإن كنت مني، أو تريـدين صحبتي
فكوني له كـالسمن رب على الأدمْ
وإلا فسيري مثل ما سـار راكب
يتمم خمسـاً ليس في سيره يتم(٤)(٥)

وكـان عـدم إنجـاب الأولاد، يترك ألماً وحسرة في نفـوس الـرجـال، ويجعلهم يعيشون في حرمان وضعف واستكانة لأن مجتمعهم مجتمع قـوة وقهـر. وبيئتهم بيئـة عنف وقسوة، ولا يقهر هذا إلا العصبة من الرجال الأقوياء القادرين على الوقـوف في وجه كل خطر، ورد كل معتد، وحمايـة الحمى والعـرض والمـال. من هنـا كـان

---

(١) عرم: خرج عن الحد، أصابه بأذى.
(٢) أزم: عض، اشتد
(٣) العمم: الطويل.
(٤) اليتم: البطء.
(٥) الأمالي للقالي (طبعة المكتب التجاري ببيروت). : ١٨٨، ١٨٩.

العربي يعبر عن حاله، إذا كان محروماً من نعمة الأبناء، بأساليب مختلفة، إلا أنها تلتقي في النهاية لتكشف عما يعيشون فيه من ذل، وعن تصويرهم للضعف الذي ألم بهم، ولا حيلة لهم في الخروج منه، أو الخلاص من أمره. وقد صور أبو براء عامر ابن مالك موقفاً من هذه المواقف المحزنة المؤلمة، حينما ضعَّفه بنو أخيه وخرَّفوه، ولم يكن له ولد يحميه، فأنشأ يقولُ(١):

دَفَعْتُكُمُ عني وما دفع راحة
بشيء إذا لم تستعنْ بالأنامل
يُضَعِّفُني حلمي وكثرة جهلكُمْ
عليَّ وأنيِّ لا أصولُ بجاهل

أرأيت تشبيهه لنفسه بالراح التي قطعت أناملها، فذهبت قوتها، وأصبح الدفع بها لا يجدي.

وتشبيه الأبناء بالعضد القوية كثير عند الشعراء العرب. لأن الأبناء كانوا يمثلون العضد بحق لدى آبائهم في حمايتهم لهم ولقبيلتهم وعرضهم، وفي حفاظهم على منزلهم ومركزهم بين القبائل العربية الأخرى، ولذلك رأيناهم يعربون عن هذا بوضوح، فهذا أحدهم يقول: (٢)

مَنْ كانَ ذا عضد يدركْ ظُلامتَهُ
إنَّ الذليلَ الذي ليْسَتْ له عَضُدُ
تَنْبو يداهُ إذا ما قَلَّ ناصرُهُ
ويأنفُ الضيْمُ إنْ أثرى له عددُ

(١) العقد الفريد ٢: ٤٤٠.
(٢) المصدر السابق ٢: ٤٤١.

فذله، إذن، في قلة أبنائه، وإدراكه لحاجته لهم.

وهناك من يشبه الأعداء بالذئاب، المفترسة المنقضة على قطعان الغنم لتأخذ منها ما تريد، وأنى تشاء. ويشبه أبناءه بالكلاب الحامية لهذه القطعان. فإذا ما وجدت تلك الذئاب المجال خالياً من كل حارس، وقطعان الأغنام في الخلاء، سرعان ما تهجم عليها وتفترس منها ما يعجبها، ولكنها أن رأت الحارس القوي الأمين، فإنها (تتقي سورة المستنفر الحامي). انظره يعبر عن هذا فينشد:(١)

تعدو الذئاب على من لا كلاب لهُ

وتتقي سورة المستنفر الحامي

وبظهور الإسلام، ونزول القرآن الكريم على النبي محمد ﷺ، تم القضاء على الجاهلية الأولى، بكل ما فيها من تعصب وتزمت، وأساليب عند العرب وغيرهم فيها بعد عن الحياة الإنسانية الكريمة. وأصبح الناس في الإسلام سواسية، ولا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى. ولا ظلم ولا سلب ولا نهب. ولا استغلال لضعيف، ولا تسلط لظالم. ولا مفاخرة بمال ولا جاه ولا سلطان، ولا عصبية ولا قبلية، إنما أكرمكم عند الله أتقاكم. الأمر الذي خفف من حدة العصبية، وأبطل كثيراً من الدوافع التي كان من بينها يطمح العربي في أن يكون له أبناء. ومع ذلك فقد بقيت عاطفة الأبوة هي هي. وبقيت محبة الأبناء والشغف بهم على حالها. وكان لا بد للقرآن الكريم من أن ينبه إلى عدم الإسراف في تلك العاطفة وذلك الحب للأبناء لما له من مزالق وشطط، فيدعو شغف الأب بأولاده إلى نسيان ما عليهم من واجبات تجاه خالقهم ومجتمعهم. ونحن لا نغفل أن نذكر بأن القرآن الكريم نص على أمور وأحداث قبل الإسلام، وبالتالي كان مجالها في العصر الجاهلي. إلا أننا

---

(١) نفسه.

أثبتناها هنا، لأنها تنسجم مع السياق القرآني، والمنهج السماوي الذي كان في هذا العصر، وكان يدعو الناس إلى إتباعه.

من ذلك أن الله سبحانه وتعالى نص في كتابه العزيز في ثلاثة مواضع، على أن الأولاد زينة، مما زين للناس في الحياة الدنيا، وأن الجانبين الآخرين اللذين رافقا الأولاد فيما زين للناس هما المال والنساء في موضع، والمال فقط في موضعين. ذكر الله جل شأنه بهذا، وبين أن هذه الزينة مؤقتة في الحياة الدنيا، ولكن الله عنده حسن الثواب في الآخرة. فيجب أن لا ينساق الناس في حبهم وشغفهم بأبنائهم إلى الحد الذي ينسيهم الخالق تجلت قدرته.

قال تعالى: ﴿المالُ والبنونُ زينةُ الحياةِ الدنيا، والباقياتُ الصالحاتُ خيرٌ عند ربك ثواباً، وخيرٌ أملاً﴾(١) أرأيت كيف خصَّ الله البنين دون البنات بالزينة، وهو يصور مشاعر الناس حينئذ، ويصور مواقفهم من الأولاد وحبهم لهم، وهم الذين مر بنا الحديث عنهم في جاهليتهم. فالقرآن الكريم، وهو يقرر حقيقة واقعة لدى الآباء والأمهات، يذكرهم بأن الباقيات الصالحات عند الله خير من المال والبنين. وفي موضع ثان يفصل القرآن الكريم أسباب ذلك الحب للمال والبنين، فهما ليسا زينة في الحياة الدنيا حسب، بل هما مجال للتكاثر بين الناس. ذلك أن أكثرهم أموالاً وأولاداً هو أكثرهم فخراً واعتزازاً بنفسه، قال تعالى ﴿اعلموا إنما الحياةُ الدنيا لعبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم، وتكاثرٌ في الأموال والأولاد﴾(٢).

وهنا لا بد أن نلاحظ مرة ثانية أن الله جل وعلا، أكد على الأولاد الذين كانوا يدورون في خلد الناس. وأما البنات فلا مجال للتفاخر والتكاثر بهن عندهم. وفي

(١) صورة الكهف ٤٦.
(٢) سورة الحديد ٢٠..

الموضع الثالث، اقترنت النساء بالمال والبنين، فيما زين للناس، مع شيء من التفصيل في المال، وكان في هذه الزينة إشباع للشهوات. ولننظر أين جاء ذكر النساء في المواضع الثلاثة، أنه مع (حب الشهوات)، لتتمثل البلاغة القرآنية والدقة في التعبير والتصوير. وما الشهوة إلا نزوة عابرة، وكثيراً ما تجر صاحبها إلى المزالق الخطرة من أجل إشباعها، وسرعان ما يعض صاحبها أصبع الندم على ارتكابها.

قال سبحانه: ﴿زُيِّنَ للناسِ حبُّ الشهوات من النساء والبنينَ والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب﴾(١).

وما يزين للانسان يدعوه إلى أن يفتن به. وهكذا كان حال الناس قبل الإسلام، الأمر الذي دعا إلى أن ينتبه المسلمون إليه، ويبتعدون عنه. ومن هذه الأمور التي زينت للناس وتحدثنا عنها هي المال والأولاد، فنص الخالق عليهما في موضعين من كتابة الحكيم، فقال في الموضع الأول ﴿واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة، وإن الله عنده أجر عظيم﴾(٢). وأعاد الكلام بنصة تقريباً في سورة ثانية، زيادة في التأكيد والتذكير فقال ﴿إنما أموالكم وأولادكم فتنة، والله عنده أجر عظيم﴾(٣).

وقد كانت تصل فتنة الناس بأولادهم وأموالهم إلى إنكار الرسالات، وإعلان الكفر بها، وحجتهم في ذلك أنهم أكثر أموالاً وأولاداً، وكأن هذين عاصمان لهم من العذاب يوم القيامة، انظرهم كيف يردون على الرسل ﴿وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون. وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً، وما نحن بمعذبين﴾(١).

(١) سورة آل عمران ١٤.
(٢) سورة الانفال ٢٨.
(٣) سورة التغابن ١٥.
(٤) سورة سبأ ٣٤، ٣٥.

وكانت الفتنة بالأبناء هي هي في سورة الكهف، في ذلك الحوار الذي دار بين رجلين ضرب الله بهما مثلاً، ففاخر أحدهما الآخر بما أوتيه من جنة وأولاد، «فقال لصاحبه وهو يحاوره، أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً»(١) حتى إذا ردَّ صاحبه عليه وقد آمن بالله، وأراد أن يعوضه الله ما هو خير من الجنة. أما الأولاد فلم يرد ذكر لهم على لسانه، وكأنه يتعلق بهم، ويود أن يكون له من الولد ما يسعد به، انظره يجيبه «قال له صاحبه وهو يحاوره... ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله، لا قوة إلا بالله أن ترن أنا أقل منك مالاً وولداً فعسى ربي أن يؤتين خيراً من جنتك...»(٢) أما الأولاد، فلم يتحدث عنهم لأنه يتمناهم على ما أعتقد.

وتتجسد عاطفة الأبوة عند الأنبياء والرسل، في حبهم للأبناء في ذلك، شأن كافة البشر في كل زمان ومكان. فزكريا عليه السلام حرم من نعمة الأبناء، وما كان عليه إلا أن يدعو الله أن يرزقه ابناً يرثه، ﴿وزكريا إذ نادى ربه، ربِّ لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين﴾(٣).

فكأنه عليه السلام، يشعر بوحشة من قلة الأبناء، ويريد من يؤنسه بهم، فيدعو الله بذلك. ويواصل زكريا دعوته فيقول ﴿وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً، فهب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً﴾(٤). وإذا ما كان لأحدهم ولد، فإنه يحرص على أن يكون من المؤمنين، ويشفق عليه من عذاب الله. ويبذل معه جهداً كبيراً من أجل اصلاحه. هكذا كان حال نوح عليه السلام مع ابنه حين عصى الله. وهنا تتجلى عاطفة الأبوة، فنوح

---

(١) سورة الكهف ٣٤.
(٢) سورة الكهف ٤٠
(٣) سورة الانبياء ٨٩.
(٤) سورة مريم ٥، ٦.

يركب في سفينة مع من آمن معه، وهـو على يقين من نفـاذ أمـر الله في أن يهلك من ليس معه. إلا أنه لا ييأس من ابنه، فيدعوه لأن يركب معه، وهـو في سفينتـه التي تسير في موج كالجبال، ينادي ابنه، لئلا يكون مع الكافرين الهالكين، انظره وهو في سفينة (وهي تجري بهم في موج كالجبال ونـادى نـوح ابنـه وكـان في معـزل يـا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين)(١). إلا أن ابنه يرفض ذلك، ويقول إنه سيأوي إلى جبل يعصمه من الماء، ويجيبه والـده بـأن لا عـاصم اليـوم من أمر الله، ويحول بينهما الموج ويكون ابنه من المغرقين. وتبقى عاطفة الأبوة قوية متأججة، ولا ييـأس نوح من ربه بعد أن يئس من ابنه، فيتوجـه إليـه داعيـاً لابنه بالغفران من عنـد الله ﴿ونـادى نـوح ربـه، فقـال رب إن ابني من أهْلي وإن وعـدك الحق وأنت أحكم الحاكمين﴾(٢). إنه قلب الأب الـذي لا يقسـو على ولـده مهـما ارتكب من ذهب، وإن كان في أمر الله.

وكان فرعون يسلك سبيل قتل الأبناء وهو يعذب قومه، لإدراكه أن أشد عوامل التعذيب العنيف لهؤلاء القوم هو قتل أبنائهم، لذلك نجاهم الله سبحانه وتعالى من هذا البلاء العظيم: ﴿وإذ نجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب، يذبحـون أبناءكم، ويستحيون نساءكم، وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم﴾(٣).

وقد حرم النبي محمد ﷺ من الأولاد نتيجة وفاتهم وهم في سن الطفـولـة. وقـد تألم عليه السلام لوفاتهم، وبكى ولده إبراهيم بكاء مراً. وكان رسول الله ﷺ يجد في حبه ومداعبته لابني فاطمة بنته، الحسن والحسين، ما يعوضه عـما فقـده من أبنـاء. فكان يداعبهما ويلاعبهما، ويبثهما حبه وعطفه وحنانـه، حتى أن الأقـرع بن حـابس

---

(١) سورة هود ٤٢.
(٢) سورة هود: ٤٥.
(٣) سورة البقرة: ٤٩.

التميمي شاهده يوماً يلاعب الحسن ويقبله فقال له: إن لي عشرة من الأولاد، ما قبلت واحداً منهم. فقال له النبي صلوات الله وسلامه عليه. ما أصنع إذا كان الله قد نزع الرحمة من قلبك(١). وروى عنه أنه قال: ريح الولد من ريح الجنة.(٢) وذلك لما يجده الأب في ولده من طمأنينة وأنس، لا يجده في مكان آخر، وأكثر من هذا، إن الأب يشعر أن ولده قطعة منه، ولا غنى له عنه. وكان حب الأبناء متغلغلاً في نفس النبي، وكان عليه السلام مدركاً لأبعاده، عارفاً بتأثيره في الآباء، وانعكاسه على سلوكهم وتصرفاتهم، الأمر الذي جعله يقول لأحد ابني بنته: إنكم لتجبنون، وإنكم لتبخلون وإنكم لمن ريحان الله.

إنها الحقيقة التي يكشف عنها رسولنا الكريم بجلاء ووضوح. فكم بخل الآباء بأموالهم، وحرموا أنفسهم من كثير مما هم في شوق ومحبة له من أجل توفير ما لديهم من مال لأولادهم، كي يكونوا في رخاء من العيش. وكم تردد الأب في الأقدام على المخاطر والمغامرة، وما يمنعه ويجعله يتردد إلا أبناؤه الذين يخشى عليهم الذل والعازة بعد وفاته.

وعندما أراد قرة بن حنظلة الخزاعي الهجرة مع المسلمين الأوائل، كان أبوه حنظلة شيخاً عجوزاً، قد أقعده الدهر، وتعاقب السنون، وكان متمسكاً بأهداب الشرك والضلال. فأراد حنظلة رد ابنه عن وجهته، ليرعاه ويخدمه، إذ إنه رباه ورعاه مذ كان طفلاً، غمره بعطفه وحنانه. ويصعب عليه فراقه في هذه السن المتقدمة. ولكن كيف له أن يرد ولده وقد أصبح رجلاً ناضجاً مؤمناً، وهو لا يحاول رده إلا من باب الحب له، وكأنه في دعوته هذه يوجهه نحو الصواب، وهو يدعوه للضلال في الواقع. توجه الأب لابنه بحديثه عن ضعفه وعن رغبته في بقائه

(١) محاضرات الادباء ١: ٥٥٥.
(٢) محاضرات الادباء ٣: ٩٤.

بجانبه، والسبب الحقيقي في هذه الدعوة هو الحب، وليس الضعف الذي صرح به، يدلنا على ذلك تعبيره عن الحزن الذي كان عليه، فهو (بادي الحزن)، وأصبح وحيداً، (والها في الديار) بل إنه (يبكي لوحدته ذا شجن)، إنه حب الأب لولده الذي لم يستطع الحديث عنه مباشرة، إلا أن عاطفته غلبته فصرحت به في تضاعيف شعره، انظره يخاطبه فيقول(١)

أقولُ لقرةَ إذ سوَّلت
لـه النفس تـركَ الكَبير اليَفَنْ
أقُرَّةُ رُبَّتَما ليلةً
غبقْتُكَ فيها صريحَ اللَّبَنْ
أحينَ فشا الشيْبُ في لِمَّتي
وأفنى شبابي مَرُّ الزَّمَنْ
تَرَوَّحْتَ في النَّفر الرَّائحينَ
(م)وخَلَّيتْ شَيْخَكَ بادي الحَزَنْ
وأفردتهُ والهاً في الدِّيار
(م) يصرفُهُ الدهرُ في كلِّ فنْ
قليلَ الكلامِ بطيءَ القيا
م يبكي لوَحْدَتِه ذا شجن
أردتُ به الأجرَ فيما زعمْتَ
وتركُكَ شَيْخَكَ عينُ الغَبَنْ

وأبيات الحطيئة التي استعطف بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ذائعة الصيت

(١) الأمالي للقالي ٢: ٣٠٥. واليفن: الشيخ الكبير، وغبقتك: سقاه الغبوق، أي في العشي. واللمة: الشعر المجاوز شحمة الاذن.

وقد تمثل فيها تعلق الشاعر بأبنائه، وقلقه عليهم، خشية أن يلحق بهم الضيم في غيبته عنهم، وهم (زغب الحواصل لا ماء ولا شجر): (١).

مــاذا تـقــولُ لأفــراخٍ بـــذي مَرَخٍ
زُغْبِ الحَوَاصلِ لا مــاءٌ ولا شـجـــرُ
ألقيـــتَ كــاسبَهُم في قَعْر مُظْلـمـــة
فـاغفــرْ عـليـك سـلامُ الله يــا عُمَرُ

وقالوا. بكى عمربن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ وهو الأب، والخليفة العادل حينها سمع هذه الأبيات وعفا عن الشاعر، أو قل: عفا عن الشاعر ليس من أجله وإنما من أجل صبيته الذين تحدث عنهم الشاعر. وكيف لا يعفو الخليفة العادل عن رجل أب لأطفال هذا حالهم:

فـامْنُنْ على صِبيــة بـالـرَّمْل مَسْكَنهُم
بـيْنَ الأبــاطــحِ تَغْشــاهُم بهــا القُــرَرُ
أهـلي فِداؤكَ كـم بـيـني وبـيـنـهـم
مـن عَرْضِ داويــة تـعـمـى بهــا الخُبَـرُ

أرأيت الحطيئة ـ الأب ـ يختلف كلياً عن الحطيئة الشاعر الهجاء ـ الذي لم يترك واحداً في عصره إلا وهجاه ـ حتى إنه هجا نفسه. أرأيت كيف كان مستسلماً ضعيفاً بسبب أولاده.

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، يرى أن الأولاد يتركون حسرة وكمداً في النفس بموتهم، ويكونون فتنة لآبائهم في حياتهم، قالوا: نظر مرة إلى رجل يحمل طفلاً على عنقه، فقال له (ما هذا منك؟ قال: ابني يا أمير المؤمنين. قال: أما أنه إن

(١) الاغاني (طبعة دار الكتب) ٢: ١٨٨.

عاش فتنك، وإن مات حزنك)(١).

وحديث الآباء، يطول مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، إلا أنه لا يمكننا التعرض لسيرته دون التعريج على قصته المعروفة مع أمية بن الأسكر الكناني، وابنه كلاب، هذه القصة التي تداولتها كتب الأدب وأعجب بها الكتاب والنقاد، وكانت مثالاً حياً صادقاً على حب الآباء للأبناء، قالوا (لما وجه عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ الجيش إلى اليرموك، قام إليه أمية بن الأسكر الكناني فقال: يا أمير المؤمنين، هذا اليوم من أيامي، لولا كبر سني. فقام عليه ابنه كلاب ـ وكان عابداً زاهداً ـ فقال: لكني يا أمير المؤمنين، أبيع الله نفسي، وأبيع دنياي بآخرتي، فتعلق به أبوه، وكان في ظل نخلة له، وقال: لا تدع أباك وأمك شيخين ضعيفين ربياك صغيراً، حتى إذا احتاجا إليك تركتهما. فقال: نعم أتركهما لما هو خير لي، فخرج غازياً بعد أن أرضى أباه فأبطأ. وكان أبوه في ظل نخلة له وإذا حمامة تدعو فرخها، فرآها الشيخ، فبكى، فرأته العجوز يبكي فبكت فأنشأ يقول:

لمنْ شَيْخانِ قد نشدا كلاباً
كتابَ اللهَ إن ذكَرَ الكتابَا
أناديه ويعرِضُ لي حنينٌ
فلا وأبي كلابٌ ما أصابا
تركْتَ أباكَ مُرْعشَةً يداهُ
وأمك ما تسيغُ لها الشرابَا

(١) العقد الفريد ٢: ٤٣٩.

فــإنَّ أبـــاكَ حـينَ تــركـتَ شـيـخٌ
يــطــــــاردُ أينقاً شزباً جذاباً(١)
إذا رفــعــن أرقـــالاً سراعـــاً
أثــرنَ بـكــل رابـيــة تــرابــا(٢)
طــويــلاً شــوقــهُ يـبـكـيـكَ فــرداً
عـلى حــزن ولا يــرجــو الإيــابــا
إذا غــنــت حـمــامــةُ بَـطـنِ وجٍّ
عـلى بـيـضـاتهــاً ذكــرت كــلابــا

فبلغت هذه الأبيات عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فأرسل إلى كلاب فوافاه فقال: إنه بلغني أن أباك وجد لفراقك وجداً شديداً، فبماذا كنت تبره؟ قال: كنت أبره بكل شيء، حتى كنت أحلب له ناقة، فإذا حلبتها عرف حلبي. فأرسل عمر ـ رحمه الله ـ إلى الناقة، فجيء بها من حيث لا يعلم الشيخ، فقال له: أحلبها، فقام إليها وغسل ضرعها، ثم حلبها في إناء، فأرسل عمر رحمه الله بالأناء إلى أبيه، فلما أتي به بكى ثم قال: أني أجد في هذا اللبن ريح كلاب فقلن له نسوة كن عنده: كبرت وخرفت، وذهب عقلك. كلاب بظهر الكوفة، وأنت تزعم أنك تجد ريحه، فأنشأ يقول.

أعاذل قـد عـذلت بغير علم
وهــل تــدري العواذل مـا ألاقي
فأما كنت عـاذلــتــي فــــردي
كــلابــاً إذ تــوجــه لـلـعــراق

---

(١) شزب: ضامره
(٢) أرقالا: طويلة.

ولم أقض اللبانة من كلاب
غداة غد، وأوذن بالفراق
فتى الفتيان في عسر ويسر
شديد الركن في يوم التلاقي
فلا والله ما باليت وجدي
ولا شفقي عليك ولا اشتياقي
فلو فلق الفؤادُ حماطَ وجد
لهم عليكَ وجهيٍ بانفلاق(١)
سأستعدي على الفاروق رباً
له حج الحجيج على اتساقِ
وأدعو الله مجتهداً عليه
ببطن الأخشبين إلى دفاق
إن الفاروقُ لم يردُدْ كلاباً
إلى شيخين ما لهما تواقي

فقال له عمر: اذهب إلى أبيك، فقد وضعنا عنك الغزو، وأجرينا لك العطاء)(٢).

والقصة ـ على طولها، وعلى ما فيها من مبالغة، وشيء من الوضع ـ أثبتناها لما لمسنا فيها من روعة وجمال، وصدق وعاطفة، حتى وإن كان الخيال قد ساهم بقسط منها.

ومن علامات شغف المسلمين الأوائل بأبنائهم ترقيصهم لهم وتعبيرهم عن هذا

(١) حماط القلب: سواده وحبته.
(٢) عيون الاخبار ٣: ٩٧، الاغاني ١٨: ٢٥٦

الشغف بأشعار رقيقة، قصيرة، تندرج في إطار الأغنية لا القصيدة، من ذلك قول الزبير بن العوام، وهو يرقص أبنا له: (١)

أبيضُ من آل أبي عتيق
مباركٌ من ولد الصديق
ألذه كما ألذ ريقي

ومن هذه العلامات، اصطحابهم لأبنائهم في كل مكان يذهبون اليه كما كان يفعل عبدالله بن عمر بن الخطاب مع ولده سالم، حتى أن الناس لاموه في ذلك، فأجابهم بقوله(٢):

يلومونني في سالم وألومهمُ
وجلدة بينَ العينِ والأنفِ سالمُ

وكانوا يشمون لأبنائهم رائحة طيبة، ونكهة خاصة، تجعلهم يتغنون بها، وكأن أولادهم يتميزون بتلك الرائحة، كما كان حال الحسن البصري وهو يرقص ابنه وينشد(٢):

يا حبذا أرواحُهُ ونفسُهُ
وحبذا نسيمهُ وملمسُهُ
والله يبقيه لنا ويحرسُهُ
حتى يجر ثوبَهُ ويلبسهْ

وحال أعرابية كانت ترقص ولدها وتقول(٣):

---

(١) البيان والتبيين، الجاحظ، مكتبة الخانجي بمصر ١٣٣٨ هـ ١٩٦٨ م.
(٢) العقد الفريق ٢: ٤٣٧.
(٣) المصدر السابق: ١: ٢٧٨.

يـــا حــبـــذا ريـــحُ الـــولــــدْ
ريـــحُ الخـــزامـى في الـبـلـــدْ
أهـــكـــذا كـــــلُّ ولــــدْ
أم لم يـلـــــدْ قـبــلي أحــــدْ

** ** **

وإذا وصلنا للعصر الأموي، نلحظ أن الخلفاء الأمويين يعنون بـأبنـائهم عنـايـة خـاصـة ويعـربـون عن حبهم لهم، ويهتمـون بتربيتهم. وقـد حفلت كتب الأدب بأخبارهم في هذا الجانب، إذ ترسخ في أذهـانهم أن أولادهم لا بـد أن يـرثـوهم في الخلافة، مما يدعوهم إلى رعايتهم وتربيتهم تربية سليمة عمادها، الزعامـة والحنكـة، وحسن إدارة شؤون الدولة. ويبين لنا في النهاية مـدى تعلقهم بـأبنـائهم، وإيثـارهـم لهم، في تعيينهم من بعدهم وأخذ البيعة لهم قبل وفاتهم.

ويقف في مقـدمـة هـذا الصنف من الأمـويين، معـاويـة بن أبي سفيـان مؤسس دولتهم، وأكثرهم ذكاء ودهاء. فقد كان مفتوناً بولده يزيد، مهيئاً له: لخلافته بعـد وفـاتـه. روى أن الأحنف بن قيس ـ حليم العـرب في عصره ـ دخـل على معـاويـة ويزيد بين يديه (وهو ينظر إليه إعجاباً به، فقال يا أبا بحـر، مـا تقـول في الـولـد، فعلم ما أراد، فقال يا أمير المؤمنين، هم عماد ظهورنا، وثمرة قلوبنا، وقرة عيوننا، بهن نصول على أعدائنا، وهم الخلف منا لمن بعدنا. فكن لهم أرضـا ذليلـة، وسـماء ظليلة. إن سألـوك فـأعطهم، وإن استعتبـوك فـأعتبهم. لا تمنعهم رفـدك، فيملـوا قربك، ويكرهوا حياتك، ويستبطئوا وفاتك.

فقال لله درك يا أبا بحر، لقد دخلت عليّ وإني لمملوء غضباً على يزيـد، فسللتـه

من قلبي.)(١)

ومن أخبار خلفاء بني أمية ما أثر عن عبدالملك بن مروان، وحبه لابنه الوليد وتدليله له، حتى أنه قال (أضرَّبنا في الوليد حبنا له، فلم نؤدبه، وكأن الوليد أدبنا)(٢)

وتتمثل عظمة حب الولد، عند وفاته، ويرافق هذا الموقف الإيمان العميق بالله سبحانه وتعالى وبالاستسلام لأمره. يظهر جلال الموقف ورهبته مع الرجال العظماء الأجلاء، في مواجهتهم للصعاب، كما حدث للخليفة التقي الورع عمر بن عبدالعزيز، الذي وقف بجوار ولده عبدالملك، وهو يصارع الموت، ويلفظ أنفاسه الأخيرة، وإذا به يتمنى أن يكون هو البديل لولده في الوفاة، لأنه يود أن يكون ابنه مبرأ من كل أثم، طاهراً من كل سوء، ومن أجل ذلك يفضل أن تحتسب روحه وحسناته لفلذة كبده، على أن يحتسب ولده له عند الله. إنها عاطفة الأب المؤمن العاشق الواله لولده الذي يفديه بروحه، انظره يخاطبه فيقول (كيف تجدك يا بني؟ قال: أجدني في الموت فاحتسبني، فإن ثواب الله خير لك مني. قال والله يا بني، لأن تكون في ميزاني أحب إلي من أن أكون في ميزانك. قال وأنا والله لأن يكون ما تحب، أحب إليّ من أن يكون ما أحب)(٣)

وحب الأولاد يتضح أكثر عند آبائهم، إذا قيس بموتهم، ويكون أكثر وضوحاً ودلالة على مكانتهم في النفس، إذا قيس فقدهم بفقد سواهم من الأهل. إنها مقارنة سليمة أن يسأل الإنسان عن موت الأب والزوج والأخ والابن، لنعرف بعدها مكانة الإبن بين هؤلاء، الذين يقفون في المقام الأول من عواطف الإنسان

(١) الامالي للقالي ٢: ٤١.
(٢) العقد الفريد ٢: ٤٣٩.
(٣) نهاية الارب ٥: ١٦٥.

بالآخرين وصلته بهم. وهكذا كان حال رجل يسأل رجلاً عارفاً خبيراً بأمور الدنيا والدين، هو عبدالله بن أبي بكرة عن اولئك الذين ذكرناهم واحداً واحداً، على هذا النحو (ما تقول في موت الوالد؟ قال: ملك حادث. قال فموت الزوج؟ قال عرس جديد. قال: فموت الأخ؟ قال: قصٌّ جناح. قال: فموت الولد؟ قال: صدع في الفؤاد لا يجبر)(١) أرأيت موت الولد ماذا يفعل بالوالد؟ إنه حسرة وألم لم يجبر حتى آخر الدهر.

ومن روائع القصص التي وصلتنا عن العربي وحبه لابنه في العصر الأموي، تلك المشادة التي جرت بين أبي الأسود الدؤلي، وامرأته، حول ابن كان لها منه، وأراد أبو الأسود أخذه منها، فرفضت، واحتكما إلى زياد والي البصرة (فقالت المرأة: أصلح الله الأمير، هذا ابني، كان بطني وعاءه، وحجري فناءه، وثديي سقاءه. أكلؤه إذا نام، واحفظه إذا قام. فلم أزل بذلك سبعة أعوام، حتى إذا استوفى فصاله، وكملت خصاله، واستوكعت(٢) أوصاله، وأملت نفعه، ورجوت دفعه، أراد أن يأخذه مني كرهاً. فآدني(٣) أيها الأمير، فقد رام قهري، وأراد قسري. فقال أبو الأسود: أصلحك الله، هذا أبني حملته قبل أن تحمله، ووضعته قبل أن تضعه، وأنا أقوم عليه في أدبه، وأمنحه علمي، وألهمه حلمي، حتى يكمل عقله، ويستحكم فتله. فقالت المرأة: صدق أصلحك الله، حمله خفاً، وحملته ثقلاً. ووضعه شهوة، ووضعته كرهاً. فقال له زياد: اردد على المرأة ولدها، فهي أحق به منك، ودعني من سجعك)(٤). لقد صدق زياد، وعدل في حكمه ولكن هيهات أن يقتنع أبو الأسود ويضحي بابنه.

---

(١) عيون الاخبار ٣: ٩٢.
(٢) استوكعت: اشتدت
(٣) ادني: قوني
(٤) الأمالي ٢: ١٢.

وكثيراً ما أغضب الأبناء آباءهم. وتركوا في نفوس الآباء غيظاً وحنقاً. انعكس على معاملتهم لهم وفي أشعارهم، وتمنوا موتهم - كل هذا في لحظة الغيظ - ولكن إذا ما تعرض الولد لمكروه، نسي الأب نفسه وسارع إلى إسعاف ولده ونجدته لأن ساعة الغضب لا يعول عليها، ولا تعكس ما في حقيقة النفس. وقد تجسد هذا الموقف مع رجل زمن عبدالملك بن مروان كان له ابن عاق اسمه منازل، فتألم الشيخ من ابنه وعقوقه، وسوء معاملته له، فدعا عليه دعوة، لو دعاها (على جبل الريان لانقض جانبه)، اسمعه ينشد:(١)

جَزَتْ رحمٌ بيني وبين منازل
جزاء كما يستنجزُ الدين طالبُهْ

تربَّت حتى صارَ جعْداً شمرْدلاً
إذا قام ساوى غاربَ الفحْلِ غاربُهْ(٢)

تظلمني مالي، كذا، ولوى يدي
لوَى يده الله الذي لا يغالبُهْ

وإني لداعٍ دعوة لو دعوتها
على جبل الريان لانقضَّ جانبُهْ

أرأيت الألم الذي كان يعانيه الأب. وقسوة الابن على أبيه، يبدد ماله، ويلوي يده. ويسمع الأمير بأبيات الشيخ، ويريد عقاب الابن فيرسل في طلبه، ويعلم الشيخ بالخبر. فما تراه يفعل؟ يصحو من غفلته، وينسى ماله، وألم يده، ويهب لنجدة ولده ليفلت من يدي الأمير، ويقول لابنه (أخرج من خلف البيت، واسبق رسل الأمير) هذه هي حقيقة الأب وعاطفته، وليست تلك الأبيات التي قالها ساعة

---

(١) عيون الاخبار ٣: ٨٦.
(٢) تربت: تربي. جعدا شمردلا: فتى قويا.

الانفعال والغضب.

وبلغ من حب الرشيد لأولاده أن فضل أن يكون المعتصم أمياً، على أن يذهب إلى الكتاب على غير رغبته. فقد روي أن الرشيد قال لابنه المعتصم (ما فعل وصيفك فلان؟ قال مات فاستراح من الكتاب. قال أو بلغ منك هذا المبلغ. والله لاحضرته أبداً، ووجهه إلى البادية، فتعلم الفصاحة)(١)

ويطالعنا في العصر العباسي رجل يزجر زوجته، وقد كانت تنحي ابنه عنه، ويرفض هذا، لأنه يمثل روحه وحياته، وهو بدونه لا شيء. ولا يتوقف عند الزجر بل يحذرها من هذا الصنيع لأن فيه (زلة ليس بعدها جبور)، وكأنه يوحي بها بفراقها إن ظلت على هذا الحال:

أزِحنةَ عنّي تطردينَ تبدلتْ
بلحْمك طيرٌ طرْنَ كلَّ مطيرِ
قفي لا تزلي زلةً ليس بعْدَها
جبورٌ، وزلاتُ النساءِ كثيرُ
فإني وإياهُ كرجلي نعامة
على كل حالٍ مَن غنيٍّ وفقير

ويعلق أبو علي القالي على هذه الأبيات بقوله: (وليس شيء من البهائم الا وهو إن انكسرت إحدى رجليه انتفع بالأخرى، إلا النعامة)(٢).

ويصل إعجاب الأب بابنه أن يصفه بصفات تتنافى مع حقيقته، الأمر الذي يجعل الإنسان في حيرة من تعليل ذلك. فقد (مر أعرابي ينشد ابنا له عند قوم، فقالوا:

---

(١) العقد الفريد: ٢: ٤٤٠.
(٢) الامالي ٢: ١٨٨.

صفه، قال: دنينير. قالوا: لم نره. فلم يلبث القوم أن جاء على عنقه بجعل(١). قالوا: ما وجدت ابنك يا أعرابي؟ قال: نعم، هو هذا. قالوا لو سألت عن هذا لأخبرناك، ما زال منذ اليوم بين أيدينا(٢) عجباً أهو حب الأب لابنه ذلك الذي جعل صفة العبد الذميم، ديناراً ناصع البياض؟ ربما. أستغفر الله. أجل، وأكثر من الدينار بل مثل القمر.

(١) الجعل: الاسود الذميم.
(٢) البيان والتبيين ٢: ١٩٨.

ـ ٢ ـ

موقفهم من البنات

قال تعالى في محكم كتابه ﴿وإذا بشر أحدهم بالأنثى، ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به، أيمسكه على هون، أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون﴾(١). بهذه الآية الكريمة صوَّر الله جلَّت قدرته موقف العربي في جاهليته، من البنت، وهو تصوير ينم على بغض شديد لها، من قبل أبيها، ومن قبل المجتمع الذي يحيط بها. ولو أردنا أن نبحث عن مسوغات لهذا البغض، في ذلك العصر، فإننا لن نفلس من الوقوف على عدد منها، على أننا نحترس ونقول، إن هذه المسوغات، وإن كانت لا تتفق مع آرائنا وآراء الكثيرين غيرنا في القديم والحديث، إلا أنها كانت قوية، ولا تخلو من منطق في المجتمع الجاهلي.

من هذه المسوغات، أن البنت، التي هي بعد ذلك المرأة، تمثل عرض الرجل الذي كان يحرص عليه حرصاً شديداً، وكان هذا يكلفه جهداً كبيراً في الحفاظ عليه لئلا يعير به، فيحط من قدره وكرامته في مجتمعه.

(١) سورة النحل، ٥٧، ٥٨، ٥٩.

ومنها ما سبق أن تحدثنا عنه، من أن الحياة العربية في البيئة الصحراوية كانت حياة قاسية، يتعرض الإنسان فيها إلى الحروب والغارات، مما يدعو إلى توفر الفرسان المغاوير لا النساء القاصرات.

ومنها ـ بعد ذلك ـ السبي الذي كانت تتعرض له المرأة، وما يلقيه على أهلها وقومها من تبعات مادية ومعنوية تكون فوق ما يطيقون في كثير من الأحيان.

كل هذه الأمور ـ وأمور أخرى غيرها ـ كانت تدعوهم إلى أن يختاروا أقصر الطرق، على ما فيها من ألم، ومنافاة للشعور الإنساني فيكون الوأد للبنات والكره لهن.

وعلى ما في كره البنات، ووأدهن، من منافاة للذوق السليم، وخروج على الطبيعة الإنسانية، فقد احتفظت لنا كتب الأدب بشيء من أقوال العرب وأشعارهم في هذا الجانب.

من هذه الأقوال، ما أثر عنهم، من قولهم لمن رزق بأنثى. (آمنكم الله عارها وكفاكم مئونتها، وصاهرتم القبر). ومنها قولهم (دفن البنات من المكرمات). وقد قيل لأعرابي: ما ولدك؟ قال: قليل خبيث. قيل: وكيف ذلك؟ قال: لا عدد أقل من الواحد، ولا أخبث من بنت)(١).

وكثيراً ما أفصحوا عن رغبتهم في أن يكون القبر صهرهم، ورأوا فيه خير الأصهار قال شاعرهم:

لكل أبٍ بنتٌ يُرَجَّى بقاؤها
ثلاثةُ أصهارٍ إذا ذكرَ الصهرُ

(١) المحاسن والمساوىء، ٣٥٥.

فبيتٌ يغطيها، وبعلٌ يصونها
وقبرٌ يواريها، وخيرُهُم القبْرُ

وأنشد آخر:

إني وان سيقَ إلي المهرُ
ألفٌ، وعبدان، وذودٌ عشرُ
أحب أصهاري إلي القبر(١)

ومع شيوع هذا البغض، والوأد في العصر الجاهلي، إلا أنه كان (كثير من عقلاء العرب لا يرتضي هذا الفعل (وأد البنات) وكان جمع منهم يفتدون هذا النوع من الموءودة من أهلها. وكان زيد بن عمرو بن نفيل، يحيى الموءودة، يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته، لا تقتلها، أنا أكفيك مئونتها، فيأخذها، فإذا ترعرعت، قال لأبيها إن شئت دفعتها إليك وإن شئت كفيتك مئونتها) والأحياء هنا مجاز، والمراد بإحيائها إبقائها.

وكان صعصعة بن ناجية جد الفرزدق يشتري البنت ممن يريد وأدها خشية الإملاق فأحيا ستاً وتسعين موءودة إلى زمن النبي ﷺ. وفي ذلك يقول الفرزدق مفتخراً:

ومنا الذي أحيا الوئيد وغالبٌ
وعمروٌ ومنا حاجبُ والأقارعُ

. . . . وقال:

ومنا الذي منعَ الوائدا
تِ وأحيا الوئيدَ فلمْ يوأدِ(٢)

(١) طبقات الشعراء ٢: ٥٦١. محمد بن سلام الجمحي. دار المعارف بمصر. ١٩٥٢.
(٢) بلوغ الارب. محمود شكري الاوسي ط. ٣. دار الكتاب العربي بمصر ٣: ٤٥.

هكذا كان يفعل أشراف العرب وكرامهم وكانوا يعتزون بهذا، حتى أن صعصعة ابن ناجية قال في نفسه عندما أحيا أول موءودة: ان هـذه المكـرمـة مـا سبقني إليهـا أحد من العرب(١). إلا أننا نلمس من قول صعصعة هـذا، أن إحياء الموءودات لم يكن كثيراً في عصره.

وقـد استكـره معن بن أوس كـره البنت، وعجب من أولئك الـذين يكـرهـون البنات، وكأنهم لم يدركوا ما لهن من حسنات، وما فيهن من نساء صالحـات، وهن اللواتي لا يمللن البكاء والعويل والندب على فقيدهن من الرجال، قال(٢):

رأيتُ أناساً يكرهونَ بناتهم
وفيهنَّ لا تكذبُ نساءٌ صوالحُ
وفيهنَّ والأيامُ تعثرُ بالفتى
نوادبُ لا يمللنهُ ونوائحُ

---

(١) الاغاني، ١٩: ٣.
(٢) الاغاني. ١٠: ١٥٦.

ـ ٣ ـ
حبهم لهنّ

ولكن هل يعني ما سبق، أن عاطفة الأبوة تجاه البنت قد ماتت عند العرب، وأن البنت بما تتمتع به، من أنوثة ورقة ونعومة، وعطف، وخدمة لأبويها، ورعاية لهما، هل البنت بكل هذه الصفات الجذابة الخلابة التي حباها الله بها، قد وجدت قلوباً كالصخر في كل الأحيان ولم تستطع أن تؤثر فيها، وتجعلها ترق وتلين فتلتفت إلى ما فيها من جمال؟ وهل إذا كانت البنت عرضة للسبي، وغير قادرة على خوض غمار المعارك والحروب، تكون عندئذ عالة على أهلها، بحيث يمكن الاستغناء عنها، وقتلها شر قتلة، بدسها في التراب؟ والعربي، بذكائه الفطري، وإحساسه المرهف، هل غاب عنه، أنه لولا البنت لما كان الولد؟.

إن ما بين أيدينا من مادة تؤكد عكس هذا كله، وتبين لنا أن العربي كان ـ في أغلب أحيانه ـ يمتزج حبه لبنته بحرصه وخوفه عليها، لمعرفته بمدى ضعفها وقد صور أعرابي هذ الموقف في أبيات تحدث فيها عن بنات صغار له، قد شلت حركته بسببهن، ولماذا؟ لأنهن فلذات كبده تمشي على الأرض. أرأيت كيف حقيقة الأبوة؟.

إنها تجاه الولد هي هي تجاه البنت. وإن الريح لو هبت عل بنت من بناته، فإن عينه لا تنام، وإن باله لا يهدأ، كيف لا؟ وهو لا يملك من رأس مال في حياته إلا عرضه، ممثلاً في بناته، قال: (١)

لولا بنياتٌ كزغب القطا
حططنَ من بعضٍ إلى بعضِ
لكانَ لي مضطربٌ واسعٌ
في الأرضِ ذاتِ الطولِ والعرضِ
وإنما أولادُنا بيننا
أكبادنا تمشي على الأرضِ
لو هبت الريحُ على بعضهم
لامتنعت عيني من الغمضِ
أنزلني الدهرُ على حكمه
من مرقب عالٍ إلى خفضِ
وابتزني الدهرُ ثيابَ الغنى
فليس لي مالٌ سوى عِرضي

وهذا أعرابي آخر يطالعنا في موقف إنساني مؤثر، يتعلق بابنة له. يحبها، ويغرم بحبها، إلا أنه في الوقت نفسه، يتمنى موتها. إنه أمر غريب! وكيف يكون هذا؟ أيحب إنسان إنساناً آخر، ويتمنى موته، أو قل: هل حبه له يدعوه إلى أن يتمنى موته؟ أجل، هكذا كان حال صاحبنا الذي يعاني الفقر، ويجوب الليالي، في الظلام الدامس المدلهم، يبحث عن العيش الكريم لابنته، التي تغرم بأبيها، وتتمنى أن يعيش الدهر بينما يتمنى هو أن تموت قبله، ليس كرهاً لها، وإنما شفقة عليها، ورأفة

(١) عيون الاخبار. ٣: ٩٣.

بحالها من الفقر، الذي قد يضطرها إلى السؤال الذي يعرضها للذل، وتجلت عاطفة الأب وحنوه على ابنته، في بيته الأخير الرائع:

إذا تــذكَّرتُ بـنـتـي حـين تـنـدبُـني
فـاضتْ لـرحـمـةِ بنـتي عبرتي بـدمِ

حيث لا قسوة، ولا خشونة في الطبع، إنما الاستسلام والضعف أمام العاطفة القوية الصادقة النابعة من أعماق الأب لتعبر عن دفائن النفس تجاه فلذات الكبد، دون تمييز بين الذكر والأنثى، انظره ينشد(١):

لـولا أمـيـمـةُ لم أجـزعْ مـن الـعـدمِ
ولم أجبْ في الليـالي حنـدسَ الظلمِ(٢)
وزادني رغـبـةً في الـعـيش مـعـرفـتـي
ذل اليتيمة يجفـوهـا ذوو الـرحم
تهـوى بـقـاي وأهـوى مـوتهـا شـفـقـاً
والمـوتُ أكـرمُ نـزال عـلى الحـرمِ
أحـاذرُ الـفـقـرَ يـومـاً أن يلـمَّ بهـا
فـيـهـتكُ السترَ عـن لحـمٍ عـلى وضـمِ(٣)
إذا تـذكـرتُ بـنـتـي حـين تـنـدُبُني
فـاضتْ لـرحمَةِ بـنـتـي عـبرْتي بـدَمِ

ولم يكن هذا الأعرابي وحيداً في شعوره تجاه بنته، وخوفه عليها من الضياع والفقر بعد وفاته، إنما تكرر هذا الموقف عند غيره من الشعراء. حديث عن البنت، وعن الفقر، وعن الحب، وعن الرغبة في موتها ـ مخافة ميتتي فتضيع بعدي ـ ومخافة

(١)، (٢) عيون الاخبار. ٣: ٩٤. والحندس: الليل الشديد الظلمة.
(٣) الوضم: خشبة الجزار التي يقطع عليها اللحم.

أن تصير إلى لئيم - يرغب الشاعر في أن يكرم الله بنته بقبر، وهي (أعز الناس عندي)، قال(١):

أحـــب بـــنـــيـــتـــي وودتُ أني
دفـنـتُ بـنـيـتـي في جـوف لحْدِ
ومـا بـغضي لهـا غـرضٌ ولـكـن
مخـافـةَ ميتتي فـتـضيـعُ بـعـدي
مخـافـةَ أن تـصـير إلى لئـيـم
فـيـفـضـحُ والـدي ويـشـينُ جـدّي
فـلـيـتَ الله أكـرمَهـا بـقـبر
وإن كـانـت أعـزَّ الـنـاس عـنـدي

ودخل عمرو بن العاص على معاوية بن أبي سفيان، وبنية له تتمرغ على صدره، فقال من هذه؟ قال: هذه تفاحة القلب. فقال: أمطها عنك يا أمير المؤمنين، فإنهن يقربن الأعداء، ويورثن البعداء. فقال معاوية: لا تقل ذاك يا عمرو، فما مرّضَ المرضى، ولا ندب الموتى، ولا بر الأحياء كهن. فقال ابن العاص: قد تركتهن عندي آثر من الأبناء(٢).

وضرب المثل في زهد الخوارج في الحياة الدنيا، ورغبتهم الجامحة في الموت ليلحقوا بإخوانهم الشهداء، ولينعموا بنعيم الجنة. لم يكن يقف في وجههم ما يردهم أو يصدهم عن غايتهم أمر مهما كانت خطورته، أو شيء مهما كانت محبته. كانوا على هذا الحال، الرجل منهم والمرأة على حد سواء.

---

(١) المصدر السابق. ٣: ٩٣.
(٢) عيون الاخبار. ٣: ٩٩.

فهذه امرأة تعبر عن زهدها في حياتها فتنشد:

أحْمِلُ رأســـاً قـــد مــلــلْتُ حملــهْ
وقـــد مــلــلــتُ دهْنَهُ وغَسْلَهْ
ألا فـــتـــىً يحـــمـــلُ عـــنــي ثِقْلــهْ

وهذا رجل يقول:

مـنْ كـــان يكـــرهُ أن يلْقـى مـنـيـتــهُ
فـــالمــوتُ أشـهـى إلى قـلـبـي مـن العَسَلِ

وكـان الـرجـل منهم إذا تخلف عن القتـال والتضحيـة والخـروج في سبيـل الله، يتعرض للتأنيب والتقريع واللوم من بقية إخوانـه الخـارجين، كـما فعـل قطـري بن الفجاءة المازني ـ فارس الخوارج وزعيمهم وشاعرهم ـ مع أبي خالد القنـاني، وكـان من قعدة الخوارج، فقال له قطري(١):

أبـا خـــالـــد إنـفــرْ فـلـستَ بخـــالـــد
ومـــاً وجـعـــل الـــرحمنُ عـــذراً لِقـــاعد
أتــــزْعُمُ أنَّ الخـــــارجــيَّ عـــلى الهُدى
وأنــتَ مـقـيـمٌ بـين لصٍّ وجـــاحـــدِ

فكتب إليه أبو خالد:

لــقـــد زادَ الحـيـــاةَ إليَّ حُبـــاً
بـنـــاتي إنهــنَّ مـــن الـــضـعـــافِ
أحـــاذرُ أنْ يـــريْنَ الـفـقــرَ بـعـــدي
وأن يـــشْرَبْنَ رَنَقاً بعـدَ صـافِ(٢)

---

(١) الكامل للمبرد، ٣: ١٦٧، طبعة دار نهضة مصر.
(٢) الرنق: الكدر.

وأن يَعْرِيْنَ إنْ كُسِيَ الجــواري
فتنبــو العــينُ عــن كــرمٍ عجــافِ
ولــولا ذاك قــد ســومتُ مُهــري
ولــلــرّحمنُ لــلضــعفــاء كــافِ
أبــانــا مــن لــنــا إنْ غبْتَ عــنَّا
وصــارَ الحــيُّ بــعــدكَ في اختــلافِ

أرأيت السبب الذي أقعد أبا خالد. إنه بناته، وحبه لهن وعطفه عليهن وخشيته أن يرين الذل والضيم من بعده.

وكان المأمون وجد على قائد من قواده، فاستصفى ضياعه وداره، وأنهب دوابه وماله، وكان شيخاً فانياً، ولم يكن له من الولد إلا بنية صغيرة، فأجمع أن يضرب في الأرض، ويطلب من فضل الله جل وعز، ويخلف بنيته. فبكت الابنة، وقبضت على أبيها، وقالت: اقنع بما آتاك الله، واصبر على محن الزمان ونوائب الدهر، والزم الوطن، وارحم وحدتي وضعفي، وقلة حيلتي، أو اذبحني فلا ابتلى بفراقك. فبكى الشيخ وقال:

تــقــولُ ابــنــتــي لمــا أردتُ وداعــهــا
وقــدْ حضرتــنــي نــيــةٌ ورحــيــلُ
لــعــلَّ المــنــايــا في رحــالــك تــنــبري
لــنفسك ختــلاً أو تــغــولــك غــولُ
فــتــركــنــي أُدْعى اليــتيمــة بــعــدمــا
تــبــينُ، وعــزي بــعــد ذاكَ ذلــيــلُ

(١) المصدر السابق. ٣: ٩٣.
(٢) عيون الاخبار. ٣: ٩٩.

أفي طلب الدنيا وربكَ بالذي
تَسيرُ له راعٍ عليكَ كفيلُ
أليسَ ضعيفُ القومِ يأتيه رزقُهُ
يساقُ إليه والبلادُ محولُ
ويحرمُ جمعَ المالِ من قد يرومُهُ
يكدُّ عليه رحلةً ويجولُ
فلو كنت في طود على رأس هضبة
لها نجفٌ فيهِ الوعولُ، تقيلُ
مصعدة لا يستطاعُ ارتقاؤها
ولا لنزول يستطاعُ سبيلُ
إذاً لأتاكَ الرزقُ يحدوهُ سائقٌ
حثيثٌ ويهديه اليكَ دليلُ

فنمى الخبر إلى المأمون، فدعا بالشيخ، فاستنشده شعره، فأنشده، فرق له وأمر برد جميع ما أخذ منه، وأعاده إلى مرتبته، وزاده من عنايته(١).

وبعد، فقد عاش يزيد بن زبيبة الشيباني دهراً طويلاً، حتى لحق زمن الحجاج وسعى مع ابن الأشعث، فظفر به الحجاج، وورد عليه كتاب عبدالملك بن مروان يأمره بقتله، فلما دعا به قال له: أيها الأمير، اتق الله بتسع عشرة نسوة ليس لهن قيم غيري، قال: احضرهن. فلما حضرن سألهن الحجّاج عن شأنهن فما منهن امرأة إلا وتقول: اقتلني ودعه. فقامت بنية له صغيرة فبكت بكاء حاراً موجعاً محرقاً، وأنشأت تقول:

(١) المحاسن والمساوىء ٣٧٨.

أحــجـــاجُ إمَّا أن تجــــودَ بـنـعـمــــة
علــيــنـــا، وإمَّا أن تــقَتِّلــنـــا مــعـــاً
أحــجـــاجُ كـم تَفْجَعْ بـــه إنْ قـتـلـتــه
ثـــلاثـــاً وعشراً واثــنـتـــين وأربــعـــا
فــمــنْ رجـــلٌ دانٍ يــقـــومُ مــقـــامَهُ
علينــا، فمهــلاً لا تــزدنــا تـضـعـضـعـا(١)

فصاحبات قلوب كهؤلاء، وأقوال كهذه، جديرات بأن يكون لهن التقدير والحب أضعاف ما للأولاد من حب وعطف.

(١) المصدر السابق ٣٧٩.

الفصل الثاني

مناهج التربية عند العرب

يكاد يكون عنوان هذا الفصل كبيراً على مضمونه، لأننا حينما نقول (مناهج التربية عند العرب) يتبادر إلى ذهن القارىء، أنه سيقف على أكثر من منهج، تتمثل فيه أسس وقواعد، استنها العرب في قديمهم، وأصبحت هادياً لهم في الأسلوب الذي اتبعوه فيما بعد لتحقيق هذه المناهج. نعم يتبادر إلى ذهن القارىء هذا، لأول وهلة. وربما يتبادر إلى ذهنه أيضاً تساؤل يقف على الطرف الآخر من القضية وهو، أية مناهج تلك التي كانت عند العرب، في الفترة التي ندرسها على الأقل وهي تنتهي بانتهاء العصر الأموي. وقد كان العرب يعيشون على فطرتهم، ولم تتوفر لديهم سبل الاستقرار والاطلاع التي حدثت في الفترات التالية، والتي دفعتهم دفعاً إلى أن يجددوا ويطوروا في جوانب حياتهم المتعددة ومن بينها منهجهم في تربية أبنائهم.

وبعد، فما مناهج التربية عند العرب في هذه الحقبة؟ لقد كانت مناهجهم تنسجم وطبيعة حياتهم وتفكيرهم، وما يؤمنون به من قيم ومثل سائدة آنئذ. ولو أردنا أن نفتش عن تلك المناهج فإننا نجدها تتردد على ألسنة الأعلام منهم، وذوي الشأن، الذين كانوا على بصيرة من أمرهم، وذوي رأي مسموع يؤخذ بين مجتمعهم، وكانوا أيضاً يعنون بتربية أبنائهم، ويستنون لهم المناهج التي تلائم تفكيرهم ومنزلتهم، وما يطمحون إليه من سؤدد وجاه. يستنون المناهج ويقومون بتطبيقها بأنفسهم، أو

يلقنونها لمؤدبي أبنائهم، ويدعونهم إلى التمسك بها، وعدم الحياد عنها، كانوا على هذه الحال، وهم يحفظون كتاب الله، ويدرسونه، ويبين الله، جلَّ شأنه، لهم أن الأبناء يجب أن يكونوا بارين بآبائهم، ولا يكونون كذلك، إلا إذا نشئوا تنشئة سليمة فيها دعوة إلى الإيمان بالله والتمسك بدينه ﴿ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾(١).

هذا الدين فيه تشريع للمسلمين تبين من خلاله الحق من الباطل. وما حرم الله وما حلل. وفيه أيضاً مناهج للحياة ولسير الإنسان فيها. وفيها منهج تربوي للابن والأب الصغير والكبير. هذا المنهج الذي اتبعه الآباء في تربية أبنائهم ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم، ألا تشركوا به شيئاً، وبالوالدين إحساناً، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق، نحن نرزقكم وإياهم، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون﴾(٢).

هذا قليل من كثير، بينه الله للمسلمين، بتفصيل دقيق، ووضوح تام، ومنهج قويم وعاه الآباء من الرسل إلى أن يسيروا على المنهج، وتكون تربيتهم لأبنائهم منسجمة مع ما حرم الله وما حلل. وإذا بلقمان الحكيم يعظ ابنه، ويربيه، وترد قصته في كتاب الله، لأنه سبحانه يدعونا إلى السير على هذا الطريق الذي سار عليه لقمان في تربيته لابنه، انظره في موعظته ﴿وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه، يا بني لا تشرك بالله، إن الشرك لظلم عظيم، ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن، وفصاله في عامين، أن أشكر لي ولوالديك إليَّ المصير، وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم، فلا تطعهما، وصاحبهما في الدنيا معروفاً، واتبع

---

(١) سورة البقرة ١٣٢.
(٢) سورة الانعام ١٥١.

سبيل من أناب إلي ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون. يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن صخرة، أو في السموات أو في الأرض، يأت بها الله، إن الله لطيف خبير. يا بني أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك، إن ذلك من عزم الأمور. ولا تصعّر خدك للناس، ولا تمشِ في الأرض مرحاً، إن الله لا يحب كلَّ مختال فخور. واقصد في مشيك واغضض من صوتك، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾(١).

هذه موعظة لقمان في كتاب الله. وهكذا كان العرب بعد ذلك في تربيتهم لأبنائهم ومواعظهم لا تبعد عن هذا كثيراً، بل أن هذا هو الأساس والمنطلق بالنسبة لهم في تربيتهم. أعني أن كتاب الله كان من أوائل الأمور التي يعنون بها في التربية، وذلك لما فيه من تشريع، وتعريف بأمور الدنيا والدين، ولما فيه من دروس جاءت على ألسنة أولئك الرسل السابقين، تتجسد حقيقتها في موضوعنا الذي نعالجه وجاءت على لسان إبراهيم ولقمان عليهما السلام لأولادهما.

وقد وعد الله هؤلاء الذين حثوا أبناءهم على الإيمان، ورسموا لهم الطريق الصحيح ووضحوه، فكان أن آمنوا بالله ورسله، وساروا سيرة حسنة في دنياهم، وعد الله هؤلاء المؤمنين بأن يلحق بهم ذريتهم وأن لا ينقص من عملهم شيئاً، بل لهم جزاؤهم على عملهم ولهم أبناؤهم معهم في جنات النعيم ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان، ألحقنا بهم ذريتهم، وما ألتناهم من عملهم من شيء﴾(١). فهنيئاً لهؤلاء المؤمنين الذين آمنوا ايماناً صادقاً ظهر صداه وانعكاسه على ذريتهم من الأبناء والأحفاد فكان جزاؤهم النعيم والخلود.

واقتداء بكتاب الله، دعا رسول الله ﷺ إلى تربية الأبناء، هذه التربية القويمة،

(١) سورة لقمان ١٣ ـ ١٩.
(٢) سورة الطور ٢١.

بل أنه عليه السلام، فضل هذه التربية على الصدقة، قال (يؤدب الرجل ولده خير من أن يتصدق)(١).

ومرة أخرى يؤكد النبي ﷺ هذا المعنى، ولكن بتفصيل أكثر، وباستشهاد من القرآن الكريم، ليدعم الرأي، ويبين الفضل في تربية الابن وتعليمه قال عليه السلام (... فالذي يعلم ولده فيحسن تعليمه، ويؤدبه فيحسن تأديبه، فقد عمل في ولده عملاً حسناً، يرجى له من تضعيف الأجر فيه، كما قال عز وجل ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه أضعافاً كثيرة﴾(٢).

وأثر الآباء في أبنائهم بين فيما يعبدون، ويسلكون من سلوك، ألم تكن حجة كفار قريش في عدم إيمانهم أنهم على دين آبائهم سائرون؟ ولا يمكن التخلي عن سيرة الآباء والأجداد؟ أجل بهذا كانوا يتذرعون، وهي ذريعة فيها شيء من منطق، ذلك أن الطفل يلقن تلقيناً مع الرضاعة عادات وتقاليد وقيم الآباء، الأمر الذي يجعل التخلي عنها فيه صعوبة، وهو بحاجة لجهد وحجة أقوى، وقد وضّح النبي ﷺ هذه الحال بقوله عليه السلام، (كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه، كما تناتج الإبل من بهيمة جمعاء، وهي تحس من جدعاء)(٣).

وأخذاً بهذه القيم الروحية، والتعاليم السماوية، واقتداء بآراء الرسول الكريم، الذي كان لا ينطق عن الهوى، سار العرب المسلمون، يأخذون بكتاب الله، ويجعلونه هاديهم ومرشدهم. فلا تربية إلا وهو في مقدمتها للأخذ به. ثم تأتي بعد ذلك أمور الحياة الدنيا وما بها من متطلبات. وهكذا كانت دعوة العرب المسلمين لهذه المتطلبات.

---

(١) الرسالة المفصلة في آداب المعلمين ٣١٠.
(٢) المصدر السابق ٢٤٩.
(٣) نفسه ٢٥٢. وناقة جدعاء: قطع سدس أذنها او ربعها.

هـذا عمـر بن الخطـاب رضي الله عنـه، يقف على رأس المسلمين في خـلافتـه، وتتسع الفتوحات في عهده، وتحتاج الدولة إلى مزيد من الفرسان المجاهدين الفاتحين الأشداء، الذين يدخلون بلاداً لأول مرة، وبيئات ليس لهم بهـا سـابق عهـد، هـذا عمر، وهذه طبيعة عهده، ويـود أن ينصـح الآبـاء في تـربيـة أبنـائهم، فبـماذا تـراه ينصحهم؟ لا شك في أنه سيلح إلحاحاً على ما هو بحاجة إليه، أو قل، ما المسلمون بحاجة إليه في تلك المرحلة. إنهم بحاجة إلى أمر جديد طـرأ عليهم، وهـو ركـوب البحر بعد أن كانوا يعيشون في الصحراء، يـركبـون الخيـل والإبـل. أمـا الآن فقـد اتسعت الدولة، وأصبحوا تعترضهم الأنهار والبحار، إذن هـم بحاجة إلى السباحة. وهم بحاجة إلى حسن التسديـد لقنص العـدو قبـل أن يقنصهم، وهم بحـاجـة إلى التدريب والمران على ركوب الخيل، وسرعة الوثوب عليها إذا ما أحدق الخطـر، أو فـوجىء الفـارس بـه. وهم بحـاجـة بعـد ذلك، إلى التعـرف على سيرة آبـائهم وأجدادهم، وعاداتهم، وتقاليدهم، ولا توجد هذه السيرة آنئذ إلا في الشعر، الذي قـالـوا عنه، إنـه ديـوان العـرب. وبهـذه المتطلبـات أوصى العـرب عنـد تعليمهم لأبنائهم، قال (علموا أولادكم العوم والرماية، ومروهم فليثبـوا على الخيـل وثبـاً، ورووهم ما يجمل من الشعر(١).

ومن الذين عرفوا أهمية السباحة، ويبدو أنه لاقى الصعاب جراء عدم معرفته بها الحجاج بن يوسف الثقفي، الذي كان والياً على العـراق، وكـان يتنقـل بين البصرة والكوفة حيث دجلة والفـرات، وشـط العـرب. فـدعـا معلم ولـده إلى أن يعلمـه السباحة قبل الكتابة.(٢) إنه أمر مهم، ولا بد من معرفته، بل إنـه العقـل المتفتـح الذي يساير ظروف الحيـاة والعصر والبيئـة، ويـدعـو إلى مـواكبتـه والتعـامـل معـه بالتعرف عليه.

ومثل السباحة وتعلمها، كان الحساب، في الحياة الجديدة، وكان انتباه العربي إليه

(١) الكامل ١: ١٨٥.
(٢) البيان والتبيين ٢: ٩٢.

بنظرته الثاقبة، وإدراكه السريع لأهميته، فجاءت دعوتهم إلى تعلمه مع السباحة. قال ابن التوأم (علم ابنك الحساب قبل الكتاب، فإن الحساب أكسب من الكتاب، ومؤونة تعلمه أيسر ووجوه منافعه أكثر، وفي ما يجب على الآباء من حفظ الأبناء، أن يعلمه الكتاب، والحساب، والسباحة(١). أرأيت السبب في هذه الدعوة، إنه الكسب، والعرب، وقريش خاصة، يتعاطون التجارة، ويفرقون بين الربح والخسارة. والحساب من العلوم الجديدة المهمة المسهلة المساعدة على الجمع والطرح، على عقد الصفقات التجارية، وحساب قيمتها وأرباحها بسهولة ويسر، فكان أن دعا ابن التوأم العرب إلى تعلم الحساب بجانب السباحة والكتابة.

وإذا انتقلنا من هذه الدعوات في تعليم الأبناء وتربيتهم لما طرأ عليهم وعلى بيئتهم من أمور، إلى نظام التربية العام الذي تمثل في تعليم المربين، وتوجيه الآباء لهم، نلحظ أن القيم السائدة تكاد تكون متقاربة، مع اختلاف بسيط بين أب وأب، ومرب وآخر.

نقلت لنا كتب الأدب أقوال الحكماء في هذا الباب، وكان فيها شيء من الفلسفة التي تغري الأب بتربية ولده تربية قويمة، ليحقق من ورائها نتائج مرضية. فيها سرور له، وغم لحاسده. فقالوا (من أدب ولده صغيراً، سُرَّ به كبيراً) وقالوا من أدب ولده غم حاسده(٢).

إنها أقوال حكماء، من سماتها الإيجاز في اللفظ، والعمق في المعنى، وهذا ما كان يحبذه نقاد العرب ومفكروهم.

والشعر كان ضرورياً في التربية والتعليم. وكان الآباء يحرصون على أن لا يعرف أبناؤهم إلا أحسنه، لفظاً ومعنى، بل إنهم كانوا يأتون بنماذج من هذا الشعر

(١) المصدر السابق ٢: ٩٢.
(٢) العقد الفريد ٢: ٤٣٥.

لمعلمي أبنائهم، كما فعل عبدالملك بن مروان مع مؤدب ولده، حين قال له. (إذا رويتهم شعراً، فلا تروهم إلا مثل قول العجير السلولي:

يبينُ الجـارُ حين يبينُ عنّي
ولم تـأنسْ إليَّ كـلابُ جـاري
وتظعَنُ جـارَتي من جَنْب بيتي
ولم تُستَرْ بسترٍ من جـداري
وتـأمنُ أن أطـالـعَ حين آتي
عليهـا وهي واضعـةُ الخِمارِ
كـذلك هـدْيُ آبـائي قـديماً
تـوارثَهُ النِّجـارُ عن النِّجـار
فهـديي هـدْيهُم وقـد أفتلـوني
كـما افتلي العتيقُ من المِهـارِ)(١)

إنها مثل الإباء والعفة وكرم الأخلاق والاعتزاز بكرم المحتد وشرفه، هذا ما تضمنته الأبيات، وهو ما أراده عبدالملك، ومن الشعر الذي سيتعلمه أولاده.

وهشام بن عبدالملك، يود أن يعلم ولده، فيحضر له سليمان الكلبي، ويرسم له المنهج الذي يريده أن يسير المعلم عليه، فبعد أن يبين له منزلته من نفسه، ومكانته عنده يحثه على تقوى الله وتأدية الأمانة. يدعوه إلى أن يبدأ معه بكتاب الله، سبحانه وتعالى، ويثني بأحسن الشعر عند العرب، وهو ما حفظه وتربى عليه من أبيه، ويثلث ببيوت العرب وقبائلهم وعشائرهم وأخبارهم وأيامهم، وأخيراً يدعوه إلى

(١) الاغاني ١٣. ٧١، ٧٢. وافتلوني: يقال فلا الصبي والمهر فلوا وأفلاه عزله عن الرضاع وفصله. وافتليته: فطمته. أي فطموني عن جهل الصبا وعقلت. والعتيق: الفرس الرائع الكريم. والمهار، بكسر الميم: جمع مهر، وهو ولد الفرس.

التفقه بالدين بتوضيح الحلال والحرام، انظره يخاطبه قائلاً (إن ابني هذا، هو جلدة ما بين عيني، وقد وليتك تأديبه، فعليك بتقوى الله، وأد الأمانة. وأول ما أوصيك به، أن تأخذه بكتاب الله. ثم روه من الشعر أحسنه. ثم تخلل به في إحياء العرب فخذ من صالح شعرهم، وبصره بطرف من الحلال والحرام والخطب والمغازي)(١).

لقد أراد هشام بن عبدالملك بطلبه هذا، أن يؤهل ابنه للقيادة من بعده، مثلما أعده أبوه وأهله لها من قبل، ولا تكون هذه القيادة إلا لمن توفرت له، هذه الخصال التي أرادها لولده. تعريف بكتاب الله. وحفظ للشعر. ومعرفة بقبائل العرب، ودراية بأيامها ومغازيها، وتمييز بين الحلال والحرام.

والخليفة الورع عمر بن عبدالعزيز يفتن بابنه، وتغلبه عاطفة الأبوة، ويشعر بهذا، وهو الرجل المؤمن العادل، الذي اشترى الآخرة بالحياة الدنيا، ولا يمكن أن يوافق هواه في ولده، فينحرف عن سواء الطريق، وما كان منه إلا أن دعا معلماً له لاختباره، وكأنه تولى تربيته بنفسه، قال له «إن ابني عبدالملك قد زين في عيني، وأنا متهم لنفسي فيه، وأخاف أن يكون هواي فيه قد غلب على علمي به، وأدركني ما يدرك الوالد من الإشفاق على ولده. فأته واسبره، ثم ائتني بعمله، ثم انظر هل ترى منه ما يشاكل النخوة، فإنه غلام حدث، لا آمن عليه الشيطان)(٢). هكذا يكون الآباء، وهكذا تكون التربية الحقة. إن الأب ربى ابنه وعلمه، وتعلق بابنه، فأراد أن يعرف مداه، وهل هو كما يريد وكما أراد أم أن الشيطان أطغاه. فما له إلا الامتحان، والامتحان من قبل معلم محايد. ولا أشك في أن ابن عمر نجح في امتحانه، مثلما نجح أبوه في حياته وخلافته فكان مثلاً يحتذى، في العدل والسيرة

---

(١) محاضرات الادباء ١: ٢٩.
(٢) المحاسن والمساوىء ٣٥٢.

الحسنة حتى عدّ امتداداً للخلفاء الراشدين.

وتسير سيرة الرجال في تعليم أولادهم، وتوجيههم لمعلميهم، في الإطار ذاته الذي تحدثنا عنه. كتاب الله، وسنة رسوله، وأجمل الشعر وأحسنه. والأخلاق الفاضلة والدفاع عن الحمى والعرض.

وهذا عمرو بن عتبة يدعو معلم ولده، إلى أن يكون مثلاً أعلى، وقدوة حسنة في نظر أبنائه، لأنه ينشأ وهو مقلد له، في السلوك، يستحسن ما يستحسن، ويستهجن ما يستهجن. وبعد أن يعطيه الملاحظة يرسم له منهجاً في التعليم، يقترب من المناهج الحديثة في الترتيب والتنظيم.

لقد كانت مناهجهم في التأليف والكتابة والحديث فيها الشمول والاستطراد، والانتقال من موضوع إلى آخر، حتى أن الموضوع الرئيسي يكاد يضيع بين المواضيع المتزاحمة التي يصبها الكاتب أو المتكلم، أو حتى الشاعر، وما تعدد الأغراض في القصيدة العربية إلا خير شاهد على ذلك. أقول: كانوا يعنون بالاستطراد، والإنسان العالم عندهم، هو الذي يأخذ من كل علم بطرف. هكذا كانوا يعيشون ويفكرون حتى وقت متأخر من تاريخهم. وقد أدرك عمرو بن عتبة هذه الحقيقة، أو قل، هذه الآفة في التفكير، والمنهج، وأراد أن يتخلص منها أبناؤه من خلال معلمهم. فدعا إلى عدم إكراههم على الحفظ من كتاب الله، فيملوه، وفي الوقت نفسه، أمره ألا ينقطع العهد بينهم وبينه فيهجروه. كما حثه على عدم الاستطراد والانتقال من موضوع لآخر، إلا بعد أن ينتهي الكلام منه، والإتيان عليه، لأن (إزدحام الكلام في القلب، مشغلة للفهم). إنه منهج قويم، نهجه عمرو بن عتبة، يختلف في كثير من جوانبه عن المناهج السائدة في عصره. قال (ليكن أول إصلاحك

لولدي إصلاحك لنفسك، فإن عيونهم معقودة بعينك. فالحسن عندهم ما صنعت والقبيح عندهم ما تركت. علمهم كتاب الله، ولا تكرههم عليه فيملوه ولا تتركهم منه فيهجروه. روهم من الحديث أشرفه، ومن الشعر أعفه. ولا تنقلهم من علم إلى علم حتى يحكموه، فإن ازدحام الكلام في القلب، مشغلة للفهم. وعلمهم سنن الحكماء، وجنبهم محادثة النساء، ولا تتكل على عذر مني لك، فقد اتكلت على كفاية منك(١).

أما شريح فيرسم النهج ذاته، لكنه ينظمه شعراً، ويتمثل في تعليم الصلاة، والقراءة والكتابة، لابنه، وهو في الوقت الذي يألم لترك ابنه الصلاة، وغضبه من ذلك ودعوته معلمه إلى أن يضربه بدرة، وتأنيبه باللوم، في الوقت الذي يدعوه لهذا، فإنه لا يستطيع أن يحبس عاطفته وحبه لابنه وهو (أعز الأنفس) فيطلب أن لا يزيد الضرب عن ثلاث. خشية أن يبكي ويتألم، انظره يقول:

تَرَكَ الصلاةَ لأكْلُبٍ يسعَى بها
يبغي الهِراشَ مع الغُواةِ الرُّجَّسِ
فليأتينكَ غدوة بصحيفة
كتبت له كصحيفة المتَلمسِ
فَإذا أتاكَ فعضهُ بملامَة
وعظتهُ موعظةَ الأديبَ الكيِّس
فَإذا همَمْتَ بضربه فبِدُرَّة
وإذا بلغتَ بها ثَلاثاً فَاحبسِ

(١) البيان والتبيين ٢: ٣٥.

واعلم بـأنّك مـا أتيـتَ فنفسهُ
مـع مـا تجـرّعُني، أعـزُّ الأنـفسِ(١).

ومما يثلج صدر الأب، ويجعله ينام قرير العين، هـانيء البـال، مطمئن النفس، تأكده من تربية أبنائه، وأنهم أصبحوا كما أراد لهم. خـاصـة إذا تقـدمت بـه السن، وأوشك على مفارقة الحياة الدنيا. نقل إلينا صاحب الأمالي خبراً طويلاً، أثبته بنصه تحدث فيه عن رجل (من مقاول حمير، كان له ابنان، يقال لأحدهما عمرو وللآخـر ربيعة. وكانا قد برعا في الأدب والعلم، فلما بلغ الشيخ أقصى عمـره، وأشفى على الفناء، دعاهما ليبلو عقولهما، ويعرف مبلغ علمهما. فلما حضرا قال لعمـرو، وكـان الأكبر: أخبرني عن أحب الرجال إليك، وأكـرمهم عليك. قـال: السيـد الجـواد. القليل الانبراد. الماجد الأجداد. الراسي الأوتاد. الرفيـع العـماد. العظيم الـرمـاد. الكثير الحساد. الباسـل الذواد. الصادر الوراد. قال: ومن يكون بعـد هـذا؟ قـال: السيف الكريم. المانع للحريم. المفضال الحليم. القمقام الـزعيم(٢). الذي إن هم فعل وإن سئل بذل.

قال: أخبرني يا عمرو بأبغض الرجال إليك. قـال: البرم اللئيم. المستخـذى(٣) للخصيم. المبطان النهيم. العيي البكيم. الذي إن سئل منع. وإن هدد خضع. وإن طلب جشع. قال: ما تقول يا ربيعة؟ قال: غيره أبغض إليَّ. قال: من هو؟ قـال: النؤوم الكذوب. الفاحش الغضوب. الرغيب عن الطعام. الجبان عند الصدام.

---

(١)(٢) العقد الفريد ٢: ٤٣٥.
والهراش: الخصام والقتال، وغلب على الكلاب والحيوانات.
والكيِّس: الحسن الفهم والأدب.
وصحيفة المتلمس: تضرب مثلا لمن يحمل كتابا فيه حتفه، وقصة المتلمس مع عمرو بن المنذر مشهورة معروفة.
(٢) القمقام: العظيم.
(٣) استخذى: اتضع وانقاد.

قال: أخبرني يا عمرو. أي النساء أحب إليك؟ قال: الهركولة اللفاء(١). الممكورة الجيداء(٢). التي يشفى السقيم كلامها. ويبرى الوصب إلمامها التي إن أحسنت إليها شكرت. وإن أسأت إليها صبرت. وإن استعتبتها أعتبت. الفاترة الطرف. الطفلة الكف(٣). العميمة الردف(٤). قال: ما تقول يا ربيعة؟ قال: نعت فأحسن وغيرها أحب إلى منها. قال: ومن هي؟ قال: الفتانة العينين. الأسيلة الخدين. الكاعب الثديين. الرداح الوركين(٥) الشاكرة للقليل. المساعدة للحليل. الرخيمة الكلام. الجماء العظام(٦). الكريمة الأخوال والأعمام. العذبة اللثام.

قال: فأي النساء أبغض إليك يا عمرو؟ قال: القتاتة الكذوب(٧). الظاهرة العيوب. الطوافة الهبوب. العابسة القطوب. السبابة الوثوب. التي إن ائتمنها زوجها خانته. وإلا لان لها أهانته. وإن أرضاها أغضبته. وإن أطاعها عصته. قال ما تقول يا ربيعة؟ قال: بئس والله المرأة ذكر. وغيرها أبغض إليّ منها. قال وأيتهن التي هي أبغض إليك من هذه؟ قال: السليطة اللسان. المؤذية للجيران. الناطقة بالبهتان. التي وجهها عابس. وزوجها من خيرها آيس. وغيرها أبغض إلي منها. قال: ومن هي؟ قال: التي شقي صاحبها. وخزي خاطبها. وافتضح أقاربها. قال: ومن صاحبها؟ قال: مثلها في خصالها كلها. لا تصلح إلا له، ولا يصلح إلا لها. قال: فصفه لي؟ قال: الكفور غير الشكور. اللئيم الفجور. العبوس الكالح.

---

(١) الهركولة اللفاء: الحسنة الجسم والخلق والمشية.
(٢) الممكورة الجيداء: ذات السيقان الطويلة الفارعة.
(٣) طفلة الكف: ناعمته.
(٤) العميمة الردف: تامته وعظيمته.
(٥) رداح الوركين: ضخمتهما.
(٦) جماء العظام: كثيرة اللحم.
(٧) القتاتة: النمامة.

الحرون الجامح. الراضي بالهوان. المختال المنان. الضعيف الجنان. الجعد البنان. القؤول غير العقول. الملول غير الوصول. الذي لا يرع عن المحارم. ولا يرتدع عن المظالم.

قال: أخبرني يا عمرو، أي الخيل أحب إليك عند الشدائد؟ إذا التقى الأقران للتجالد قال: الجواد الأنيق. الحصان العتيق. الكفيف العريق. الشديد الوثيق. الذي يفوت إذا هرب. ويلحق إذا طلب. قال: نعم الفرس والله نعت. قال: فما تقول يا ربيعة؟ قال: غيره أحب إليَّ منه. قال: وما هو؟ قال: الحصان الجواد. السلس القياد. الشهم الفؤاد. الصبور إذا سرى. السابق إذا جرى.

قال: فأي الخيل أبغض إليك يا عمرو؟ قال: الجموح الطموح. النكول الأنوح. الصؤول الضعيف. الملول العنيف. الذي إذا جاريته سبقته. وإن طلبته أدركته. قال: ما تقول يا ربيعة؟ قال: غيره أبغض إليَّ منه. قال: وما هو؟ قال: البطيء الثقيل. الحرون الكليل. الذي إن ضربته قمص. وإن دنوت منه شمس. يدركه الطالب. ويفوته الهارب. ويقطع بالصاحب. قال ربيعة: وغيره أبغض إليَّ منه. قال: وما هو؟ قال: الجموح الخبوط. الركوض الخروط(١). القطوف في الصعود والهبوط. الذي لا يسلم الصاحب. ولا ينجو من الطالب. قال: اخبرني يا عمرو، أي العيش ألذ إليك؟ قال: عيش في كرامة. ونعيم في سلامة. واغتباق مدامة. قال: ما تقول يا ربيعة؟ قال: نعم العيش والله وصف. وغيره أحب إليَّ منه. قال: وما هو؟ قال: عيش في أمن ونعيم. وعز وغنى عميم. في ظل نجاح. وسلامة مساء وصباح. وغيره أحب إليَّ منه. قال: وما هو؟ قال: غنى دائم

(١) الخروط: الجموح.

وعيش سالم. وظل ناعم.

قال: فما أحب السيوف إليك يا عمرو؟ قال: الصقيل الحسام. الباتر المجذام(١) الماضي السطام(٢). المرهف الصمصام. الذي إذا هززته لم يكب. وإن ضربت به لم ينب. قال: ما تقول يا ربيعة؟ قال: نعم السيف نعت. وغيره أحب إليّ. قال: وما هو؟ قال: الحسام القاطع. ذو الرونق اللامع. الظمآن الجائع. الذي إذا هززته هتك. وإذا ضربت به بتك.

قال: فما أبغض السيوف إليك يا عمرو؟ قال: الفطار الكهام(٣). الذي إن ضربت به لم يقطع. وإن ذبح به لم ينجع(٤) قال: فما تقول يا ربيعة؟ قال: بئس السيف والله ذكر. وغيره أبغض إليّ منه. قال: وما هو؟ قال: الطبع الددان(٥) المعضد المهان.

قال: فأخبرني يا عمرو أي الرماح أحب إليك عند المراس، إذا اعتكر الباس. واشتجر الدعاس(٦)؟ قال: أحبها إليّ المارن المثقف(٧). المقوم المخطف. الذي إذا هززته لم ينعطف. وإذا طعنت به لم ينقصف. قال: ما تقول يا ربيعة؟ قال: نعم الرمح نعت. وغيره أحب إليّ منه. قال: وما هو؟ قال: الذابل العسال. المقوم النسال. الماضي إذا هززته. النافذ إذا همزته.

قال: فأخبرني يا عمرو عن أبغض الرماح إليك؟ قال: الأعصل(٨) عند الطعان

(١) المجذام: سريع القطع.
(٢) السطام: حد السيف.
(٣) الفطار الكهام: الكليل الذي لا يقطع.
(٤) نجع بالشاة: بلغ بذبحها القفا.
(٥) الددان: الذي لا يقطع.
(٦) الدعاس: الطعن بالرمح.
(٧) المارن والمثقف: من اسماء الرمح الصلب.
(٨) اعصل الرمح: التوى في الرمي وابطأ.

المثلم السنان. الذي إذا هززته انعطف. وإذا طعنت به انقصف. قال: ما تقول يا ربيعة؟ قال: بئس الرمح ذكر. وغيره أبغض إليَّ منه. قال: وما هو؟ قال: الضعيف المهز. اليابس الكز الذي إذا أكرهته انحطم. وإذا طعنت به انقصم.

قال: انصرفا، الآن طاب لي الموت)(١).

وهل له إلا أن يهدأ ويستريح، وتطيب له الحياة، ويموت وهو راض. لأنه خلف ولدين خبرا الحياة، وجاءا على ما فيها من صالح وطالح، وجميل وقبيح، حسن ورديء، وهل لهما أن يكونا كذلك؟ لولا تنشئة ذلك الشيخ الطاعن الذي قضى عمره وهو يرعاهما ويربيهما تلك التربية التي آتت أكلها، وأية تربية تلك؟ إنها التربية الجامعة المانعة كما يقول الفقهاء، التي تناولت أمور الحياة من كافة نواحيها. من حيث الخبرة بالرجال والتعامل معهم، ولا يكون ذلك إلا بمعرفة صفات الأبي الكريم، وصفات اللئيم الخنوع. ومن حيث معرفة المرأة، وهي شريكة الحياة، وصفاتها الحسنة والرديئة. ثم من حيث التعرف على الرجولة والبطولة ووسائلها، من سيف ورمح وحصان، إنه اختبار للابنين رائع، بل قل، إنها مناظرة رائعة، كانت بين هذين الولدين أمام أبيهما، وإذا بهما فرسا رهان، يسيران جنباً إلى جنب، لم يستطع أحدهما أن يبز الآخر، وهما مارقان كالسهم في تلك الخبرة العميقة، والمعلومات الغنية، والقيم الرفيعة السامية التي يؤمن بها كل منهما. وهل لنا أن نطالب الآباء بأكثر من هذا في وقتنا الحاضر، في تربية أبنائهم، مع مراعاة الفارق في متطلبات الحياة وظروفها، وهل يمكن أن نتوخى نتائج أروع وأعظم من هذه التي بين أيدينا؟ ليتنا نطالبهم بهذا لنجني نتائج كهذه. وكم وددت أن أوجز الخبر، إلا أنني وجدت فيه فائدة، آمل أن يلقاها القارىء فيه ليشاركني ضرورة إثباته.

(١) الامالي ١: ١٥٢ ـ ١٥٤.

وبعد، فإن المناهج التي تعرضت لها عند العرب في هـذه الفترة على مـا فيهـا من بساطة إلا أنها كشفت لنا عن إعـدادهم لأبنـائهم في التعليم والتربيـة. ووصـايـاهم للمعلمين بتلك التي يرسمونها. وإننا سنراها أكثر جلاء في وصاياهم للأبناء أنفسهم بعد أن يشبوا ويصبحوا في معترك الحياة. وهذا ما سنعالجـه فيـما يلي من سطـور إن شاء الله.

ـ ٢ ـ

الوصايا

مر بنا أسلوب التربية والإعداد والتعليم للأبناء، عند آبائهم، وعند المعلمين الذين كانوا ينتدبون لهذه الغاية. مع رسم للأسلوب والمنهج الذي يجب أن يسيروا عليه. ومر بنا ـ كذلك ـ ما كان يريده أولياء الأمور في التربية، بما ينسجم مع متطلبات الحياة، وظروف العصر. وتكون هذه المرحلة في السنين الأولى للطفل. وقبل أن يشب ويبفع، ويكون لديه القدرة على إبداء الرأي، والأخذ بالفكرة أو تركها. ولهذا فيمكننا أن نعتبر تلك المرحلة هي مرحلة (التعليم الإلزامي) التي يتمثل فيها إلزام الطفل بما يريده الأب. وإعطائه الفكرة والمنهج الذي يرسمه الأب. ألم يمر بنا أن بعض الآباء طلبوا من معلمي أبنائهم ضربهم؟. نعم كانوا يطلبون هذا. وكانوا يقومون به. لأنهم فيما أرى قادرون عليه. ولأن سن الطفل ما زالت لا تساعده عل التمرد والرفض لهذا الضرب. وقد بين رسولنا الكريم ـ عليه السلام ـ هذا حين دعا الآباء إلى تعليم أبنائهم في السابعة، وضربهم في العاشرة، ومصاحبتهم في الخامسة عشرة. إنه تقسيم المربي الخبير العالم بخفايا النفس ومراحلها وأبعاد كل مرحلة منها. نضربهم في العاشرة نعم. أما في الخامسة عشرة فلا، بل المصاحبة. لأن الفتى يكون عوده قد اشتد كما يقولون. وطموحه بدأ يظهر ورغبته في أن يكون رجلا ذا رأي مسموع، ومكانة مرموقة. إلى هذا يتطلع فكيف بنا

ونحن نضربه لنقومه ونعلمه. أظن هذا ما لا طائل لنا به.

وانطلاقاً من إدراك العربي لما سبق. كانت أساليبه في التربية تتلاءم وهذه السن فسلك أسلوب الوصية التي يمكن للمرء أن يأخذ بها أو يرفضها. وأكاد أقطع في أنهم حددوا سن الخامسة عشرة فاصلا بين مرحلتي الصبا والطفولة، ومرحلة الإدراك والوعي والاستقلال بالرأي. أقطع بهذا لما نص عليه الرسول الكريم. ونص عليه عمرو بن عتبة حين قال (لما بلغت خمس عشرة سنة، قال لي أبي. يا بني، قد قطعت عنك شرائع الصبا، فالزم الحياء تكن من أهله. ولا تزايله فتتبين منه. ولا يغرنك من اغتر فيك فمدحك بما تعلم خلافه من نفسك، فإنه من قال فيك ما لم تعلم، إذا رضي، قال فيك من الشر مثله إذا سخط. فاستأنس بالوحدة من جلساء السوء تسلم من غب عواقبهم(١).

إذن فالوصايا كانت المجال الثاني من مجالات التربية. وقد أثرت وصايا كثيرة للأبناء من قبل آبائهم. ويقف في مقدمتها، وصايا لقمان الحكيم لأبنائه التي رددتها الأجيال واعتزت بها، لورود ذكره في القرآن الكريم، وحثه لأبنائه على الإيمان والتقوى، في كتاب الله. وقد شاعت الوصايا على السنة الحكماء، بدون تحديد لعصرهم أو أسمائهم، الأمر الذي يجعلني أرجح أنها قيلت في العصر الجاهلي، أو العصر الإسلامي، لأنها تنسجم مع وصايا لقمان، وورود جزء منها في القرآن الكريم.

فمما أوصى به لقمان ابنه قوله له (أي بني، إني قد ندمت على الكلام ولم أندم على السكوت)(٢). وقال له (إذا رأيت مجلس قوم فارمهم بسهم السلام، ثم

(١) العقد الفريد ٣: ١٥٤

(٢) البيان والتبيين ١: ٢٦٩.

اجلس، فان أفاضوا في ذكر الله فأجل سهمك مع سهامهم، وإن أفاضوا في غير ذلك فتخل عنهم وانهض. وقال يا بني، استعذ بالله وكن من خيارهم على حذر. وقال: لا تركن إلى الدنيا، ولا تشغل قلبك بها، فإنك لم تخلق لها، وما خلق الله خلقاً أهون عليه منها، فإنه لم يجعل نعيمها ثوابا للمطيعين، ولا بلاءها عقوبة للعاصين. يا بني، لا تضحك من غير عجب، ولا تش من غير أرب، ولا تسأل عما لا يعنيك. يا بني، لا تضع مالك، وتصلح مال غيرك، فإن مالك ما قدمت، ومال غيرك ما تركت. يا بني إنه من يرحم يرحم، ومن يصمت يسلم، ومن يقل الخير يغنم، ومن يقل الباطل يأثم، ومن لا يملك لسانه يندم. يا بني زاحم العلماء بركبتيك، وانصت اليهم بأذنيك، فإن القلب يحيا بنور العلماء، كما تحيا الأرض الميتة بمطر السماء)(١).

هذه وصايا لقمان الحكيم لابنه، فيها حث على التقوى والصلاح، وعدم التمسك بالحياة الدنيا، إلا بالقدر الذي يخدمه ويساعده للنعيم في الآخرة. فعليه أن لا يشغل قلبه بالدنيا، ولا يركن لها لأنه (لم يخلق لها). كما قرر لقمان في وصيته لابنه في أن يكون سكوته أكثر من كلامه، وينقل إليه تجربة شخصية مر بها، ذلك أنه ندم على الكلام وما ندم على السكوت. وإن كان لا بد له من الكلام، فلا بد أن يكون في الخير ليغنم وإن كان في الباطل سيأثم. وما أروع لقمان في وصيته الأخيرة، حين دعا ابنه إلى الإنصات لأقوال العلماء، وما أجمل التشبيه الذي جاء به ليدلل على حياة القلب بنور العلماء (كما تحيا الأرض الميتة بمطر السماء).

وكثرت وصايا الحكماء لأبنائهم بعد لقمان، وكأنها لحكيم واحد هو لقمان، أو حكيم آخر قالها ونسبها إلى لقمان وغيره. لأنها واحدة نصاً وروحاً. وهي ـ على أية

(١) العقد الفريد ٣: ١٥٢.

حال ـ سواء كانت لواحد أو لأكثر، وسواء كانت للقمان أو لسواه، فإنها تبنىء بمشاعر القوم وأحاسيسهم ومناهجهم ـ آنذاك ـ في وصاياهم لأبنائهم.

قال حكيم لابنه (يا بني، إن أشد الناس حسرة يوم القيامة، رجل كسب مالاً من غير حلة فأدخله النار، وأورثه من عمل فيه بطاعة الله فأدخله الجنة). وقال بعضهم (يا بني، إقبل وصيتي وعهدي، إن سرعة ائتلاف قلوب الأبرار، كسرعة اختلاط قطر المطر بماء الأنهار. وبعد قلوب الفجار من الائتلاف، كبعد البهائم من التعاطف، وإن طال ائتلافها على آري واحد. كن يا بني، بصالح الوزراء أغنى منك بكثرة عدتهم، فإن اللؤلؤة خفيف محملها، كثير ثمنها، والحجر فادح حمله قليل غناه..

وقال ثالث (يا بني، إني موصيك بوصية، فإن لم تحفظ وصيتي عني، لم تحفظها عن غيري إتق الله ما استطعت، وان قدرت أن تكون اليوم خيراً منك أمس، وغدا خير منك اليوم فافعل. وإياك والطمع، فإنه فقر حاضر، وعليك باليأس، فإنك لن تيأس من شيء قط إلا أغناك الله عنه. وإياك وما يعتذر منه، فإنك لن تعتذر من خير أبداً. وإذا عثر عاثر فاحمد الله أن لا تكون هو. يا بني، خذ الخير من أهله، ودع الشر لأهله، وإذا قمت إلى صلاتك فصل صلاة مودع، وأنت ترى أن لا تصلي بعدها أبداً)(١).

وقال رابع (يا بني، إياكم والجزع عند المصائب، فإنه مجلبة للهم وسوء الظن بالرب، وشماتة للعدو. وإياكم أن تكونوا بالأحداث مغترين، ولها آمنين، فإني والله ما سخرت من شيء إلا أنزل بي مثله، فاحذروها وتوقعوها، فإنما الإنسان غرض تتعاوره السهام فمجاوز له، ومقصر عن يمينه وشماله، حتى يصيبه بعضها.

(١) الامالي ١: ٢٣١.

واعلموا أن لكل شيء جزاء ولكل عمل ثواباً.

وقد قالوا: كما تدين تدان، ومن بر يوما بر به. وقال الشاعر:

إذا ما الدهرُ جرَّ على أناس
حوادثهُ أناخَ بآخرينا
فقل للشّامتينَ بنا أفيقوا
سيلقي الشامتون كما لقينا(١).

وهذا حكيم آخر يقول لابنه، (يا بني إن رأيك إذا احتجت إليه وجدته نائما، ووجدت هواك يقظان، فإياك أن تستبد برأيك، فإنه حينئذ هواك)(٢).

وقال أعرابي لابنه، يا بني أنه قد أسمعك الداعي، وأعذر إليك الطالب، وانتهى الأمر فيك إلى حده، ولا أعرف أعظم رزية ممن ضيع اليقين، وأخطأه الأمل(٣).

إنها ذات الوصايا، التي لحظناها عند لقمان، إن لم تشبهها، فهي تسير على نهجها، ويكمل بعضها بعضاً، وفيها تعميم في السلوك، حتى إذا ما انتقلنا إلى صنف آخر من الوصايا، نلمس فيها تخصيصا، وحديثا عن جوانب، فيه تركيز واستيفاء لم نجد تعرضا له عند هؤلاء الحكماء الذين هاموا في الله ـ سبحانه وتعالى ـ وحثوا على العمل لرضاه ليغنم الإنسان في الدارين الأولى والآخرة. أما النوع الثاني فقد حث على ما في الحياة الدنيا، التي توصل في النتيجة إلى ما فيه سعادة في الدنيا والآخرة، ونجد نماذج لهذا النوع من الآباء، ونماذج لوصاياهم تختلف عن بعضها.

(١) العقد اللفريد ٣: ١٥٣.
(٢) نهاية الارب ٦: ٧٠.
(٣) العقد الفريد ٣: ١٥٣.

فقد أدرك العرب أهمية المرأة، ودورها في بيت زوجها وتربية النشء. فكانوا يبحثون عن شريكة حياتهم، ويحددون مواصفات معينة يجب أن تتوفر فيها، لتكمل السعادة، وتنجب النجباء من الأبناء. وبين أيدينا وصية لأب قالها لابنه في هذه الزوجة، وفي مواصفاتها قال (يا بني، لا تتخذها حنانة، ولا أنانة، ولا منانة، ولا عشبة الدار، ولا كبة القفا)(١). فهو ينهاه عن خمس خصال فيها حط من قدر المرأة، أو فيها إهانة للرجل، أو فيها معاناة معها. وتكاد تكون هذه الخصال باقية حتى يومنا هذا، أو بعضها على أقل تقدير.

وعمرو بن كلثوم، الشاعر الجاهلي المعروف، كان من المعمرين، إذ قيل أن عمره بلغ خمسين ومائة عام. ولا شك في أن هذه السن أكسبته خبرة ودربة في أمور الحياة، تجعله يكون بصيرا بها، خاصة وهو الرجل المغامر، المعتز بنفسه وقبيلته، الذي رفض الضيم، وتحدى الملك عمرو بن هند وعرض به حينما أراد أن ينال أمه بالأذى والهوان، فقال معلقته المشهورة ومنها بيته الذي ما زال يتردد على الألسنة:

إذا بلغ الفطام لنا صبي
تخر له الجبابر صاغرينا

شاعرنا هذا جمع بنيه، عندما حضرته الوفاة، وأراد أن يوصيهم بخلاصة تجاربه في هذه الرحلة الطويلة مع الحياة، وإذا بها سبع عنده، أولها أن يكف أبناؤه عن تعيير الآخرين، وذلك أنه وجد نفسه لم يعير أحداً بشيء إلا عير به. حقاً كان أم باطلاً. وثانيها الإحسان إلى الجار. وثالثها منع ضيم الغريب. ورابعها حسن الاستماع للآخرين والإيجاز في الكلام معهم. وخامسها الشجاعة والاقدام.

---

(١) الامالي ٢: ٢٥٦. والحنانة: التي لها ولد من سواه فتحن له. والانانة: التي مات زوجها. والمنامة: ذات مال. وعشبة الدار: التي نبتت من الدمن. وكبة القفا: التي يأتي زوجها او ابنها القوم، فاذا انصرف من عندهم قال رجل من جبناء القوم، قد والله كان بيني وبين امرأة هذا المولى أو أمه أمر.

وسادسها التروي عند الغضب. وسابعها الزواج من خارج حيهم. انظره يخاطبهم بقوله (يا بني، قد بلغت من العمر ما لم يبلغه أحد من آبائي ولا بد أن ينـزل بي مـا نزل بهم من الموت. وإني والله. ما عيرت أحداً بشيء إلا عيرت بمثله، إن كان حقا فحقا، وإن كان باطلاً فباطلاً، ومن سب سب، فكفوا عن الشتم، فإنه أسلم لكم. وأحسنوا جواركم يحسن ثناؤكم. وامنعوا من ضيم الغريب، فرب رجل خير من ألف، ورد خير من خلف، وإذا حدثتم فعوا، وإذا حدثتم فأوجزوا، فإن مع الإكثار تكون الأهذار. وأشجع القوم العطوف بعد الكر، كما أن أكرم المنايا القتل. ولا خير فيمن لا روية له عند الغضب، ولا من عوتب لم يعتب. ومن الناس من لا يرجى خيره، ولا يخاف شره. فبكؤه خير من دره. وعقوقه خير من بره، ولا تتزوجوا في حيكم فإنه يؤدي إلى قبيح البغض)(١).

وكان ذو الإصبع العدواني رأس قومه وزعيمهم، وعاش حتى سئم العيش ـ على حد تعبيره ـ وأراد أن يخلفه ابنه أسيد في السيادة والزعامة ورآه لا يكون كذلك إلا إذا حفظ وصيته التي بها ساد في قومه، وأصبح مصان الجانب مرموق المكانة. فدعاه وقال له (يا بني، إن أباك قد فني وهو حي، وعاش حتى سئم العيش، وإني موصيك بما أن حفظته بلغت في قومك ما بلغته. فاحفظ عني. ألن جانبك لقومك يحبوك، وتواضع لهم يرفعوك، وابسط لهم وجهك يطيعوك، ولا تستأثر عليهم بشيء يسودوك وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم، يكرمك كبارهم، ويكبر على مودتك صغارهم. واسمح بمالك، واحم حريمك، وأعزز جارك، وأعن من استعان بك، وأكرم ضيفك، وأسرع النهضة في الصريخ، فإن لك أجلا لا يعدوك، وصن وجهك عن مسألة أحد شيئاً، فبذلك يتم سؤددك. ثم أنشد يقول:

---

(١) الاغاني ١١: ٥٣، ٥٤، والاعتاب: رجوع المعتوب عليه الى ما يرضي العاتب. واصل البُكْءُ: قلة اللبن وانقطاعه، والمعنى المراد، فمنعه خير من عطائه.

أَأَسِيدُ إن مالاً ملكتَ
فسِرْ به سيراً جميلاً
آخِ الكرامَ إن استطعتَ
إلى إخائهم سَبيلا
واشربْ بكأسهمُ وإن
شربوا به السم الثميلا(١)
أهِن اللئامِ ولا تكنْ
لإخائهم جملا ذلولا
إن الكرامَ إذا توا
خيهم وجدتَ لهم فُضولا
ودعِ الذي يعددُ العشيـ
رة أن يسيل ولن يسيلا
أبنيَّ إنَّ المال لا
يبكي إذا فقد البخيلا
أأسيدُ إن أزمعتَ من
بلد إلى بلد رحيلا
فاحفظْ وإن شحطَ المزا
رُ أخا أخيك أو الزميلا
واركبْ بنفسكَ إن همـ
ت بها الحزونة(٢) والسُّهولا

(١) السُّم الثميل: المنقع الذي أنقع اياما حتى اختمر.
(٢) الحزونة: غلاظة الأرض.

وصـــــلِ الـــكـــــرامَ وكـــــنْ لمــــنْ

تـــــــرجـــــــو مودَّتَه وصُولا

ودع الــــتـــــــواني في الأمـــــــو

ر وكـــنِ لهـــا سـلـســـاً ذلـــولا

وأبســـطْ يمينــــكَ بالنـــــدى

وامـــدُدْ لهـــا بـــاعــاً طـــويـــلا

وابســطْ يــديْكَ بـــما ملكـ

تَ وشـــيـــد الحَسَبَ الـــدَّخـــيـــلا

وابـــذلْ لـــضـــيـــفَـــك ذات رحـــــْ

لـــكَ مـكــــرمـــاً حـتـــى يـــزولا

واحـــلـــلْ عـــلى الأيـــفـــاع لـــلـعـــــــ

افـــين واجـــتـــنـــبْ المـــســـيـــلا

وإذا الـــقـــــرومُ تخـــــاطـــــرت

يـــومـــاً وأرعـــدت الخـــصـــيـــلا

فـــاهْصرْ كـــهصرِ الـــلـــيـــث خـــضـــّ

بَ مـــن فـــريـــســـتـــه الـــتَّـلـــيـــلا

وانــــــزلْ إلي الهــــيـــجـــــا إذا

أبـــطـــالهـــــا كـــــرهـــــوا الـــنـــــزولا

وإذا دعـــــيـــــتَ إلى المُهـــــــــ

مٌ فـــكـــن لـــفـــادحـــه حمـــولا(١).

(١) المصدر السابق: ٣ : ٩٨، ٩٩، والقروم: السادة العظام. والخصيل: مفردها الخصيلة: كل لحمة فيها عصب. والتليل: المصروع.

إنها روح دعوة عمرو بن كلثوم، يضاف إليها دعوة ذي الإصبع العدواني لابنه، إلى أن يكون سيداً، وما تتطلبه هذه الدعوة من مهام. وأية مهام؟ إنها التي تكلف صاحبها جهدا، وبذلا لا يتحمله إلا الأقلون، وتتطلب منه جلدا، وحنكة، قلما تمتع بها غيره. وهي مهام السيد الذي يذوب في الذين يسودهم، أو قل يذوب في سبيلهم وينفق ماله لتتوفر لهم سبل رخائهم وترفهم. دعوة، ليس فيها مكر ودهاء، بقدر ما فيها حكمة ووفاء.

وقس بن ساعدة الأيادي كان رجلاً عاقلاً فهما، عركته الحياة وعركها، فكان (ابن بجدتها) ـ كما يقولون ـ ويبدو أنه مر بظروف مختلفة، كان يعجز فيها عن إبداء الرأي الحكيم. وهذه الظروف كثيرة متباينة، إلا أن محصلتها واحدة وهي أن العقل لا يستطيع أن يبدع وهو مشغول، وأوجزها بقوله لابنه (لا تشاور مشغولا وإن كان حازماً، ولا جائعاً وإن كان فهما، ولا مذعورا وإن كان ناصحاً، ولا مهموماً وإن كان عاقلاً، فالهم يعقل العقل، فلا يتولد منه رأي، ولا تصدق به روية)(١). لقد صدق قس في نصيحته ورأيه، في أن الهم يعقل العقل. وأي عقل يفك من وثاقه، وصاحبه مشغول أو جائع، أو مذعور، أو مهموم. إن أيا من هذه الأربعة لهو كفيل بأن يدعو صاحبه إلى من يشير عليه فيما يفعل، لا أن يبدي الرأي لغيره.

حتى إذا جئنا إلى الصحابة والتابعين وأبنائهم نلحظ أن وصاياهم فيها وعظ وإرشاد لهم، وفيها ايجاز يتعلق أكثره بالسيرة والسلوك وحسن المعاملة. هذا الحسن ابن علي ينصح ابنه بقوله (يا بني، إذا جالست العلماء فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول. وتعلم حسن الاستماع، كما تتعلم حسن الصمت، ولا تقطع على أحد حديثا، وإن طال حتى يمسك)(٢).

---

(١) نهاية الارب ٦: ٧٦.
(٢) الامالي ٢: ١٨٨.

وأما معاوية بن أبي سفيان، أحد دهاة العرب، في الذكاء والفطنة والسياسة فيدعو ابنه إلى الحلم والتحمل، والعفو عند المقدرة، قال له (عليك بالحلم والاحتمال حتى تمكنك الفرصة، فإذا أمكنتك فعليك بالصفح، فإنه يدفع عنك معضلات الأمور، ويقيك مصارع المحذور)(١).

ويسير عبدالملك بن مروان على سيرة معاوية فيدعو أبناءه إلى أن (كفوا الأذى، وابذلوا المعروف، واعفوا إذا قدرتم، ولا تبخلوا إذا سئلتم، ولا تلحوا إذا سألتم، فإنه من ضيق ضيق عليه، ومن أعطى أخلف الله عليه)(٢).

وفي موقف آخر نلحظ عبدالملك بن مروان، يحث أبناءه على الفروسية والكرم والعدل ويغريهم بالملك والسلطان، والخلافة من بعده، إذ لا يحظى بهذا الشأن إلا من توفرت فيه هذه الخصال، انظره يقول لهم (كلكم يترشح لهذا الأمر، ولا يصلح له منكم إلا من له سيف مسلول، ومال مبذول، وعدل تطمئن إليه القلوب)(٣).

وتتجلى الحكمة والموعظة الحسنة في آل البيت ـ عليهم السلام ـ وما آمنوا به من مثل وقيم، بعيدة عن الحياة الدنيا، فكانت وصاياهم إلى أنفسهم قبل أبنائهم، مثلما كان حال زيد بن علي الذي أوصى ابنه فقال له، (يا بني، ان الله لم يرضك لي فأوصاك بي، ورضيني لك، فحذرنيك، واعلم أن خير الآباء للأبناء من لم تدعه المودة إلى التفريط، وخير الأبناء للآباء من لم يدعه التقصير إلى العقوق)(٤).

أما علي بن الحسين فقال لابنه (يا بني، إصبر على النوائب، ولا تعرض للحتوف

---

(١) نهاية الارب ٦: ٥٠.
(٢) العقد الفريد ٣: ١٥٤.
(٣) نهاية الارب ٦: ٣٥.
(٤) العقد الفريد ٢: ٤٣٨.

ولا تجب أخاك من الأمر إلى ما مضرته عليك أكثر من منفعته لك)(١).

وكان الأشعث بن قيس من أشراف العرب، ومن فرسانهم الصناديد، في موقعة صفين فجمع بين الشرف والبطولة. ولا شك في أن وصيته لأبنائه ستحمل هذه السمات التي تحلى بها في حياته. وأولها حماية العرض، وثانيها الابتعاد عن أموال الناس ودمائهم، وثالثها الابتعاد عما يستحى منه، أو يركب الإنسان من جرائه من الذنوب، ورابعها الكف عن المسألة، وخامسها منع النساء من غير الأكفاء، وسادسها عدم التعالي على عامة الناس. وحاول الأشعث، أن يبين الأسباب التي دعته إلى النصيحة بكل واحدة ويبين ما لها وما عليها، انظره يقول (يا بني، لا تذلوا في أعراضكم، وانخدعوا في أموالكم، ولتخف بطونكم من أموال الناس، وظهوركم من دمائهم، فإن لكل امرىء تبعة، وإياكم وما يعتذر منه ويستحى، فإنما يعتذر عن ذنب، ويستحى من عيب، وأصلحوا المال لجفوة السلطان، وتغير الزمان، وكفوا عند الحاجة عن المسألة، فإنه كفى بالرد منعا، وأجملوا في الطلب حتى يوافق الرزق قدرا، وامنعو النساء من غير الأكفاء، فإنكم أهل بيت يتأسى بكم الكريم، ويتشرف بكم اللئيم، وكونوا في عوام الناس، ما لم يضطرب الحبل، فإذا اضطرب فالحقوا بعشائركم)(٢).

وعمير بن حبيب أوصى بنيه فقال، يا بني، إياكم ومخالطة السفهاء، فإن مجالستهم داء، وإنه من يحلم عن السفيه يسر بحمله، ومن يجبه يندم، ومن لا يقر بقليل ما يأتي به السفيه يقر بالكثير، وإذا أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف أو ينهى عن المنكر فليوطن نفسه قبل ذلك على الأذى، وليوقن بالثواب من الله عز وجل، إنه

---

(١) المصدر السابق ٣: ١٥٣.
(٢) المصدر السابق ٣: ١٥٤.

من يوقن بالثواب من الله عز وجل لا يجد مس الأذى. (١).

ودعا خالد بن صفوان ابنه أن يكون أحسن ما يكون في الظاهر حالاً، وأقل ما يكون في الباطن مالاً. وأن يدع من أعمال السر مالا يصلح له في العلانية. (٢).

وأوصى إبراهيم بن هبيرة ولده فقال له، لا تكن أول مشير، وإياك والرأي الفطير ولا تشيرن على مستبد، فإن التماس موافقته لؤم، والاستماع منه خيانة. (٣).

وكان الهيثم بن صالح خطيباً، ومن كثرة خطابته، أراد أن يعطي ابنه خلاصة تجاربه، في هذا الميدان فقال له، (يا بني إذا أقللت من الكلام، أكثرت من الصواب، وإذا أكثرت من الكلام، أقللت من الصواب. قال يا أبه، فإن أكثرت وأكثرت؟ ـ يعني كلاما وصوابا قال يا بني، ما رأيت موعوظاً أحق بأن يكون واعظا منك). (٤) لقد أفلح الفتى، الذي كان متشرباً لكل ما فيه الصواب، مبتعداً عما فيه الخطأ، فبز أباه في موعظته.

وأدرك أكثم بن صيفي تغير القلوب وتقلبها، الأمر الذي جعل الإنسان لا يضمن بقاء الأمين على أمانته فحذر ابنه من الأمين، ونهاه عن الائتمان للخائن. (٥).

ولما انصرف مروان بن الحكم من مصر إلى الشام، استعمل ابنه عبدالعزيز على مصر وقال له حين ودعه، أرسل حكيماً ولا توصه. انظر يا بني، إلى أهل عملك، فإن كان لهم عندك حق غدوة، فلا تؤخره إلى عشية، وإن كان لهم عشية فلا تؤخره

---

(١) الامالي ٢: ٥٦.
(٢) العقد الفريد ٣: ١٥٣.
(٣) نهاية الارب ٦: ٧٧.
(٤) البيان والتبيين ١: ٢٦٤.
(٥) العقد الفريد ٣: ١٥٢.

إلى غدوة وأعطهم حقوقهم عند محلها، تستوجب بذلك الطاعة منهم، وإياك أن يظهر لرعيتك منك كذب، فإنهم إن ظهر لهم منك كذب لم يصدقوك في الحق، واستشر جلساءك وأهل العلم، فإن لم يستبن لك فاكتب إلي يأتك رأيي فيه إن شاء الله. وإن كان بك غضب على أحد من رعيتك فلا تؤاخذه به عند سورة الغضب، واحبس عقوبتك حتى يسكن غضبك ثم يكون منك ما يكون وأنت ساكن الغضب مطفأ الجمرة. فإن أول من جعل السجن كان حليماً ذا أناة. ثم انظر إلى أهل الحسب والدين والمروءة، فليكونوا أصحابك وجلساءك ثم ارفع منازلهم منك على غيرهم، على غير استرسال ولا انقباض)(١). إنها وصية الرجل العاقل المؤمن العادل، الذي لا يريد لابنه إلا أن يتبوأ مكاناً رفيعاً في حكمه وخلافته.

نقل صاحبا الأمالي والأغاني خبرا طويلا رائعا عن عبدالله بن شداد بن الهاد لما حضرته الوفاة، فدعا ابنا له يقال له محمداً وأوصاه وصية فيها منهج قويم، واستشهاد بأقوال الشعراء التي رأى فيها تدعيما لنصيحته، ودليلا على منهجه، إنه يخاطبه فيقول (يا بني، إني أري داعي الموت لا يقلع، وأرى من مضي لا يرجع، ومن بقي فاليه ينزع، وأني موصيك بوصية فاحفظها، عليك بتقوى الله العظيم، وليكن أولى الأمور بك شكر الله وحسن النية في السر والعلانية، فإن الشكور يزداد، والتقوى خير زاد، وكن كما قال الحطيئة:

ولستُ أرى السعادةَ جمعَ مال
ولكنَّ التقيَّ هو السَّعيدُ
وتقوى الله خيرُ الزاد ذُخراً
وعند الله للأتقى مزيدُ

(١) نهاية الارب ٦ : ٤٢.

ومـــــا لا بـــــدَّ أن يـــــأتي قـــــريـــبٌ
ولـكـــنَّ الـــــذي يـــمضي بـــعـيـــدُ

ثم قال: أي بني، لا تزهدن في معروف، فإن الدهر ذو صروف، والأيام ذات نوائب على الشاهد والغائب، فكم من راغب قد كان مرغوباً إليه، وطالب أصبح مطلوبا ما لديه. واعلم أن الزمان ذو ألوان ومن يصحب الزمان يرى الهوان، وكن ـ أي بني ـ كما قال أبو الأسود الدؤلي:

وعـــدَّ من الـــرحمن فضـــلاً ونـعـمـــةً
عـليـكَ إذا مـا جـاء لـلعـرْفِ طـالـبُ
وإنَّ امـــرأ لا يـــرتجى الخيرُ عنده
يـكـنْ هـيـنـــاً ثـقـــلاً على من يصـاحبُ
فـلا تمـنـعـن ذا حـاجـة جـاء طـالـبـاً
فـــإنـك لا تـــدري متـى أنـت راغـبُ
رأيـتُ الـتـــوا هـــذا الـــزمـــان بـــأهـلـــه
وبـيـنـهـم فـيـــه تـكـــون الـنـــوائبُ

ثم قال: أي بني، كن جواداً بالمال في موضع الحق، بخيلاً بالأسرار عن جميع الخلق فإن أحمد جود المرء الإنفاق في وجه البر، وإن أحمد بخل الحر، الضنَّ بمكتوم السرّ وكن كما قال قيس بن الخطيم الأنصاري:

أجـــودُ بـمـكـنـــون الـتـــلاد وإنـــني
بسرك عـــــمَّـــــنْ سالني لضـنـينُ
إذا جـــاوزَ الاثـــنـين سرٌّ فـــإنـــهُ
بـنـث وتـكـثـير الحـديـث قـمـينُ(١)

(١) نث الخبر: أفشاه. وقمين سريع.

وعندي له يوماً إذا ما ائتمنتني
مكانٌ بسوداءِ الفؤادِ مكينُ

ثم قال: أي بني، وإن غلبت يوما على المال، فلا تدع الحيلة على حال، فإن الكريم يحتال، والدني عيال، وكن أحسن ما تكون في الظاهر حالاً، أقل ما تكون في الباطن مالا، فإن الكريم من كرمت طبيعته، وظهرت عند الأنفاذ نعمته، وكن كما قال ابن خذاق العبدي:

وجدتُ أبي قد أورثهُ أبوهُ
خلالاً قد تعدُّ من المعالي
فأكرمُ ما تكونُ عليَّ نفسي
إذا ما قلَّ في الأزماتِ مالي
فتحسنُ سيرتي وأصونُ عِرضي
ويجملُ عند أهل الرأي حالي
وإن نلتُ الغنى لم أعلُ فيه
ولم أخصص بجفوتي الموالي

ثم قال: أي بني، وإن سمعت كلمة من حاسد، فكن كأنك لست بالشاهد فإنك إن أمضيتها حيالها، رجع العيب على من قالها، وكان يقال: الأريب العاقل هو الفطن المتغافل، وكن كما قال حاتم الطائي:

وما منْ شيمتي شتمُ ابن عمي
وما أنا مخلفٌ منْ يرتجيني
وكلمة حاسدٍ في غير جرمٍ
سمعتُ فقلتُ مرّي فانفذيني

فعابوها عليَّ ولم تسؤني
ولم يعرقْ لها يوماً جبيني
وذو اللونين يلقاني طليقاً
وليس إذا تغيبَ يأتليني

ثم قال: أي بني، لا تواخ امرأ حتى تعشاره، وتتفقد موارده ومصادره، فإذا استطعت العشرة، ورضيت الخبرة، فواخه على إقالة العثرة، والمواساة في العسرة، وكن كما قال المقنع الكندي:

أبلُ الرجالَ إذا أردتَ إخاءهم
وتوسمن فعالهم وتفقدِ
فإذا ظفرتَ بذي اللبابة والتقى
فبه اليدين قريرَ عينٍ فاشددِ
وإذا رأيتَ ولا محالة زلةً
فعلى أخيكَ بفضلِ حلمكَ فارددِ

ثم قال: أي بني، إذا أحببت فلا تفرط، وإذا أبغضت فلا تشطط، فإنه قد كان يقال أحبب حبيبك هونا ما عسى أن يكون بغيضك يوما ما، عسى أن يكون حبيبك يوما ما وكن كما قال هدبة بن الخشرم العذري:

وكن معقلاً للحلم واصفحْ عن الخنا
فإنك راء ما حييتَ وسامعُ
وأحببْ إذا أحببتً حباً مقارباً
فإنكَ لا تدري متى أنت نازعُ
وأبغضْ إذا أبغضتَ بغضاً مقارباً
فإنك لا تدري متى أنت راجعُ

وعليك بصحبة الأخيار وصدق الحديث، وإياك وصحبة الأشرار فإنه عار، وكن كما قال الشاعر:

إصحب الأخيارَ وارغبْ فيهمُ
ربَّ منْ صاحبتهُ مثلُ الجربْ
ودعِ الناسَ فلا تشتمهمُ
وإذا شاتمْتَ فاشتمْ ذا حسبْ
إنَّ منْ شاتمَ وغداً كالذي
يشتري الصفْرَ بأعيانِ الذهبْ
واصدقِ الناسَ إذا حدثتهمُ
ودَعْ الناسَ فمنْ شاءَ كذبْ(١).

ولم تتوقف الوصايا عند الأولاد بل تعدتهم إلى البنات من قبل الآباء، وخاصة عندما تتزوج البنت وتبرح بيت أبيها إلى بيت الزوجية الجديد، فهي بحاجة إلى وصية أو قل وصايا، فيها تبيين لما يجب عليها أن تقوم به تجاه زوجها لتحيي حياة سعيدة فيها هناء واستقرار مع شريك حياتها. وإن هذه المهمة تتصل مباشرة بالأم، التي تتولى هذا الأمر، وهي التي تقوم بإعدادها إلى هذا اليوم منذ نعومة أظفارها. وقد غلب أن تكون الأم أكثر حرصا على ابنتها وأكثر اتصالاً بها، لذلك فمن الطبيعي أن توجهها وترشدها إلى ما يرضي زوجها ويجعله يتعلق بها ويعزها في حياته. نعم غلب هذا الأمر، وغلب أن يكون سرا غير مذاع وغير متداول على الألسن، حتى إذا اتصل بالأب ذاع وانتشر ووصلنا شيء منه، مثلما كان حال قيس ابن عرس ووصيته لابنته عند زواجها في قبيلة غير قبيلته.

(١) الامالي ٢: ٢٢٥ ـ ٢٢٧.

نقل إلينا صاحب الأغاني خبرا يتصل برجلين بارزين من رجال العرب في العصر الجاهلي. لأحدهما موقف مع ابنه، وللآخر موقف مع ابنته، وكلا الموقفين لهما مساس مباشر بموضوعنا قال (كان زرارة بن عدس بن يزيد رجلا شريفاً، فنظر ذات يوم إلى ابنه لقيط ورأى منه خيلاء ونشاطاً، وجعل يضرب غلمانه وهو يومئذ شاب، فقال زرارة، لقد أصبحت تصنع صنيعا كأنما جئتني بمائة من هجان المنذر ابن ماء السماء، أو نكحت بنت ذي الجدين قيس بن خالد. قال لقيط: لله علي ألا يلمس رأسي غسل ولا آكل لحما، ولا أشرب خمراً، حتى أجمعهما أو أموت. فخرج لقيط ومعه ابن خال له يقال له القراد بن أهاب.... فخرجا حتى أتيا قيس بن خالد، فجهزها أبوها، فلما أرادت الرحيل قال لها: يا بنية كوني لزوجك أمة يمكن لك عبداً، وليكن أكثر طيبك الماء، إنما يذهب بك إلى الأعداء. وأراك إن ولدت فستلدين لنا غيظاً طويلاً. واعلمي أن زوجك فارس مضر، وأنه يوشك أن يقتل أو يموت، فلا تخمشي عليه وجها، ولا تحلقي عليه شعراً...)(١). فإننا نلحظ أن زرارة بن عدس كان مؤنباً لابنه محفزاً له إلى السمو والبعد عن الطيش والعبث في آن واحد، الأمر الذي جعل ابنه لقيطاً يلتفت إلى نفسه، وإلى ما يدور في خلد أبيه ويسعى لتحقيقه، مهما كلفه ذلك من جهد. أما قيس بن خالد فقد تدخل في شؤون ابنته، وحل محل أمها في الوقت المناسب، ذلك أن ابنته تتزوج زواجا غير عادي، فهي تتزوج من فارس مقدام، ومن عدو لدود، الأمر الذي يتطلب، إضافة لما تقوله الأم وتوصي به، حديثا من الأب يبين معارفه وخبراته.

وكان أسماء بن خارجة يعلم أن تأديب البنات من مهمة الأمهات، إلا أن زوجته توفيت وخلفت له بنتاً اسمها هند، وقد زوجها للحجاج بن يوسف الثقفي، فما

(١) الأغاني (طبعة دار الثقافة) ٢٢: ١٩٥.

كان منه إلا أن يقوم بتأديبها وتربيتها، ثم توجيهها عند مغادرتها بيته، فقال (يا بنية، إن الأمهات يؤدبن البنات، وإن أمك هلكت وأنت صغيرة، فعليك بأطيب الطيب الماء، وأحسن الحسن الكحل، وإياك وكثرة المعاتبة فإنها مقطعة للود، وإياك والغيرة، فإنها مفتاح الطلاق، وكوني لزوجك أمة يكن لك عبداً، واعلمي أني القائل لأمك:

خذي العفو مني تستديمي مودتي
ولا تنطقي في سورتي حين أغضب(١)

إنها الوصية ذاتها التي قالها قيس بن خالد لابنته قبل قرن أو يزيد من الزمان. ذلك لأن طباع القوم هي هي، والمواصفات التي يجب أن تتوفر في المرأة من زينة وطاعة وإخلاص، هي هي لم تتبدل منذ أقدم العصور - ولا أجدني مبالغاً إن قلت - حتى وقتنا الحاضر.

وهذا رجل ثالث هو عبدالله بن جعفر - يكرر نصيحة أسماء بنصها تقريباً - وكأنه لا يوجد إلا هي - وهو يوصي ابنته فيقول (يا بنية، إياك والغيرة إنها مفتاح الطلاق وإياك والمعاتبة، فإنها تورث البغضة، وعليك بالزينة والطيب، واعلمي أن أزين الزينة الكحل، وأطيب الطيب الماء)(٢). جاء بوصيته كما جاءت عند أسماء، وربما جاءت كما هي عند كل من أوصى ابنته في ذلك الوقت، وإن زادت أو نقصت عن ذلك، فإن الزيادة أقرب إلى الاسترسال في القول، والنقصان أقرب إلى الايجاز فيه، من أي شيء آخر.

ومثلما اتصل الأب بابنته، وقدم لها نصائحه، التي هي أقرب إلى الأم منها إليه

---

(١) المصدر السابق ٢٠: ٣٣٣.
(٢) البيان والتبيين ٢: ٩١.

كذلك كان حال الأم من الولد، الذي هو أكثر التصاقاً بأبيه واقتداء به. فقد نصحته إما بعد فقدان أبيه وتوليها رعايته وتربيته، وإما لأنها ذات حنكة ومنزلة رفيعة تؤهلها إلى إبداء الرأي والنصيحة، حتى وان كان الأب موجوداً. وقد توفرت لدينا أخبار تؤيد هذا الذي ذهبنا إليه فقد روى لنا أبان بن تغلب أنه شهد

أعرابية وهي توصي ولداً لها أراد سفرا فقالت (أي بني، اجلس أمنحك وصيتي، وبالله توفيقك، فإن الوصية أجدى عليك من كثير عقلك، أي بني، إياك والنميمة، فإنها تزرع الضغينة، وتفرق بين المحبين. وإياك والتعرض للعيوب فتتخذ غرضاً، وخليق الا يثبت الغرض على كثرة السهام. وقلما اعتورت السهام غرضا إلا كلمته حتى يهي ما اشتد من قوته. وإياك والجود بدينك، والبخل بمالك، وإذا هززت فاهزز كريما يلن لهزتك. ولا تهزز اللئيم، فإنه صخرة لا ينفجر ماؤها. ومثل لنفسك مثال ما استحسنت من غيرك فاعمل به، وما استقبحت من غيرك فاجتنبه، فإن المرء لا يرى عيب نفسه، ومن كانت مودته بشره وخالف ذلك منه فعله كان صديقه منه على مثل الريح في تصرفها. . . . والغدر أقبح ما تعامل به الناس بينهم. ومن جمع الحلم والسخاء فقد أجاد الحلة ريطتها وسربالها)(١) أرأيت قيمة الوصية عند القوم، فهي أجدى من كثير من العقل. وهي آخر ما يحفظه الانسان من أهله الذين يكن لهم كل حب وتقدير إن أزمع سفرا.

وقد ضرب المثل بالخنساء في الجاهلية والإسلام. في إبائها وشممها وقوة شخصيتها ووفائها، وحبها لأهلها. ثم في الإسلام بايمانها الذي أنساها ذاتها وعاطفتها وبكاءها. لقد فقدت أخويها في الجاهلية صخراً ومعاوية فبكتهما بكاء مرا، وما زلنا نردد أشعارها ونعجب بها ونبكي لبكائها. أما حينما فقدت أبناءها ـ

---

(١) الامالي ٢: ٧٩.

فلذات أكبادها ـ في الإسلام لم تدمع لها عين، ولم تقل فيهم بيت شعر، وشتان بين الأخ والإبن. وما كان مرد ذلك إلا الإيمان الصادق، والهيام في الله جل وعلا الذي أنساها أبناءها وحتى نفسها انظرها توصيهم عندما أرادوا التوجه لفتح فارس مع جيوش المسلمين، وإذا بها تسير معهم وتوصيهم في أول الليل قائلة (يا بني، إنكم أسلمتم طائعين، وهاجرتم مختارين والله الذي لا إله إلا هو أنكم لبنو رجل واحد، كما أنكم بنو إمرأة واحدة. ما هجنت حسبكم، ولا غيرت نسبكم. واعلموا أن الدار الآخرة خير من الدار الفانية. اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون. فإذا رأيتم الحرب قد شمرت ساقها، وجللت نارا على أوراقها، فتيمموا وطيسها وجالدوا رئيسها، تظفروا بالمغنم والكرامة في دار الخلد والمقامة فلما أسفر الصبح بادروا مراكزهم، وتقدموا واحداً بعد واحد، ينشدون أراجيز يذكرون فيها وصية العجوز لهم حتى قتلوا عن آخرهم فبلغها الخبر، فقالت (الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر الرحمة)(١)

لقد كانت الخنساء صادقة في دعوتها لأبنائها للتضحية بالنفس في سبيل الله ودينه الحنيف، وقد كان الدليل على صدقها رد فعلها حينما جاءها خبر استشهادهم.

(١) المصدر السابق.

ـ ٣ ـ
المراسلة

تدرجنا في حديثنا عن التربية عند العرب مع التطور الطبيعي لنمو الإنسان، فبدأنا بالابن وهو طفل صغير حيث بقاؤه مع أمه وأبيه وتوجيههما له وتعليمه، ثم إرساله إلى الكتاب أو إحضار المعلمين والمربين له في البيت. فكانت هذه مرحلة. ثم تلاها مرحلة ثانية تمثلت في بداية انفصال الابن عن والديه والاستقلال بالسفر أو بالزواج فعمل الآباء والأمهات على تقديم الوصايا لهم قبل انفصالهم عنهم. فكانت هذه هي المرحلة الثانية. ولم يتوقف الوالدان عند هذا الحد، بل إنهما يجدان أن أبناءهما بحاجة إلى التوجيه والإرشاد، حتى بعد الانفصال. أو قل يشعر الآباء أن أولادهم بحاجة إليهم مهما بلغوا من العمر، ومهما اكتسبوا من التجارب والخبرات. إنها عاطفة الأبوة التي لا تتوقف عند حد ولهذا رأيناهم حينما لم يجدوا أولادهم عندهم راسلوهم ووجهوهم وهم على بعد منهم، توجيهاً لا يختلف عما جاء في نصائحهم لهم قبل سفرهم.

وسنعرض لثلاثة من أفذاذ العرب وأتقاهم. راسلوا أولادهم وعكسوا سيرتهم، في رسائلهم اليهم، من تقوى الله، والعمل بما يرضيه والنهي عما يغضبه، والتواضع

بين الناس، والعدل في التعامل معهم. إنها رسائل ممن تبوأوا مكاناً رفيعاً بين المسلمين وكانوا علامات بارزة في تاريخهم. وهكذا كان أولادهم. إنهم عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وعمر بن عبدالعزيز ـ رضي الله عنهم جميعاً.

فكتب عمر بن الخطاب إلى ابنه في غيبة غابها (أما بعد، فإنه من اتقى الله وقاه، ومن توكل عليه كفاه، ومن شكره زاده، ومن أقرضه جزاه، فاجعل التقوى جزاء بصرك، وعماد ظهرك. فإنه لا عمل لمن لا نية له، ولا أجر لمن لا حسنة له، ولا جديد لمن لا خلق له)(١).

وكتب علي بن أبي طالب إلى ولده الحسن (من علي أمير المؤمنين الوالد الفان، المقر للزمان، المستسلم للحدثان، المدبر العمر، المؤمل ما لا يدرك، السالك سبيل من قد هلك، غرض الأسقام، ورهينة الأيام، وعبد الدنيا، وتاجر الغرور، وأسير المنايا وقرين الرزايا، وصريع الشهوات، ونصب الآفات، وخليفة الأموات، أما بعد، يا بني، فإن فيما تفكرت فيه من إدبار الدنيا عني، وإقبال الآخرة إليَّ، وجموح الدهر عليَّ، ما يرغبني عن ذكر سواي، والاهتمام بما ورائي، غير أنه حين تفرد بي هم نفسي دون هم الناس، فصدقني رأيي، وصرفني عن هواي، وصرح بي محض أمري، فأفضى بي إلى جد لا يزري به لعب، وصدق لا يشوبه كذب. ووجدتك كلي، حتى كأن شيئاً لو أصابك لأصابني، وحتى كأن الموت لو أتاك أتاني، فعند ذلك عناني من أمرك ما عناني من أمر نفسي. كتبت إليك كتابي هذا يا بني، مستظهراً به إن أنا بقيت لك أو فنيت، فإني موصيك بتقوى الله وعمارة قلبك بذكره، والاعتصام بحبله، فإن الله تعالى يقول ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم، فأصبحتم

---

(١) الامالي ٢: ٥٥.

بنعمته إخواناً﴾ وأي سبب يا بني أوثق من سبب بينك وبين الله تعالى، إن أنت أخذت به. أحي قلبك بالموعظة، ونوره بالحكمة، وأمنه بالزهد، وذلله بالموت، وقوه بالغنى عن الناس، وحذره صولة الدهر وتقلب الأيام والليالي. واعرض عليه أخبار الصين وسر في ديارهم وآثارهم، فانظر ما فعلوه وأين حلوا، فإنك تجدهم قد انتقلوا عن دار الأحبة، ونزلوا دار الغربة. وكأنك عن قليل يا بني صرت كأحدهم، فبع دنياك بآخرتك ولا تبع آخرتك بدنياك)(١). . . إلى آخر الرسالة التي لحظنا فيها موقف الإمام علي ـ كرم الله وجهه ـ وهو يتحدث عن نفسه في مقدمتها، ويصفها بالضعف والعجز والزهد في الحياة الدنيا، وكأنه يلح على ولده في أن يكون على هذه الحال التي هو فيها، وأكثر من هذا، فإنه جاء له بشواهد من الأمم الغابرة التي بلغت شأواً عظيماً في الملك والسيادة، وإذا بها الآن في دار الغربة والفناء، لقد كانت هذه الرسالة مثلاً رائعاً من أمثلة الإيمان الصادق والتقوى العظيمة بالله وأراد كاتبها لابنه أن يقتدي بأبيه، الذي هو هو ـ أعني أباه ـ ألم يقل عن ابنه إنه كله؟

أما عمر بن عبدالعزيز فرأى من ابنه طيشاً وتيهاً بنفسه، وخيلاء على أقرانه، وهو في مقتبل العمر، وعنفوان الشباب، فأنكر عليه ذلك فكتب إليه يقول (أما بعد، فإن أحق من وعى عني وفهم قولي أنت. وإن الله ـ وله الحمد ـ قد أحسن إلينا في لطيف أمرنا وجليله، وعلى الله جل وعز تمام النعمة، فاذكر يا بني فضل الله عليك وعلى أبيك، فإنك إن استطعت أن تصدق ذلك كله بعمل تعمله أو صلاة أو صوم، أو صدقة، قبل ذلك منك، وإياك والعزة والعظمة والكبرياء، فإنه من عمل الشيطان، وهو عدو مضل مبين، ولأن النفس لأمارة بالسوء، إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم). واعلم أن الشباب ـ إلا ما وقى الله ودفع ـ عون على أمور كثيرة من السوء، وفيه لعمري معونة كثيرة على الخير لمن رزقه الله. فاحذر شبابك، وإياك

(١) العقد الفريد ٣: ١٥٥، ١٥٦.

وأن تعلم في قلبك زهواً أو كبراً، فإنه ما لم يكن من ذلك كان خيراً، واحفظ لسانك ونفسك حفظاً ترجو فيه رحمة الله جل وعز ومغفرته. واذكر صغر أمرك، وحقارة شأنك ولا تبح فيما أعجبك من نفسك، وفيما عسيت أن تفرط فيه مما ليس معه، غير الفكرة في أمرك وأمره، وليس كتابي هذا لأن يكون قد بلغني عنك إلا خيراً. غير أنه قد بلغني عنك شيء من بعض إعجابك بنفسك، ولو بلغني أن ذلك خرج عنك إلى أمر كرهته، لبلغك عني أمر شديد إلا ما وقى الله ودفع.

فكن يا بني على حذر، فإن الشيطان قلما يصيب فرصته بمن احترس منه بدعاء الله جل اسمه، والتواضع له، وأكثر تحريك لسانك في ليلك ونهارك بذكر الله جل اسمه، وأحسن ما قطعت به حديثاً سيئاً ذكر الله تبارك وتعالى. وأعن على نفسك بخير. نسأل الله لنا ولك حسن التوفيق والسلام(١). لقد غلب عقل عمر بن عبدالعزيز على عاطفته، وفاق حبه لله ومرضاته حبه لولده، لذلك كان محذراً له في أنه لو ارتكب أمراً كرهه أبوه ـ ولا يكره إلا ما يغضب الله تعالى ـ فإنه سيبلغه عنه أمر يشتد عليه كراهته. لقد كان الرجل تقياً ورعاً، حازماً، لا تأخذه لومة في مرضاة الله، حتى وإن كان الذي يخاطبه ولده. فحسنت سيرته، عليه رحمة الله.

---

(١) المحاسن والمساوىء ٣٥١ ـ ٣٥٢.

المصادر والمراجع

١ ـ الأغاني. أبوالفرج ـ الأصفهاني. دار الثقافة ببيروت ـ ١٩٥٧

٢ ـ أغاني ترقيص الأطفال عند العرب. أحمد أبو سعد. دار العلم للملايين ببيروت ١٩٧٤م.

٣ـ الأمالي. أبوعلي إسماعيل بن القاسم القالي البغدادي. المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ببيروت د. ت.

٤ ـ أميل أو التربية. جان جاك روسو. ترجمة عادل زعيتر. لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة ١٩٤٠م.

٥ ـ بلوغ الأرب. محمود شكري الآلوسي. دار الكتاب العربي بمصر ط٣.

٦ ـ البيان والتبيين أبوعثمان عمر بن بحر الجاحظ. حققه عبدالسلام هارون. ط٣ مكتبة الخانجي بمصر ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م.

٧ ـ تاريخ التربية. مصطفى أمين. مطبعة المعارف بمصر. ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م.

٨ ـ تراجم سيدات بيت النبوة د. بنت الشاطىء. دار الكتاب اللبناني ببيروت ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

٩ ـ التربية الاستقلالية. الفونس اسكيروس. ترجمة عبدالعزيز محمد. ط٤ مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٩٤هـ/ ١٩٣١.

١٠ ـ التربية عبر التاريخ. د. عبدالله عبدالدائم. دار العلم للملايين ببيروت ١٩٧٣م.

١١ ـ التربية في الإسلام د. أحمد فؤاد الأهواني. ط٢ دار المعارف بمصر ١٩٧٥م.

١٢ ـ التربية من أفواه رجالها. أنطوان الخوري. بدون تاريخ ومكان طبع.

١٣ ـ جان جاك روسو وآراؤه في التربية. محمد عطية الأبراشي. دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة. ١٩٥١م.

١٤ ـ طبقات الشعراء. محمد بن سلام الجمحي. دار المعارف بمصر ١٩٥٢م.

١٥ ـ العقد الفريد. أبوعمر أحمد بن محمد بن عبد ربه. حققه أحمد أمين وآخرون مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٧٥هـ/١٩٥٦م.

١٦ ـ عيون الأخبار. أبومحمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري. نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية. المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ١٩٦٣م.

١٧ ـ قصة الأدب في العالم. د. أحمد أمين و د. زكي نجيب محمود. مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٥م.

١٨ ـ الكامل في الأدب واللغة. محمد بن يزيد المبرد. حققه محمد أبوالفضل إبراهيم. مكتبة نهضة مصر د. ت.

١٩ ـ محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء. أبوالقاسم محمد الراغب الأصبهاني. دار صادر ببيروت ١٩٦١م.

٢٠ ـ المحاسن والمساوىء. إبراهيم بن محمد البيهقي. حققه محمد أبوالفضل ابراهيم. مكتبة نهضة مصر. د. ت.

٢١ ـ المرأة في الشعر الجاهلي. د. أحمد محمد الحوفي. دار الفكر العربي بمصر ط٢.

٢٢ ـ المرأة في القرآن. عباس محمود العقاد. دار الكتاب العربي ببيروت ١٩٦٧م.

٢٣ ـ نهاية الأرب في فنون الأدب. شهاب الدين النويري. دار الكتب المصرية ١٩٢٥م.

٢٤ ـ الولد والوالد. أدموندجوس. ترجمة فؤاد اندرواس. وزارة الثقافة والإرشاد القومي بالقاهرة د.ت.

الرؤية الثقافية للطفل العربي

بدأت العنايةُ بالطفلِ العربي بشكل ملموس منذ عقدين من الزمان تقريباً، وهي فترة قصيرة وتعد متأخرة نسبياً، إذا ما قيست بمدى اهتمام الأمم الأخرى بالطفل. وقد تعددت أوجه هذه العناية، إذ سارت في اتجاهات، أبرزها:

أولاً: عقدُ الندوات الخاصة بالطفولة على الصعيدين الوطني والقومي، وتمثلت هذه الندوات فيما يلي:

١ ـ مؤتمر تدريب العاملين مع الطفولة. القاهرة/ أبريل/ ١٩٦٦م.

٢ ـ المؤتمر الأول لثقافة الأطفال. القاهرة/ مارس/ ١٩٧٠م.

٣ ـ حلقة العناية بالثقافة القومية للطفل العربي. بيروت/ سبتمبر/ ١٩٧٠م.

٤ ـ حلقة بحث كتاب الطفل ومجلته. القاهرة/ فبراير/ ١٩٧٢م.

٥ ـ حلقة برامج الأطفال في الإذاعة والتلفزيون. بغداد/ مايو/ ١٩٧٢م.

٦ ـ الحلقة الدراسية لثقافة الطفل في الخليج والجزيرة العربية، الكويت/ يناير/ ١٩٧٥م.

٧ ـ ملتقى الحمامات الخاص ببرامج الطفولة. تونس/ أبريل/ ١٩٧٧م.

٨ ـ ندوة صحافة الأطفال العرب. بغداد/ ديسمبر/ ١٩٧٧م.

٩ ـ ندوة حول العمل مع الأطفال. القاهرة/ فبراير/ ١٩٧٨م.

١٠ ـ ندوة «إفتح يا سمسم». الكويت/ مارس/ ١٩٧٨م.

١١ ـ ندوة بناء الطفل في الخليج العربي. البصرة/ يوليو/ ١٩٧٩م.

١٢ ـ حلقة رعاية الطفولة في الإسلام. أبوظبي/ فبراير/ ١٩٨٢م.

١٣ ـ ندوة كتب الأطفال في دول الخليج العربية. البحرين/ ديسمبر/ ١٩٨٥م.

١٤ ـ ندوة الطفولة في مجتمع متغير. العين/ فبراير/ ١٩٨٨م.

ثانياً: تخصيص جانب من مؤتمرات اتحاد الأدباء العرب للأطفال وأدبهم وثقافتهم، كما هو الشأن في المؤتمرات التالية:

١ ـ المؤتمر الرابع، بغداد/ ١٩٦٥م.

٢ ـ المؤتمر العاشر، الجزائر/ ١٩٧٥م.

٣ ـ المؤتمر الحادي عشر/ طرابلس/ ١٩٧٧م.

٤ ـ المؤتمر الثاني عشر/ دمشق/ ١٩٧٩م.

٥ ـ المؤتمر الثالث عشر/ صنعاء/ ١٩٨١م.

٦ ـ المؤتمر الرابع عشر/ الجزائر/ ١٩٨٣م.

٧ ـ المؤتمر الخامس عشر/ بغداد/ ١٩٨٥م.

وقد خرجت هذه الندوات والمؤتمرات بتوصيات كثيرة، كانت في أغلبها تتجه إلى العناية بالطفل: تنشئة، وتربية، وثقافة، ودعت إلى فسح المجال للكتاب المبدعين للتأليف للطفل ومنحهم المكافآت المجزية، والحرية التامة في التعبير، وإنشاء الجمعيات، والمؤسسات المستقلة، التي تعنى بالطفل، ويتوافر لديها الرصيد المادي

الكافي الذي يساعدها على تحقيق مهمتها التي أنشئت من أجلها. وهي توصيات لم يتح لها ـ للأسف ـ أن ترى النور، لأنها لا تملك الوسيلة التي تساعدها على تحقيقها من جهة، ولم تسهم الدول العربية، وهي الجهات الرسمية المعنية بها بشكل مباشر في ترجمتها على صعيد الواقع من جهة ثانية، ولأن جزءاً من هذه التوصيات شابه شيء من الضبابية والخطابية التي لا تفصح عن مضمون حقيقي يمكن الأخذ به، أو ترجمته في كثير من الأقطار العربية بله الأقطار كلها. (١).

ثالثاً: صدور عدد من الدراسات التي عنيت بالأطفال وأدبهم على وجه الخصوص، وهي في مجملها أقرب إلى الأدب الذي تحدث عن الأطفال في القديم والحديث منها إلى الأدب الذي خاطبهم، واتصل بتفكيرهم وثقافتهم.

وإذا كانت هذه الاتجاهات لم ترق بالأدبيات التي عنيت بالطفل وثقافته إلى الدرجة المطلوبة في هذه المرحلة الزمنية القصيرة نسبياً، فقد كان لها فضل التأسيس والإعداد والتخطيط، ولفت الأنظار إلى هذه المادة الجديدة على الفكر العربي على الأقل، والتي تتخطى حدود المادة التربوية، التي يتلقنها الأطفال في المدارس الابتدائية إلى المحيط الأوسع، الذي يؤثر تأثيراً مباشراً على الطفل، في مراحل طفولته المختلفة: مبكرة، ومتوسطة، ومتأخرة.

وإن موضوع ندوتنا هذا «الرؤية الثقافية للطفل العربي» يثير عدداً من التساؤلات، التي تتطلب إجابات تكون منطلقاً للحديث، الذي إن لم يكن مطلقاً، في منهجيته ودقته، فإنه يمثل على الأقل وجهة نظرنا في تناول المفهوم الذي نرتئيه

---

(١) انظر في هذا، على سبيل المثال لا الحصر: التوصية الاولى لمؤتمر تدريب العاملين مع الطفولة التي نصت على: «الاهتمام بثقافة الطفل القوميةو الدينية، ووقف سيل المسلسلات الاجنبية الوافدة والضارة بالمفاهيم العربية الاشتراكية والهادمة لقيمنا الروحية»، فانظر الى هذا الخليط في المفاهيم، وكيف يمكن الاخذ بها.

ونسير بهديه.

وأول هذه التساؤلات هو: ما المقصود بالرؤية الثقافية للطفل؟ ونجيب: إنها تمثل الرصيد الثقافي الذي زود به في سنيه الأولى، وتعكس مراحل اكتساب الخبرة في حياته، تلقياً دون تفاعل مع بيئته ومجتمعه، وتصل به إلى حد التشرب الذي لا يحيد عنه، ولا يمكنه الفكاك منه.

وثاني هذه التساؤلات هو: إن تحديد عمر الطفل اختلف من باحث لآخر، حتى باتت الطفولة لا تمثل مرحلة واحدة بل عدة مراحل عند عدد من الباحثين، فما هو مفهوم الطفل الذي ننطلق منه؟ وأجيب: إن مفهوم الطفل، هو المفهوم الذي ساد لدى الباحثين العرب القدامى، ومن ساروا عليه إلى يومنا هذا، وهو منذ الولادة إلى سن الحلم، أو البلوغ، أو الثالثة عشرة تقريباً(١).

وأما التساؤل الثالث الذي يثيره موضوع الندوة، فهو: هل يمكننا أن نطلق القول دون تحفظ على الرؤية الثقافية للطفل العربي؟ وبتعبير آخر: هل هناك ثقافة عربية واحدة، على وجه العموم، وللطفل على وجه الخصوص؟ لا شك في أن هذا الحكم، لا يخلو من تعميم إذا طبق على الواقع المعاش، إذ إن هناك من الباحثين من يرى أن «الوطن العربي، الحديث على الأقل، مجموعة من الجزر الثقافية، المختلفة، المتباينة، إلى حد التنافر، والتدابر أحياناً، بل إن القطر الواحد ينقسم إلى عدد من الجزر الحضارية»(٢) ومع إن هذا الحكم لا يخلو من غلو، ونظرة فيها كثير من الواقعية، التي توصل الإنسان، إلى حد التشاؤم واليأس، إلا أنها في الوقت نفسه،

(١) انظر هذا في: أساس البلاغة للزمخشري. مادة الطفل، ولسان العرب لابن منظور، مادة الطفل، وعلم نفس النمو الحامد زهران ٩٩، وأسس النمو الانساني لمحمدخالد الطحان ١٦.
(٢) التراث وتحديات العصر في الوطن العربي «الاصالة والمعاصرة» : ٧٢٦، والرأي للدكتور محمد يوسف نجم، وانظر ما يوافقه عند محمد الادريسي العلمي، ضمن كتاب التكامل بين اجهزة الاعلام واجهزة الثقافة في الوطن العربي ١٨٤..

مؤشر لا يخطىء، من حيث ضرورة الاحتراس والحيطة من قبل الدارس، عندما يتحدث عن الثقافة العربية الواحدة، وثقافة الطفل العربي. الأمر الذي يدعوني للقول: إننا نتطلع إلى ثقافة مشتركة للطفل العربي، إذا كنا قد افتقدنا جزءاً كبيراً منها في الوقت الحالي.

والتساؤل الأخير هو: هل المقصود بالرؤية الثقافية للطفل العربي، أن للطفل رؤية محددة، أم أن الآخرين، هم الذين يحددون له هذه الرؤية: (أسرة، ومجتمعاً، ومدرسة، ووسائل إعلام، وسلطة)؟ وأجيب على الفور: بأنني أميل إلى ما يراه الآخرون له، ويزودونه به من مادة ثقافية.

لقد سئل سقراط الحكيم ذات يوم: متى نبدأ بتربية الطفل؟ فأجاب: قبل أن يولد بمائة عام. فعاد السائلون الأولون فسألوه: وكيف يكون ذلك؟ فقال لهم: يجب أن نربي أبويه قبله، وأجداده الأربعة. (١) ولعل قول سقراط هذا يصلح مدخلاً لما أريد أن أصل إليه، وهو أن الطفل ينهل من ثقافة بيئته الخاصة والعامة، وإن هذه البيئة بقدر ما تكون صالحة خصبة يكون الطفل العربي متمكناً صلباً في تفكيره، وجسمه، وسلوكه، وبقدر ما تكون هشة، ضعيفة، يكون هو كذلك.

فما هي المكونات الأساسية لثقافة الطفل العربي المعاصر؟

وما مدى انسجامها من قطر لآخر، بحيث يمكن أن تصل بالطفل العربي إلى رؤية ثقافية واحدة، أو قريبة منها؟

وأكاد أقطع في الجواب بأن هذه المكونات هي:

١ ـ الأسرة.

---

(١) رعاية الطفولة في اطار مفاهيم التربية الاسلامية، للدكتور عمر فروخ، ضمن بحوث حلقة «رعاية الطفولة في الاسلام»، ٦٧.

٢ ـ المدرسة.

٣ ـ المجتمع.

٤ ـ وسائل الإعلام المعاصرة.

٥ ـ السلطة أو نظام الحكم.

واسمحوا لي، وأنا أتحدث عن هذه المكونات، أن أستعين بمصدرين أساسيين، أولهما: المعارف العامة التي استطعت التزود بها من المصادر والكتب التي تتصل بهذا الموضوع. والثاني: التجارب الشخصية التي اكتسبتها بمعايشتي لكثير من الأقطار العربية أنا وأبنائي: إقامة، وتعلماً، وثقافة، وإنني أرى أن المصدرين يكمل كل منهما الآخر: فقد درست في قطاع غزة، والعراق، ومصر. ودرست في جامعات الجزائر، وليبيا، والإمارات. ودرس أبنائي في مدارس مصر، والجزائر، وليبيا، وسوريا، والإمارات.

وقد أتيح لي زيارة خمس عشرة دولة عربية، من اثنين وعشرين دولة، وفي هذا رصيد، من الخبرة المعاشة التي لا تخطىء، عند التشخيص والاستشهاد على الأقل.

أولاً: الأسرة: ولعل الأسرة العربية، هي أقوى الركائز التي تزود الطفل العربي، بالقاسم المشترك من الثقافة العربية الأصيلة، لأنها تعتمد في تكوينها، على عوامل اللغة، والدين الإسلامي الحنيف، والقيم الاجتماعية، التي توارثتها عبر الأجيال، تعتز بها، وتلقنها للطفل تلقيناً فيه بساطة شديدة، لا ترقى بها إلى تحصينه بها، مما يعترضها في المستقبل، من مؤثرات جديدة تضاف إلى ثقافته، في محيطه المجتمعي الداخلي، ناهيك عن المجتمع الخارجي. إلا أن هذه الثقافة ـ على أية حال ـ تمثل جانباً إيجابياً، في ثقافة الطفل العربي، يقابله ـ أعني الجانب الايجابي ـ مظاهر سلبية تتصل بالأسرة العربية، أهمها: التفاوت الشديد في ظروفها في القطر العربي

الواحد، بله الأقطار المختلفة من حيث التعليم، والاقتصاد، وظروف المعيشة، والحياة السياسية. وقد أدى هذا التفاوت إلى أن تتمثل الأسرة الواحدة، في المجتمع الواحد، في أسر فيه، من حيث المدينة، والريف، ومستوى الدخل، والتعليم. وهذا أدى إلى وجود فجوة في التفكير، توترت شيئاً فشيئاً، حتى وصلت حد الانفجار، فيما لحظناه في بعض الأقطار العربية، فكانت الهجرة من الريف إلى المدينة، دون وعي، بأبعاد هذه الهجرة، ودون إدراك للمشاكل التي يمكن أن تترتب عليها، وهجرة أخرى إلى أقطار عربية أخرى، ذات وضع اقتصادي أفضل، ولكنها ذات وضع اجتماعي مختلف.

وقد رأى الطفل العربي هذا بأم عينه: رضعه فقراً، وبؤساً، وتشريداً، وعايشه ضياعاً، وطلب إليه أن يمثله بعد أن أصبح ناضجاً متمكناً!.

ثانياً: المدرسة: لقد مثل التعليم مطلباً ملحاً في مجتمعنا العربي، وأصبحت الأنظمة تتسابق في تحقيقه: بفتح المدارس، وجعله مجانياً، وإلزامياً على الأطفال في السنين الأولى، وأصبح التربويون يعنون بالمناهج التربوية، وبالاستفادة من أرقاها وأحدثها في مدارسنا، وبات التعليم ميسوراً في مجتمعاتنا، إلا أنه أعطى مردوداً عكسياً في كثير من النواحي التي أوجزها فيما يلي:

إن كثيرين ممن تولوا زمام الأمر في التعليم في بلادنا، كانوا ممن لا علاقة لهم به، وهم أصحاب القرار فيه. وقد نص المرحوم مالك بن نبي على هذا بقوله: «إننا منذ خمسين عاماً نعرف مرضاً واحداً يمكن علاجه، هو الجهل والأمية، ولكننا اليوم نرى مرضاً جديداً مستعصياً هو التعالم»(١). وكان من جراء هذا التعالم لدى القائمين على التعليم عندنا اهتزاز الصورة التربوية لدى المربين، حين دخلوا البيوت

---

(١) مشكلة الثقافة، ٧٢.

من غير أبوابها الشرعية، وانعكست هذه الصورة على الطفل وما يأخذه من قيم.

وليس أخطر من أن يكون المربي غير مقتنع بما يقوم به، ولا أخطر من أن تهتز صورة المربي في نظر تلميذه، وهذا ما حدث، فكان أن أخذ الطفل قيماً ومثلاً سامية من مربيه، ثم عمل بعكسها في ممارساته اليومية.

٢ ـ الاهتمام بالشكل، والبعد عن الجوهر، إذ إن المدارس فتحت في وطننا العربي، وهي غير مزودة بالوسائل الأساسية التي تسعفها لتأدية رسالتها، مما أدى إلى أن يحدث تكدس في التعليم، في الفصول والمدارس، بينما هي من حيث، الشكل الخارجي غاية في الأناقة والجمال، والعجيب أن مفكرينا ومربينا نبهوا إلى هذا منذ ما يزيد عن نصف قرن من الزمان(١)، وما زلنا نأخذ بهذا الأمر بسيئاته: التأنق الشكلي على حساب الجوهر.

٣ ـ المربون، وعدم الاهتمام بهم، وتقديرهم حق قدرهم اجتماعياً، واقتصادياً، وتعليمياً، مما أدى إلى أن يكون المعلم هو أضعف فئات المجتمع حالاً، وأضعف المكونين تعليمياً، وصاحب أقل الوظائف شأناً. وهو الذي يسند إليه تنشئة الجيل الجديد الذي عليه المعول في المستقبل، وقد نبه طه حسين إلى هذا من بعيد حين قال: لا أعرف شراً على الحياة العقلية في مصر، من أن يكون المعلم الأولي كما هو الآن عندنا: سيء الحال، منكسر النفس، محدود الأمل، شاعراً بأنه يمثل أهون الطبقات». (٢).

قال طه حسين هذا قبل نصف قرن (سنة ١٩٣٨م)، فما باله لو بعث حياً ورأى حال المعلم الذي تحدث عنه، هو هو عام (١٩٨٨م) وفي مصر أيضاً. ولو كان له

---

(١) مستقبل الثقافة في مصر، ١١٨.
(٢) المصدر السابق ١١٦.

ذلك، لرأى العجب! وماذا ننتظر من هذا المعلم الذي شخصه طه حسين وهو: «سيء الحال، منكسر النفس، محدود الأمل» تجاه جيل ينشئه؟

٤ ـ المناهج: وهي قضية ذات شقين: الأول، هو أن التعليم عندنا تحول إلى «اهتمام مفرط بالطريقة التعليمية دون اكتراث بالمادة التي تعلم، حتى أخذت مدارسنا، تتحول بالتدريج إلى معارض مزوقة منمقة لأوجه النشاط من صور ولوحات وأشكال ورسوم بيانية، أما الاهتمام بالعلم ذاته فقد تراجع إلى الصفوف الخلفية». (١)

والثاني، هو المضمون الذي اشتملت عليه هذه المناهج، إذ كان يعكس في الأغلب الأعم صورة نظام الحكم: تاريخاً، وجغرافية، وأدباً، وفلسفة، واجتماعاً، وفكراً، وما أكثر هذه الصور، قياساً على صور الحكم عندنا، مما ولد تفاوتاً شديداً

في المضمون بين الأقطار العربية، ولكن الأمر الأكثر خطورة، هو أن يكون التناقض في المنهج لدى الطفل في القطر العربي الواحد، حين يدرس الطفل، هو هو، منهجين مختلفين، بتوجيهين فكريين متناقضين، في بعض الأقطار، مما اصطلح عليه بثورة المناهج.

ثالثاً: المجتمع: والأسرة جزء من المجتمع، وما يمكن أن يتحدث به عن الأسرة، ينسحب على المجتمع مع فارق واحد، هو أن الأسرة، يمكنها أن تتحكم في الطفل، وأن تصبغه بصبغتها التي تريد، أما المجتمع فإن دائرته أوسع والتفاوت بين فئاته أكبر، الأمر الذي يجعل الطفل، يمر بحالات من عدم التوازن، عند انتقاله من ظرف إلى آخر: من الأسرة إلى المدرسة، أو من الريف إلى المدينة، لأن هناك تباعداً بين حياة الأسرة والأسر الأخرى، وبين حياة الطفل في الريف والمدينة،

(١) آراء نقدية في مشكلات الفكر والثقافة، ١٨٧.

وهذا أدى في أحيان كثيرة إلى أن يضيق الطفل بحياته الأسرية مما يراه خارجها، (١) وقد كان هذا مقدمة إلى أن ينسلخ عنها إذا ما أتيحت له الفرصة بالتدرج في التعليم، أو الاستقلال في العيش. كل هذا في القطر الواحد، فما بالنا ببقية الأقطار، ونحن ندرك خصوصية كل قطر، وظروفه التي تجعله ـ في الأغلب ـ مثقلاً بأعباء تثقل كاهله، وتجعل المرء يقف مشدوهاً لظروف المجتمع القاهرة التي يعجز عن إيجاد حل لها، أو تقديم العون لها، وهو ما عبر عنه الدكتور زكي نجيب محمود بقوله، وهو يتحدث عن المثقف العربي وأزمته، بأن الهدف كان بالنسبة له محدداً واضحاً، لكن الطريق إليه مسدود»(٢). وهذا أمر ينطبق على المجتمع العربي، ومشكلاته، انطباقه على المثقف العربي وأزمته، إذ ما أسهل علينا، تشخيص الظاهرة غير الطبيعية، والتحدث عن حلولها العملية، إلا أننا تعوزنا الوسيلة للوصول إليها، وأمامنا الشواهد الكثيرة، في ضعف الموارد، أو سوء استغلالها في الأقطار العربية، أو الغرق في الديون، ولكن الوصول إلى معالجتها، معالجةً ناجحةً يكاد يكون مستحيلاً، وطفلنا العربي يعيش كل هذا ويكتوي بناره.

رابعاً: أجهزة الإعلام: وقد باتت أجهزة الإعلام، وفي مقدمتها التلفزيون، تلعب دوراً مهماً جداً، في حياة الطفل العربي، بما تبثه من برامج للأطفال خاصة. وقد كثر حديث الكتاب، عن هذا المؤثر في الطفل، وكان التنبيه لمخاطره، بمستوى هذه المخاطر، لما يشتمل عليه من برامج وافدة غريبة عن البيئة العربية الإسلامية، ولأنها لا تخاطب ذهن الطفل العربي وخياله، وبما ينسجم مع تكوينه الخلقي، والنفسي، والمنسجم مع القيم التي تشربها، أقول: أكثر الباحثون من الحديث عن هذه الوسيلة الإعلامية، ودعوا إلى ضرورة مواجهتها بمادة عربية: إنتاجاً، وتأليفاً،

(١) مستقبل الثقافة في مصر، ١١٨.
(٢) هموم المثقفين ١٢.

وتمثيلاً، ودلت هذه الدعوات، على حرارة الصدق، لكنها سرعان ما اصطدمت بالواقع المؤلم، الذي حال دون تحقيق هذه الغاية: بسبب العجز المادي، أو الفني، أو المادة الملائمة، أو هذه الأمور مجتمعة. فنشأ الطفل وهو عارف بأسماء، وقيم، وسلوكيات غريبة على بيته ومجتمعه، ترسخ في ذهنه، ولا وجود لها في واقعه، وكفاك بهذه آفة. وآفة أخرى أسوقها، من جراء هذه الوسيلة الإعلامية المهمة، حين تم استغلالها أسوأ استغلال، نتيجة عدم الوضوح في رؤية القائمين عليها، بتسييسها بافراط، في بعض الأقطار، مما أدى إلى أن يرى الطفل الأمور من زاوية واحدة، وهي في أحيان كثيرة، زاوية جزئية، أعمت عينيه عن الوطن الكبير، فتكرست في نفسه النعرة القطرية، التي وضعت مواجهة للجانب القومي في الطرح.

إن وسائل الإعلام في عصرنا، فرضت نفسها على كل فرد في المجتمع، ودخلت بيوتاً كثيرة، وأصبحت تنازع الأسرة والمدرسة في الدور، في تربية الطفل وتنشئته، إلا أننا ـ للأسف ـ أدخلناها بيوتنا ـ ونحن مجردون من سلاح المادة التي تبثها، ومن الحصانة التي تقف في وجه البرامج التي نستوردها، وما بقي لنا إلا أن نندب حظنا، وننحو باللائمة على صانعيها، وهو ندب اليائس، ولوم العاجز.

تلك كانت المؤثرات المباشرة، على الطفل العربي، وهي التي كونت رؤيته الثقافية. وهناك مؤثرات أخرى، غير مباشرة، وهي التي تشيع في المجتمع، وتمارس يومياً، وهي مؤثرات سلبية، ويستطيع المرء أن يضع يده عليها، وعلى مسبباتها، ولكنها في الوقت نفسه، تتصل بالمجتمع كله، ولعله يلقى بالتبعة فيها، على من يطلق عليهم اسم المثقفين العرب، سواء كانوا هم السبب الحقيقي، أم أنهم ظلموا وابتلوا بها، ومرد ذلك يعود، إلى أن المثقفين العرب هم الذين عالجوها، والغريب في الأمر أنهم لاموا بعضهم بعضاً، واتهم كل منهم الآخر، في تحمل

المسؤولية، ولكن الواقع غير هـذا، والقضيـة أكبر من ذلك بكثير، والأسبـاب التي أوقعتنا، في هذا التيه والضياع والارتباك تتمثل في أمور منها:

* شيوع الظلم، وانعدام، الحريات، في العديد من البيئات العـربيـة المعـاصرة، وأدى هذا الأمر، إلى انعدام الثقة بين الأفراد، وانطواء الفرد على نفسه.

* سيادة التشخيص السطحي للمشاكل الاجتماعية والثقافية، وهي قضية عنينا بها من بعيد، في تاريخنا الفكري والثقافي، وبـالبعـد عن الخـوض فيهـا بعمق، خـوض «المثقف العلمي الذي يرى الحق، ويسعى لتحقيقه»(١)، ولكن الثمن الباهظ الذي يطالب به مثقفنا، من قبل بيئتـه التي يعيش فيهـا، حـال دون السير حتى النهـايـة، وكان هذا الثمن درساً، حفظه الآخرون عن ظهر قلب، وتـذكـروه في كـل خطـوة خطوها، وكل كلمة حدثتهم أنفسهم للنطق بها، فلجأوا إلى طريق السـلامـة، بـأن مسوا الظواهر مساً خفيفاً، ولم يدخلوا فيها، وقد قاد هـذا الأمـر، إلى شيـوع ردود فعل قوية، لدى بعض التربويين والمفكرين العرب المعاصرين، حين قـال أحـدهم: «شيء واحد وحيد يحدثنا به الواقع العربي، هو الجمـود والعقم في شتى المجـالات، والعجز عن الإبداع والابتكار»، وإذا ما أراد أن يستدرك، ويبحث عن مخـرج لهـذا المأزق الذي يمر به، فإنه يراه في الطفل، الذي علينا أن نرعاه، رعـايـة مختلفـة عن تلك التي نحياها، وأوصلتنا إلى ما نحن فيه، فيقول: «وشيء واحد أساسي، ينبغي أن تتجه إليه فلسفة تربوية تريد أن تغير ذلك الواقع، هو أن نفكر بـالإنسـان الـذي نقتل قواه منذ نعومة الأظفار»(٢).

* إننا استفدنا من علوم الغرب وصناعاته، ونقلناها نقلاً، دون تمثـل للعـوامـل

---

(١) في حياتنا العقلية، ١٤٣.
(٢) التربية في البلاد العربية، ٣٣٧.

التي ساعدت على تكوينها وإنشائها، والظروف الاجتماعية التي أوجدتها، وهذا الأمر أوقعنا في مشكلة، ما كان لنا أن نخرج منها، وهي انبهارنا بما لدى الغرب، من صناعة وعلم وفن وفكر، وتمسكنا واعتزازنا، بما لدينا من تراث روحي، وحضاري، واجتماعي، وعجزنا عجزاً تاماً، عن التوفيق بين الأمرين، وقد نبه مفكرونا المعاصرون إلى هذه القضية، ودعوا للتنبه إليها، فقال مالك بن نبي: «إن أكبر خطئنا في تقدير المدنية الغربية، أننا ننظر إلى منتجاتها، وكأنها نتيجة علوم وفنون وصناعات، وننسى أن هذه العلوم والفنون والصناعات، ما كان لها أن توجد، لولا صلات اجتماعية خاصة، لا تتصور هذه الصناعات والفنون بدونها، فهي الأساس الخلقي، الذي قام عليه صرح المدنية الغربية، في علومه وفنونه، بحيث لو ألغينا ذلك الأساس، لسرى الإلغاء، على جميع ما نشاهده اليوم من علوم وفنون»(١).

إن هذه الظواهر، تؤثر في ثقافة الطفل العربي، بصورة غير مباشرة، وهي تعد مكملة للعوامل الأولى، ولا يستغنى عنها تجاهه.

وبعد، فإن الرؤية الثقافية للطفل العربي، هي امتداد للرؤية الثقافية لبقية فئات المجتمع، في مختلف سني العمر، وهي رؤية لا تدعو إلى كثير من التفاؤل في واقعها، نتيجة التخلف في مجتمعاتنا، والتجزئة التي تتوزع على أقطارنا، والاحتلال الذي يجثم فوق أرضنا، والمآسي التي تحل بشعوبنا، والفقر الذي يعانيه الكثيرون منا، والديون التي تكبل شعوباً وحكومات، فلا تجد مناصاً منها، إنها صورة واقعة قائمة مؤلمة، لا يخفف من وقعها على النفس، إلا العزيمة القوية التي لا تلين، وهي تتطلع للمستقبل باطمئنان وثقة، ودعوة صادقة تتردد على اللسان، وتستقبلها الأذن

(١) مشكلة الثقافة، ٧٧، وانظر ذلك ايضا: في حياتنا العقلية، ١٧٤.

بصوت كالصراخ: أن تطلق الحريات للتعبير عن الرأي، وأن يوضع الرجل المناسب في المكان المناسب، وأن يزداد الاهتمام بالمدرسة، وبما يرصد لوزارات التربية من ميزانيات، وأن يعنى ببرامج التلفزيون، بتوفير كل الإمكانيات المادية والبشرية، لإنتاج مادته الإعلامية، إنتاجاً عربياً، يراعي المتطلبات الذهنية والعقلية والنفسية للطفل العربي، وأن نبتعد عن المزاج والانفعال في المنهج، وأن تقفز المصلحة القومية على المصلحة القطرية الضيقة، وأن تنبع المادة بما يتلاءم مع تراثنا، وقيمنا الروحية الأصلية، وأن نفتح أبوابنا لكل مفيد للتطور والتقدم، وأن يحدث شيء من التكامل الاقتصادي، بين الأقطار العربية، لتضيق الفجوة بين الأقطار الغنية والفقيرة، وعندئذ يحدث شيء من التقارب في مستوى الحياة، وأن تفتح الحدود المغلقة بين بعض الأقطار. .

«المصادر والمراجع»

١ ـ آراء نقدية في مشكلات الفكر والثقافة. د. فؤاد زكريا، الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ ١٩٧٥م.

٢ ـ أساس البلاغة، جار الله الزمخشري، مطبعة دار الكتب المصرية ـ ١٩٧٢م.

٣ ـ أسس النمو الإنساني، د. محمد خالد الطحان، دار القلم، دبي ـ ١٩٨٧م.

٤ ـ التراث وتحديات العصر في الوطن العربي (الأصالة والمعاصرة)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ـ ١٩٨٥م.

٥ ـ التربية في البلاد العربية، حاضرها ومشكلاتها، ومستقبلها، د. عبدالله عبد الدايم. دار العلم للملايين، بيروت ـ ط٣ ـ ١٩٧٩م.

٦ ـ التكامل بين أجهزة الإعلام وأجهزة الثقافة في الوطن العربي، مجموعة من الباحثين. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. تونس ـ ١٩٨٤م.

٧ ـ رسائل الجاحظ، تحقيق عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي القاهرة، د. ت.

٨ ـ رعاية الطفولة في الإسلام، بحوث حلقة رعاية الطفولة في الإسلام، أبوظبي ـ ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م.

٩ ـ في حياتنا العقلية. د. زكي نجيب محمود، دار الشروق ببيروت، الطبعة الثانية ـ ١٤٠١هـ ١٩٨١م.

١٠ ـ مستقبل الثقافة في مصر. د. طه حسين، دار الكتاب اللبناني، بيروت ـ ١٩٧٣م.

١١ ـ مشكلة الثقافة. مالك بن نبي ـ دار الفكر ـ دمشق ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩م.

١٢ ـ هموم المثقفين. د. زكي نجيب محمود. دار الشروق، بيروت ـ ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

رثاء الأبناء في الشعر العربي

حتى نهاية العصر الأموي

مقدمة

تعد هذه الدراسة مكملة لدراسة سبقتها وصدرت من قبل، وتناولت موضوع «تربية الأبناء في الأدب العربي حتى نهاية العصر الأموي» وتأتي هذه الدراسة لتتحدث عن الأبناء من زاوية أخرى هي «رثاؤهم» في الحقبة الزمنية ذاتها.

لقد أعجبت بالموضوع، وتعلقت به، مما دفعني لمواصلة دراسته، لالتصاقه بالعاطفة، وتعبيره عنها، ولرقة الأشعار التي عالجته، وترددها على ألسنة قائليها عفو الخاطر. وأنا إلى هذا النوع من الشعر أميل من سواه.

وقد وقعت الدراسة في تمهيد وثلاثة فصول. تكلمت في التمهيد على فن الرثاء عامة، بين فنون الشعر العربي. ثم تحدثت عن رثاء الأبناء خاصة.

وفي الفصل الأول تحدثت عن الرثاء عند الآباء، تناولت فيه أشعارهم التي قالوها في رثاء أبنائهم بالتحليل والتعليق، وأبرز الوسائل الفنية التي استعانوا بها للتعبير عن عواطفهم وأحاسيسهم تجاه أبنائهم.

والفصل الثاني أفردته للحديث عن الرثاء عند الأمهات، محللا ومعلقا على أشعارهن فيه، مبينا كذلك وسائلهن الفنية.

وفي الفصل الثالث تكلمت على الخصائص الفنية لشعر رثاء الأبناء.

وبذلك فإن هذه الدراسة تعدُّ دراسة موضوعية فنية، جمعت بين الجانبين باعتبار أن كلا منهما يكمل الآخر. ومن الخطأ الاقتصار على أحدهما وإهمال الآخر.

وبعد، فأرجو ألا تخلو هذه الدراسة من الجدة والطرافة، ومن سلامة المنهج الأدبي الذي نتطلع إلى بنائه وتمتينه في الدراسات الأدبية، وأعني به التركيز في البحث، والتنقيب عن الجيد من الموضوعات التي ما زالت بكرا، ولم تبحث من قبل، والابتعاد عن التكرار في موضوع الدراسة، والتمهل في استخلاص النتائج، حيث لا مجال لإظهار الجديد ما دام قد قتل درسا.

تمهيد

كان نقاد العرب القدامى، يرون في الرثاء بابا من أبواب المديح، باعتبار أن الراثي، يعدد مناقب الميت، التي تدعو إلى البكاء عليه لأنه بفقده للميت، يكون قد فقد تلك المناقب والحسنات. ولذلك لحظنا قدامة بن جعفر يرى «أنه ليس بين المرثية والمدحة فصل إلا أن يذكر في اللفظ ما يدل على أنه لهالك، مثل: «كان» و «تولى» و «قضى نحبه» وما أشبه ذلك. وهذا لا يزيد في المعنى ولا ينقص منه، لأن تأبين الميت إنما هو بمثل ما كان يمدح به في حياته»(١). وأخذا بها الرأي فإنهم رأوا أن «أشد الرثاء صعوبة على الشاعر أن يرثي طفلاً أو امرأة لضيق الكلام عليه فيهما، وقلة الصفات»(٢).

إلا أننا، إذا علمنا أن الرثاء يبنى على شدة الجزع ـ كما قال ابن رشيق ـ وأن كل موضوع يصلح أن يكون ميدانا ينظم فيه الشاعر قصيدته، إذا ما توفرت عوامل الانفعال والتفاعل بين الشاعر وموضوعه، فما بالنا إذا كان مما يتصل بالجزع والحزن، لا شك أن هذا وحده يكفي لأن يكون الشاعر قادرا على أن يأتي بالشعر الرقيق الجميل. ومن بعيد أكد جرير رأينا هذا حينما رثى زوجته بقصيدة قيل عنها إنها أروع مراثيه.

(١) نقد الشعر ١٠٠.
(٢) العمدة ٢: ١٥٤.

وقد قسم النقاد الشعر إلى أغراض وفنون، وتكلموا عليها وعلى خصائص كل غرض منها، وقيمته الفنية. وحينما وصلوا إلى الرثاء رأيناهم يطلقون عليه أحكاماً عامة غير واضحة بحيث يصعب على الدارس أن يقول فيها رأيا قاطعا فيما عناه الناقد. فقال: «أصغر الشعر الرثاء، لأنه لا يعمل رغبة ولا رهبة»(١). فما المقصود بأصغر الشعر، أمدح هو أم ذم، وإن كان إلى الذم أقرب لأن سياق العبارة يشي بهذا لأنه» لا يعمل رغبة ولا رهبة»! وهل هذا صحيح أعني هل هناك شعر كبير وشعر صغير؟ وإذا كان شعر الرثاء «لا يعمل رغبة ولا رهبة» ألا توجد أشياء أخرى يمكن أن يعملها في نفس الفرد بحيث تؤثر فيه تأثير الرغبة والرهبة؟ هذا ما أميل إليه، ولكنني في الوقت نفسه، أرى أن السبب في موقفهم ذاك هو طغيان القضايا المادية على منهجهم في الشعر، وسيطرة شعر المدح وغلبته على أشعارهم، فجرهم هذا إلى القطع بهذا الرأي. وليس أدل على ذلك مما قاله أحمد بن يوسف الكاتب لأبي يعقوب الخريمي: «أنت في مدائحك لمحمد بن منصور كاتب البرامكة أشعر منك في مراثيك له. فقال: كنا ـ يومئذ ـ نعمل على الرجاء، ونحن نعمل اليوم على الوفاء». فإذا كان هذا هو قول الشاعر المنشىء فليس غريبا على الناقد الأخذ به وتأكيده.

وروي عن الأصمعي، أنه سأل أعرابياً عن المراثي: «ما بالها أشرف أشعارهم» فقال: « لأنا نقولها وقلوبنا محترقة»(٢) فنرى حكم الأصمعي ـ الأديب اللغوي الناقد ـ حكماً أخلاقياً، يتصل بالشرف، وكأنه أطلق حكمه ذاك لأن شعر الرثاء خلا من كل ما من شأنه أن يمس الشرف والخلق الحميد، فخلا من الفحش في القول، والغزل، والمجون، والهجاء، وخلا مما درج عليه الشعراء العرب وكان

---

(١) المصدر السابق ١: ١٢٣.

(٢) نهاية الارب ٥: ١٦٥.

تقليداً ثابتا عندهم لا يحيدون عنه، وهو افتتاح القصيدة بالنسيب وذكر الأطلال، حتى أن ابن الكلبي قال: «لا أعلم مرثية أولها نسيب إلا قصيدة دريد بن الصمة:

أرث جـديـد الحبـل من أم معـبـد

بعـاقبـة وأخلـفـت كـل مـوعـد»(١)

وعلق ابن رشيق على قصيدة دريد هذه بقوله: «وإنما تغزل دريد بعد قتل أخيه بسنة، وحين أخذ ثأره وأدرك طلبته»(٢).

هذا مجمل رأي القدامى في الرثاء بصفة عامة. وقد اقتصرت في حديثي على جانب منه وهو رثاء الأبناء، وهو الجانب الأكثر التصاقا بالعاطفة، والذي يمكن أن يخرج من دائرة الحديث التي تناولها النقاد في آرائهم وأحكامهم.

** ** **

سئل عبيدالله بن أبي بكرة عن موت أربعة هم: الأب والزوجة والأخ والولد: وما رأيه في كل واحد منهم، وأثره في نفسه، فقال عن الأب: ملك حادث، وعن الزوجة: عرس جديد، وعن الأخ: قص جناح، وعن الولد: صدع في الفؤاد لا يجبر(٣).

وقال تعالى: ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، وبشر الصابرين﴾(٤). وعلق السيوطي(٥) على هذه الآية بقوله: فسر قوم من العلماء الثمرات بالأولاد، والأعصاب...

(١) العمدة ٢: ١٥١. وانظر القصيدة في ديوان دريد بن الصمة ٤٥.
(٢) العمدة ٢: ١٥١.
(٣) عيون الاخبار ٣: ٩٢. وملك حادث: لانه يرث ويستقل بأمر نفسه. وعرس جديد: لان الزوج يتزوج اخرى. وقص جناح: كناية عن الضعف بعد القوة (سنشد عضدك بأخيك).
(٤) سورة البقرة ١٥٥.
(٥) مقامات السيوطي ٧٦.

هذان نموذجان، وقبلهما أشرنا إلى نموذج الأصمعي، وهو يتصل بفن الرثاء بصفة عامة، من حيث كونه أشرف الشعر وأصدقه، وتعليل الأعرابي لذلك، لأن الإنسان إذا فقد عزيزاً تنهمر الدموع من عينيه، ويصعب عليه تمالك نفسه وجلده، وإذا به يصيح ويصرخ، ثم يقول الشعر الذي يجد فيه سلوى لآلامه ومعاناته، فيصدر عن القلب المحترق، وإذا به أشرف الشعر. ويعبر عن العاطفة التي اكتوت بتلك النار، وإذا به أصدق الشعر.

وفي النموذج الثاني، نلحظ التفاوت في شعور الإنسان تجاه من يفقدهم، على الرغم من اعتزازه بهم جميعاً، فنرى الناس تختلف مواقفهم في هذا، فمنهم من يبكي بكاء مراً على فقيده، ومنهم من يتجلد ولا يظهر حزنه، ومنهم من يبكي بكاء صامتا غير ظاهر. لكن الحزن هو هو، على الفقيد، وإن كان للابن النصيب الأوفر فيه. ولنا في رسول الله ﷺ أسوة حسنة حينما توفي ابنه إبراهيم فرأيناه يقول، وهو يتجلد: «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا لفراقك يا ابراهيم لمحزونون»(١).

وتعليق السيوطي على الآية الكريمة يشي بما لفقد الأولاد من وقع في نفوس الآباء، ولذلك أخرج أولئك العلماء الأولاد من دائرة الأنفس، التي نص عليها الله جل شأنه في كتابه العزيز، واعتبروهم ثمرات للفؤاد عند الآباء، ونحن نعلم، أن الله تعالى، نص على الأولاد في محكم كتابه، بأنهم زينة وفتنة لآبائهم. فإذا ما ابتلى الله الآباء، فلا أشد من أن يبتليهم بأولادهم وبالنقص فيهم.

وإذا كان الأمر على هذا النحو عند العرب في موقفهم من الرثاء، بحرقته وألمه، وإذا كانوا ينظرون لفقد الولد هذه النظرة ـ صدع في الفؤاد لا يجبر ـ فهل كانت

---

(١) شرح رياض الصالحين ٧٠٠.

النظرة واحدة متقاربة عند الأم والأب في هذا الحدث الجلل، وقد توفرت لدينا المادة الغزيرة لدى الطرفين، وهي حالة ملفتة للنظر، أن تتوفر مادة شعرية متقاربة لدى الرجل والمرأة في موضوع واحد، هو رثاء الأبناء. بل إن المادة الشعرية لم تكن على هذه الحال عندهما إلا في جانبين اثنين، لهما مساس مباشر بالعاطفة الصادقة، وبالشعور الانثوي، الذي تجسد في الرقة والحنين والحب. هذان الجانبان هما: الحنين إلى الوطن، والرثاء. إذ إن المرأة وقفت جل أشعارها ـ إن لم يكن كلها ـ لهذين الجانبين، وانصبت دموعها غزيرة في حديثها عنهما. كما أن الرجل فقد كثيراً من جلده أمامهما فبكى واستبكى في معالجته لهما. فما بالنا إذا كان الرثاء يتعلق بالولد!. لقد كان الموقف مؤثراً، وقد آثرنا الحديث في هذا الموضوع عند الآباء ثم عند الأمهات كل على حدة، علنا نجد فرقا في المعالجة.

الفصل الأول
عنـد الآبـــاء

لعل أبرز الشعراء العرب الذين عرفناهم في القديم ممن رثوا أبناءهم، أبوذؤيب الهذلي الذي فقد خمسة أبناء في عام واحد فرثاهم بقصيدته العينية التي اقترنت باسمه وأصبحت مثلا أعلى لرثاء الأبناء. وبات أبو ذؤيب بين الشعراء الرجال في الرثاء كالخنساء في الموضوع ذاته بين النساء.

وقد كانت قصيدة أبي ذؤيب من القصائد الطويلة(١) التي تناولت موضوعاً واحدا، إذ جاءت في تسعة وستين بيتاً. بث فيها الشاعر آلامه ومعاناته في فقد أولاده. وإذا حاول أبو ذؤيب أن يلون قصيدته بموضوعات أخرى وكأنها غير موضوعه الأساس، إلا أنه كان يعكس ما في نفسه على كل موقف جديد. وإذا بالقصيدة تصور لنا لوحات فنية، عرضها الشاعر بأكثر من ثوب ومظهر، إلا أنها جسدت في النهاية صورة الموت وموضوعه، والفناء والهلاك الذي كان يحاول الشاعر، الهرب من، ولم يكن له منه فكاك.

في اللوحة الأولى، التي استغرقت تسعة عشر بيتاً، بدأ الشاعر بنفسه، وتحدث عما يلاقيه من عناء وحسرة وآلام، وكيف أفصح عن هذا كله وهو الرجل الجلد ذو المال الكثير:

أمن المنون وريبها تتوجع؟
والدهر ليس بمعتب من يجزع
قالت أميمة: ما لجسمك شاحبا
منذ ابتذلت ومثل مالك ينفع؟

(١) ديوان الهذليين. نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ص ١ ـ ٢١.

أم مـــا لجنبـك لا يـــلائم مضـجـعــاً
إلا أقض عـــلـــيــك ذاك المــضــجـــع

وقد قيل إن أميمة تلك هي زوجته، وهذا ما أشك فيه، اللهم إلا أن تكون امرأة أخرى غير أم أبنائه. لأن امرأة كهذه لم تكتو بثكل الابن، هي التي يهمها أن يكون زوجها متألقاً قوياً، ولا تريده شاحبا. وهي التي تنهاه لأن ماله الكثير ينفعه ويعوضه. نعم. امرأة أخرى هي التي تفصح عن حالة زوجها التي أقلقتها وأقضت مضجعها مثلما أقض مضجعه... وانظره في تصوير حالته وهو لا يستقر على حال، فما يكاد ينام على جنب، حتى ينقلب على آخر، وكأنه ينام على الحصى الذي لا يجد راحة ولا استقرارا عليه.

وأستاذنا الدكتور نوري القيسي ينكر وجود هذه المرأة أصلا ويعتبرها صورة وهمية جردها أبو ذؤيب لتسأل هذه الأسئلة وتثير الكوامن «ليكشف عن ألمه وحزنه، وليتخذ هذا المفتاح وسيلة للتعبير عن دواعي الشحوب، وأسباب الأرق، وعوامل ابتذال النفس»(١).

حتى إذا أجاب الشاعر أميمة، رأيناه يكشف عن الأسباب الكامنة وراء ذلك كله. وإذا بها أسباب تسير سيرا منطقيا من بدايتها إلى نهايتها على هذا النحو: هلاك أبنائه «أودى بني من البلاد فودعوا» ومرة أخرى يعيد الشاعر «أودى بني وأعقبوني غصة». ألا ترى في هذا التكرار «لأودى بني» شيئاً من الذهول، والرغبة في الصراخ والعويل؟ وكأنه يريد أن ينقل ما في نفسه من نار وحسرة إلى المستمع، ومن هو ذاك؟ إنه أميمة التي تلومه على حاله، كي تعذره وتشعر بشعوره. هذا ما أراه في هذا التكرار، وأكثر منه، إذ إن هذه الحالة نفسية يعيشها الانسان في مرحلة

---

(١) دراسات في الشعر الجاهلي ٩٢.

المعاناة الشديدة فيصرخ ويعيد الصراخ علّ الآخرين يسمعون فيشعرون بما يلاقيه، وهيهات لهم أن يسمعوا، وهيهات له أن يسمعهم:

فأجبتها أنْ ما لجسميَ أنه
أودى بني من البلاد فودعوا
أودى بني وأعقبوني غصة
بعد الرقادِ وعبرةً لا تقلعُ

إنها الغصة التي تلت هلاك أبنائه، فأصبح من جرائها لا يذوق النوم، ودموعه لا ترقأ لأنهم سبقوه وتتابعوا واحداً بعد الآخر، وخلفوه في عيش ونكد، وفي جهد وتعب، وهو يعلم علم اليقين أنه لاحق بهم لا محالة:

سبقوا هوي وأعنقوا لهواهمُ
فتخرموا ولكل جنب مصرعُ
فغبرتُ بعدهمُ بعيش ناصب
وإخالُ أني لاحق مستتبعُ

ثم ينتقل الشاعر للحديث عما كان يمني النفس به تجاههم، من حرص في الدفاع عنهم، وفي التفاخر بهم بين القوم، ولكن أنى له ذلك إذا ما أقبلت المنية وانقضى الأجل:

ولقد حرصتُ بأن أدافعُ عنهمُ
فإذا المنية أقبلتْ لا تدفعُ
وإذا المنية أنشبتْ أظفارها
ألفيتَ كل تميمة لا تنفعُ

---

(١) شرح رياض الصالحين ٧٠٠.

وقد عاب بعض النقاد من قديم، التكرار في العبارة، وها هو ذا أبو ذؤيب يكرر فيها للمرة الثانية، وسيكررها ثالثة ورابعة وخامسة في قصيدته، وكم أنا معجب بهذا التكرار، وكم أشعر بالتفاعل مع الشاعر وهو يكرر عباراته، التي ألمس من خلالها صدق التجربة، واللوعة التي كان يمر بها وهو يقول قصيدته.

وإذا كانت «عبرة الشاعر لا تقلع» من قبل، فإن عينه هذه المرة كأنها فقئت بشوك فأصابها العور، وباتت دائمة الدمع، وإذا به أصبح مضرب المثل في كثرة المصائب، انظره وهو يقول «كأني للحوادث مروة بصفا المشرق كل يوم تقرع» . فالمروة، حجر أبيض تقتدح منه النار، ويقال لمن كثرت مصائبه: قرعت مروته، وهكذا كانت حالته:

فالعينُ بعدهمُ كأن حداقها
سملتْ بشوك فهي عورٌ تدمعُ
حتى كأني للحوادث مروةٌ
بصفا المشرق كل يوم تقرعُ

يشعر أبو ذؤيب بأنه كثير المصائب والنكبات، مع يقينه بأن الانسان لا بد له أن يلاقي أجله المحتوم، وهي حالة عقلانية، يعود الرجل فيها إلى رشده، ويحكم عقله، وينحي عاطفته قليلا، وقليلا جدا، والغريب أن هذه الحالة لم تكن إلا من باب المكابرة أمام الأعداء، لأن شاعرنا لم يتخذ هذا الموقف لقناعته بأنه:

كل ابنِ أنثى وإن طالت سلامتهُ
يوماً على آلةِ حدباءَ محمولُ

وبأن الانسان مهما طال عمره فسوف يبكى عليه وهو لا يسمع البكاء. أقول: لم يكن موقف أبي ذؤيب من هذا المنطلق، وإلا لطابت نفسه، وقرت عينه، ورضي بالأمر الواقع، لكن موقفه نبع من (التجلد) الذي يحمل صاحبه المعاناة والتكلف،

وتكلفه هذا أمام أعدائه الذين يشعر بشماتتهم به لذلك رأيناه يقول:

وتجلـــدي للشـــامتينَ أريهـــمُ

أني لـــريب الـــدهـــرِ لا أتضعضـــعُ

ولكنه لا يستطيع الثبات على هذه الحالة، وذلك الجلد، وإذا به يعود إلى ما هو فيه من مأساة، فيصفها وهي بإيجاز: كان في عيش ناعم فتصدع، وبأهل مودته فجع!! انظره يقول:

كـم مـن جميـع الشمـل ملتئم الهـوى

بـــاتـــوا بـعـيش ناعم فتصدعوا

فلئن بهم فجـع الـزمـانُ وريبـه

إني بـــأهـــلِ مـــودتي لمفجـــعُ

وبهذا تنتهي اللوحة الأولى التي أراد الشاعر رسمها، فكانت لوحة مباشرة معبرة عن ذاتيته في فقد أبنائه.

وتأتي اللوحة الثانية ـ لوحة الموت أيضاً ـ يفتتحها الشاعر بمطلع:

«والدهر لا يبقي على حدثانه» هذا المطلع الذي يصبح لازمة له في افتتاحه للوحاته التالية. وكأنه بهذه اللازمة يريد أن ينبهنا، إلى أن صورة جديدة ستبدأ، وصورة أخرى انتهت.

تبدأ اللوحة بحكمة يمكن الأخذ بها، والتسليم بمضمونها، «الدهر لا يبقي حدثانه». وفي البيت الذي يليه، يثبت الشاعر الصدر بنصه ـ أرأيت التكرار الذي تحدثنا عنه؟ ـ ثم يقص علينا قصة حمر وحشية كلها نشاط وحيوية، وفي مكان خصيب، فيه العشب والكلأ، وفيه الماء الذي ترده، فتشرب وترتوي بلا جهد ولا عناء، هذا حالها آمنة مطمئنة.

فــوردن والـعـيـــوق مـقـعـــد رابـىء الــــ
ضربـــاء فـــوق الـنـظـم لا يـتـتـلـــع
فشرعــن في حــجـــرات عـــذب بـــارد
حـصـب الـبـطــاحِ تـغـيـبُ فـيــه الأكــرعُ

أرأيت حالها، وقد وردت الماء في آخر الليل حين طلوع كوكب العيوق فوق الجوزاء كأنه رابىء الضرباء ـ وهو الرجل الذي ينظر من يضربون بالقداح ـ وهذا الوقت تميل فيه الثريا للغروب، والعيوق خلفها قريب قرب الرقيب ـ أقولُ: وردت الماء في هذا الوقت الشاعري الذي يغلب عليه الهدوء والسكينة، وشربت الماء البارد العذب الكثير الذي كانت بطاحة ذات حصباء، وشرب الماء على حصباء يكون أعذب وأصفى. ولكن هيهات أن تدوم الهناءة والرواء لها، أو قل وهيهات لأبي ذؤيب أن يرضى لها هذا، وهو معذب من الموت وثكل الأبناء. لذلك رأيناه ينقل ما يحس به ويعانيه إليها، كي تذوق الموت، وكي يخفف عن نفسه برؤيته معاناة الآخرين، ولو كانوا من عالم الحيوان، وعلى عكس ذلك، أتراه يشعر بالرأفة والشفقة على تلك الحيوانات التي ابتليت بالموت وهي في رغد من العيش مثلما كان هو؟ ربما. ولعلي أميل إلى هذا من ذاك. انظرها كيف انقلبت حياتها من سعادة إلى شقاء:

فشربــن ثـم سـمـعـن حـســاً دونـــه
شرفُ الحجــابُ وريـب قـــرع يـقـــرعُ
ونـــمـيـمـــة مـن قـــانص مـتـلـبـب
في كـــفـــه جشءٌ أجشُّ وأقـــطـــعُ
فـنـكـــرنـــه فـنـفـــرنَ وامترستْ بـــه
سـطـعـــاءُ هـــاديـــة وهـــاد جـــرشـــعُ

فرمى فأنفذ من نجود عائط
سهماً فخر وريشهُ متصمعُ
فبدا له أقرابُ هذا رائغاً
سهماً فخرَّ وريشهُ متصمعُ
فبدا له أقرابُ هذا رائغاً
عجلاً فعيثَ في الكنانة يرجعُ
فرمى فألحق صاعدياً مطحراً
بالكشح فاشتملت عليه الأضلعُ
فأبدَّهن حتوفهن فهارب
بذمائه أو باركٌ متجعجعُ
يعثرن في حد الظبات كأنما
كسيتْ برودَ بني يزيدَ الأذرع(٣)

أرأيت كيف يحاول الكائن الحي المحافظة على حياته، والتخلص من قدره المحتوم. وكيف أن القدر يتربص به، وينقض عليه، وإذا به ليس له منه فكاك. لقد أحست الحمر بصوت غريب مريب، نتيجة استعداد الصياد لقنصها، فأنكرت الصوت وارتابت منه، فنفرت والتصقت وتجمعت، علها بتماسكها، وتراصها تجد لها مخرجا، أو قل شعرت كل واحدة منها أنه بإمكانها أن تحتمي بأختها كي لا يصيبها السهم، ولكن أنَّى لها ذلك، وهو يرميها بالسهم تلو الآخر، الأمر الذي

(١) شرف الحجاب: يريد حجاب الصائد لانه يستتر بشيء. ونميمة: صوت الوتر لانه نم عليه. ومتلبب: متحزم. والجشء: قضيب خفيف. واجش: غليظة الصوت يعني القوس. وامترست به: يعني الاتان سارت مع الفحل. وسطعاء: طويلة العنق. وهادية: متقدمة. وهاد: يعني الفحل. وجرشع: منتفخ الجبين. والنجود: الاتان الطويلة. ومتصمع: منضم. والمطحر: السهم البعيد الذهاب. وأبدهن: أي الصائد اعطى كل واحدة منهن حتفها. بذمائه: ببقية من نفسه. ومتجعجع: لاصق بالارض قد صرع.

يجعل الهرب يكاد يكون مستحيلا، وإذا بكل واحد يأخذ نصيبه ـ وأي نصيب!! إنه الموت الذي أراده أبو ذؤيب لها، كي يتحد الموضوع والموقف الذي يقفه، والذي انعكس على هذه الصورة الرمزية التي رسمها ممثلة في الحمر الوحشية والصياد.

ونصل إلى اللوحة الثالثة من لوحات «الموت» التي رسمها أبو ذؤيب، وهي مصدرة باللازمة التي اختارها مفتتحا اياها بـ «الدهر لا يبقى على حدثانه». وقصتنا هذه المرة مع ثور مسن طاردته الكلاب، وحاول جاهدا الفرار منها دون جدوى، لأنه وقع بين يدي كلاب مدربة متمرسة في مطاردة صيدها إلى أن تفترسه.

يصف الشاعر الثور وقد ارتاع من تلك الكلاب، واضطرب فؤاده، الأمر الذي جعله مرتابا من كل شيء، ويزداد فزعه كلما رأى ضوء الصباح، ذلك لأن الصائد يباكره فيه. فيحاول التخلص ولا يجد ملجأ له إلا أشجار الأرض التي اعتاد أن يحتمي بها إذا داهمته أخطار الطبيعة ممثلة في المطر، والريح الشديدة. ويبقى في قلق وخوف وهلع، يمد بصره إلى الآفاق البعيدة ليستكشف ما يخبئه له القدر، ولتتوفر لديه الفرصة الكافية للهرب إذا ما فاجأته الأخطار. فهو يسمع الحركة، ويحاول أن يصدق طرفه أذنه:

يرمي بعينيه الغيوبَ وطرفُهُ
مغضٍ، يصدق طرفه ما يسمعُ

وكم تكون الأعصاب مشدودة، والأمر على هذا النحو.

وإذا ما أشرقت الشمس، يخرج الثور ليجفف ما عليه من الندى، فتكون المفاجأة أمامه، الكلاب وهي تتسابق عليه وتقترب منه، فيهتاج ويفر، ويطلق ساقيه للريح ـ كما يقولون ـ ولكن هيهات له الفرار، وقد وقع بين براثن تلك الكلاب المدربة. وتبدأ المعركة من أجل البقاء، بعد أن يئس من الفرار، هي تنهشه، وهو يدفعها عنه ويردعها، يساعده في هذا قرنان قويان، فيصرع كلبا، وكلبا ثانيا، بل

«أقصد عصبة منها» أي قتلها، مما دعا ما تبقى منها أن ترتد عنه، وتفر منه حتى إذا ما ظن أنه انتهى من معركته، يبدو له صاحب الكلاب وبيده نصال رقاق، فيرميه بواحدة منها لينقذ بقية كلابه، وليخر الثور صريعاً ملطخاً بدمائه. إنها النهاية هي هي التي أرادها أبو ذؤيب، ولكنه في هذه اللوحة أكثر من الموت من الطرفين، الكلاب والثور. فهل يريد شاعرنا أن يصعد الموقف أكثر فأكثر، ويريد المزيد من الموت لسواه كي يشفي غليله، ويخفف من حرقة ثكله لأبنائه؟ يقول:

والدهرُ لا يبقي على حدثانه
شبب أفزته الكلابُ مروعُ
شعفَ الكلابُ الضارياتُ فؤاده
فإذا يرى الصبحَ المصدقَ يفزعُ
ويعوذُ بالأرطى إذا ما شفهُ
قطر وراحتهُ بليل زعزعُ
يرمي بعينيه الغيوبَ وطرفهُ
مغض، يصدقُ طرفهُ ما يسمع
فغدا يشرق متنهُ فبدا له
أولى سوابقها قريباً توزعُ
فاهتاج من فزع وسد فروجهُ
غبر ضوار: وافيان واجدعُ
ينهشنهُ ويذبهن ويحتمي
عبلُ الشوى بالطرتين مولعُ
فنحا لها بمذلقين كأنما
بهما من النضج المجدع أيدعُ

حتى إذا ارتدت وأقصد عصبة
منها وقام شريدها يتضرعُ
فبدا له رب الكلاب بكفه
بيض رهاف ريشهن مقزع
فرمى لينقذ فرها فهوى له
سهمٌ فأنفذَ طرتيه المنزعُ
فكبا كما يكبو فنيقُ تارزٌ
بالخبت إلا أنه هو أبرعُ(١).

وتكتمل المأساة، ويصل حد الموت أقصى مداه، في اللوحة الرابعة والأخيرة التي كللها أبو ذؤيب بالسواد، وقد تجسدت في معركة بين فارسين مغوارين تبارزا. وعهدنا بالفرسان حينما يتبارزون، يصرع أحدهما الآخر. وتكون النتيجة أن أحدهما منتصر، والآخر منهزم.

هذا ما عهدناه، أما أن تكون النتيجة الهزيمة للاثنين، وأية هزيمة؟ الموت لهما. هذا ما قل وقوعه بين المتبارزين.

---

(١) الشبب: الثور المسن. افزته: استخفته وطردته. المصدق: المضيء. الارطي: شجر ينبت بالرمل. زعزع: ريح شديدة. شرق متنه: أظهره للشمس. وتوزع: تكف وتحبس على ما تخلف منها. الفروج: ما بين القوائم. الغبر: الكلاب تضرب الى الغبرة. ضوار: قد دربت وتعودت. وافيان: لم تقطع آذانهما. أجدع: قطعت اذنه. عبل الشوى: غليظ القوائم. الطرتان: خطان يفصلان بين الجنب والبطن. مولع: فيه ألوان مختلفة. مذلقان: قرنان. الايدع: الزعفران. السفودان: واحدهما، سفود: حديدة معقفة يشوى بها اللحم. مقزع: محذف، مقدر، أي ميت. الخبت: ما اطمأن من الارض واتسع.

حدثنا شاعرنا بتلك القصة، وأفاض في وصف بطولة الفارسين، وفي كثرة المعارك التي خاضاها، حتى أن الدرع من كثرة بقائها على وجه الواحد منهما حرقته وجعلته أسود اللون. كما يفيض في وصف فرسيهما وقوتهما، وإن كان لم يوفق في وصف الفرسين مثلما وفق في وصف الفارسين. والسبب في ذلك أن الهذليين لم يكونوا أصحاب خيل، وإنما كانوا أصحاب جمال، وكانوا يغيرون رجالة، كما يخبرنا الأصمعي(١). أقول أفاض أبو ذؤيب في وصف الفارسين، ووصف سلاحهما وفرسيهما، وكأنه أراد أن يصل إلى أنهما كانا متكافئين في كل شيء، وتأتي النتيجة: إما أن لا يستطيع أحدهما القضاء على صاحبه، وهو ما يتبادر للذهن لأول وهلة، وإما أن يقتل كل منهما الآخر. وهو ما أراده الشاعر ليكون منسجما مع نفسه في القصيدة من أولها إلى آخرها. وليصل إلى النتيجة المحتومة التي طالما رددها في القصيدة، وهي أن «الدهر لا يبقي على حدثانه». أجل هذا ما أراده، وما وصل إليه، انظره يقول:

والدهرُ لا يبقي على حدثانه
مستشعرٌ حلق الحديد مقنعُ
حميتْ عليه الدرع حتى وجههُ
من حرها يوم الكريهة أرفعُ
تعدو به خوصاء يفصمُ جريها
حلق الرحالة فهي رخوٌ تمزعُ
قصرَ الصبوحَ لها فشرج لحمها
بالني فهي تنوخُ فيها الأصبعُ

(١) ديوان الهذليين ١٧.

متفلق أنساؤها عن قانىء
كالقرط ضاو وغبرُهُ لا يرضعُ
تأبي بدرتها إذا ما استكرهتْ
إلا الحميم فإنه يتبضعُ
بينا تعنقهُ الكماةُ وروغهُ
يوماً أتيحَ له جريءٌ سلفعُ
يعدو به نهش المشاشِ كأنه
صدعٌ سليمٌ رجعهُ، لا يظلعُ
فتناديا وتوافقتْ خيلاهما
وكلاهُما بطلُ اللقاء مخدعُ
متحامين المجدَ كل واثق
ببلائه واليومُ يومٌ أشنعُ
وعليهما مسرودتان قضاهما
داود أو صنعُ السوابغ تبعُ
وكلاهما في كفه يزنيةٌ
فيها سنانٌ كالمنارة أصلعُ
وكلاهما متوشحٌ ذا رونق
عضبا إذا مس الضريبة يقطعُ
فتخالسا نفسيهما بنوافذ
كنوافذ العبط التي لا ترفعُ
وكلاهما قد عاش عيشة ماجد
وجنى العلاءَ لو أن شيئاً ينفعُ

فعفت ذيولُ الريحِ بعدُ عليهما
والدهرُ يحصدُ ريبهُ ما يزرعُ(١)

صدق أبو ذؤيب: كل منهما يمكنه أن يجني العلاء والمجد، لو أن شيئاً ينجو من «الموت»!!

وبعد، فقد تناولت القصيدة موضوعات أربعة، على غرار القصيدة العربية في تعداد موضوعاتها. ولكن هل لي أن أقول: إن هذه القصيدة على الرغم مما يبدو في ظاهرها من تعدد في الموضوعات إلا أنها، في حقيقتها تعالج موضوعا واحدا هو «الموت»، الذي نلحظه من الجو النفسي العام الذي سيطر عليها من أولها إلى آخرها، وما التعدد في الموضوعات الذي يظهر لأول وهلة، ما هو إلا تنويع وتلوين في الوسائل التعبيرية التي حاكتها يد شاعرنا الفنان، فعبر عما يختلج في نفسه من حيث القضية الواحدة، بعدة صور وأساليب.

وهل لي أن أقول: إن الوحدة الموضوعية التي تمثلت في القصيدة التي بين أيدينا، تعد من المظاهر القليلة النادرة في شعرنا القديم، التي استطعنا الوقوف على حقيقتها من خلال النظرة الجديدة للقصيدة العربية القديمة، والتي تدعونا إلى المزيد منها، بالبحث عن الظلال التي يلقيها النص، والايحاء الذي يوحي به. وذلك لا يتم إلا بفهم النص فهماً إجمالياً واستنباط الفكرة الرئيسية التي بنى الشاعر قصيدته عليها. وبذلك، لا تكون النماذج قليلة نادرة كما هي الآن. بل لعلها كثيرة.

(١) مستشعر: اتخذه شعارا. أرفع: أسود. خوصاء: فرس غائرة العينين. حلق الرحالة: ابزيم السرج. رخو تمزع: تسرع في عدوها. قصر الصبوح: حبس اللبن للفرس. تنوخ: تدخل. الانساء: واحدها النساء، عرق يخرج من الورك ويستبطن الفخذ. ضاو: يابس. الغبر: بقية اللبن. الحميم: العرق. يتبضع: يتفتح بالعرق. سلفع: جرىء الصدر. نهش المشاش: خفيف القوائم في العدو. صدع: ظبي. مجدع: مجرح. مسرودتان: درعان. يزنية: قناة. العبط: شقوق في ثياب جدد.

وسار على منهج أبي ذؤيب الهذلي، هـذلي آخـر هـو صخـر الغي في رثـائه لابنـه تليد. وكاد أن يكون الشاعر مطابقاً لأبي ذؤيب في وصف حالته، وفي وسائله الفنية التي عبر بها عن حالته. الأمر الذي يدعونا للتساؤل عن سبب هذا، أهو الألم الذي تمثل في وحدة الموضوع فألح على الشاعرين في تناوله. أم هو التقليد الفني الذي دعا صخر الغي يعجب بأسلوب أبي ذؤيب، فما كان عليه إلا أن يقلـده فيـه ويسير على نهجه في رثائه لابنه؟ وهذا ما أميل إليه.

لقد ترددت أفكار أبي ذؤيب ولوحاته في قصيدة صخر الغي، فـأبـو ذؤيب كـان قلقا في منامه وكأن تحت جنبيه الحصى فلا يقدر على النوم:

أم مـــا لجنبك لا يـــلائم مـضـجـعـــاً
إلا أقضَّ عـــلـــيـــكَ ذاكَ الـمـــضـــجـــعُ

وصخر الغي لم يذق النوم وليله يطول ويشعر ألا نهاية له:

أرقـــتُ فـــبـــتُّ لم أذُقِ الـمـــنـــامـــا
ولـــيـــلـــي لا أحسُّ لـه انصرامـا

ولمسنا عند أبي ذؤيب روح الايمان، وبـأن القـدر نـافـذ لا محالـة، مهـما حـاول الانسان مكافحته أو الهرب منه فقال:

وإذا الـمـنـيـــةُ أنـشـبـتْ أظـفـــارهـــا
ألـــفـــيـــتَ كـــل تميمة لا تنـفـعُ

وإذا بالفكرة هي هي تتكرر عند صخر الغي في بيته الثاني من قصيدته، فيقول:

لـعـمـــركَ والمـنـــايـــا غـــالـبـــاتٌ
ومـــا تـغـنـي الـتـمـيـــماتُ الحـــمامـــا

والشكوى من الدهر ونوائبه وإذا به يشتت الشمل الملتئم، ويجعل العيش النـاعم

مكدرا، جاءت هذه الشكوى على لسان أبي ذؤيب في قوله:

كم من جميع الشملِ ملتئم الهوى
باتوا بعيش ناعم فتصدعوا

وأعادها صخر الغي في قصيدته حين قال:

أرى الأيام لا تبقي كريماً
ولا العصمَ الأوابدَ والنعامَا

والاستعانة بالحيوان وصراعه مع الموت من أجل الحياة يذكره صخر الغي مثلما لحظناه عند أبي ذؤيب. وتكاد تكون القصة مطابقة للأولى في ورود الحمر الوحشية الماء، وفي متعتها بوروده، وحومها حوله، وحذرها الشديد من الصائد الذي يأتيها خلسة «خفي الشخص» كي لا تراه، ومفاجآته لها بالرمي، وخوف الحمر وارتياعها منه، ولوذها بالفرار، ولكن هيهات لها أن تفر وقد دنا أجلها:

فأما ينجوا من خوف أرض
فقد لقيا حتوفهما لزاما

وقد أكد صخر الغي على شروق الشمس وما ينتظر تلك الحيوانات من مطاردة وخطر، ولذلك كان الليل يمثل لها الطمأنينة والهدوء والنهار يمثل لها الخطر الذي تحذره، فجاء على لسان أبي ذؤيب، وهو يتكلم على الثور:

شعف الكلابُ الضارياتُ فؤادهُ
فإذا يرى الصبح المصدق يفزع

وإذا ما طلع النهار، وخرج ليجفف قطرات الندى عن جسمه، بادرته كلاب الصيد:

فغدا يشرقُ متنه فبدا لهُ
أولى سوابقها قريباً توزعُ

وهكذا كانت حالة الحمر الوحشية عند صخر الغي:

فبـاتـا يحيـيـان الـلـيـل حتـى
أضـاء الـصبـحُ مبتـلجـاً وقـامـا

وتكررت المأساة معهما عند شروق الشمس:

وقـد لـقـيـا مـع الإشراق خـيـلاً
تـسـوفُ الـوحش تحسبـهـا خـيـامـا

وتأتي النتيجة التي يسعى إليها صخر الغي - مثلما سعى لها أبـو ذؤيب من قبـل - وهي الموت المحقق لهذين الحمارين الوحشيين، بعد أن دخلت الرماح في صدريهما فمزقتهما:

فشـامتْ في صـدورهمـا رمـاحـاً
مـن الـبـزني أشربـتْ الـسـامـا

لقد كان الشاعر تلميذا لأبي ذؤيب في هذه القصيدة التي قلده فيها موضوعيا وفنيا: قال:

أرقـتُ فـبـتُّ لم أذق المـنـامـا
ولـيـلي لا أحس لـه انصرامـا
لـعـمـرك والمـنـايـا غـالـبـات
ومـا تـغـني الـتـمـيـاتُ الحـمامـا
لـقـد أجـرى لمصرعـه تـلـيـدٌ
وسـاقـتـهُ المـنـيـة مـن أدامـا
إلى جَـدث بـجـنـب الجـو راس
بـه مـا حـل ثـم بـه أقـامـا
أرى الأيـام لا تـبـقـي كـريـمـاً
ولا الـعـصـمَ الأوابـدَ والـنـعـامـا

لهـــا معـن وتـــصــــدرُ في لهـــوب

بهـــا ذبـت أوائلــهـــا هـيـــامـــا

أتـيـــحَ لهــا أقـيــدرُ ذو حـشـيـف

إذا سـامـت على الملـقـات سـامـا

خـفـي الشـخصي مـقـتـدرٌ عـلـيـهـا

يـســن عـلى ثـمائلـهـا السـمامـا

فـيـبـــدرهـــا شرائـعـهـــا فـيرمـي

مقـاتـلـهـا فـيسقـيـهـا الـــزؤامـا

ولا عـلـجـانَ يـنـتـابـان روضـاً

نـضـيراً نـبـتـــهُ عـمـا تـوأمـا

كـــلا العـلـجين أصـعـرُ صـيـعـري

تخــالُ نـسيـلَ متـنيـه الثـغـامـا

فـبـــاتـا يـأمـــلان مـيـــاه بـدر

وخــافـا رامـيـاً عـنـه فـحـامـا

فـجـــاءا واردين فـــآنـســـاه

تخــالُ ســواد لمـتــه بـرامـا

فـــراغـا نـاجيين فـقـام يـرمـي

فـآبـت نبـلـهُ قـصـداً حـطـامـا

كـــأنهـــا إذا عـلـوا وجـيـنـاً

ومقـطـعُ حـرة بـعـثـا رجـامـا

يـثـيران الجـنـــادلَ كـــابـيـات

إذا جـارا معـاً وإذا استـقـامـا

فـبـــاتـا يحـيـبـان الـلـيـلَ حـتـى

أضـاء الـصـبـحُ مـبـتـلـجـاً وقـامـا

فـــإمـــا يـــنـجـــوا مـــن خـــوف أرض
فـقـــد لـقـيـــا حـتـــوفـهـــما لـــزامـــا
وقـــد لـــقـيـــا مـــع الإشراق خـيـــلاً
تـســـوف الـــوحش تحـسـبهـــا خـبـــامـــا
بـكـــل مـقـلص ذكـــر عـنـــود
يـبـــذ يـــد الـعـشـنـق والـلـجـــامـــا
فـشـــامـت في صـــدورهمـــا رمـــاحـــاً
مـن الـبـــزني أشربـت الـســـهامـــا(١).

ونبقى مع الشعراء الهذليين، في رثائهم لأبنائهم، ويطالعنا هذه المرة صخر الغي الذي يفقد ابنه تليدا، ويألم لفقده ويطول بكاؤه عليه. وإذا ما سلاه، وحالت الأيام بينه وبين وفاة ابنه، سرعان ما يتجدد بأية وسيلة لها صلة بالبكاء. ويبدو أنه أريد لصخر الغي أن لا يتوقف عن البكاء. وأنى له ذلك وحمام الأيك يقف على غصنه يبكي فراخه، أو أليفه. وهل كانت تنقطع صلة العربي في جاهليته بحمام الأيك، حتى تتاح لصخر الغي الفرصة كي ينسى؟

(١) جدث: قبر. والجو: موضع. والعصم: الوعول. والاوابد: النعام المستوحشة. والفراسن: الاكارع. والخدام: البياض. والعصمة: بياض في احدى يديها، وقد يكون في اليدين جميعا. ومعن: مياه تجري. واللهوب: واحدها لهب، وهو كالطريق في الجبل. وذبت اوائلها: أي جفت بها من العطش. وهيام: عطاش. والاقيدر: القصير العظام. والحشيف: الثوب الخلق. وسامت: مضت. والملقات: صفحات من الجبل لينة. وسام: مثلها. والثميلة: البقية من العلف او الطعام بقى في البطن. ويسن: يصب. والشرائع: الموضع الذي تشرب منه. والموت الزؤام: المعجل. وعلجان: حماران غليظان. والعم: الطوال. وتؤام: ينبت اثنين اثنين. وأصعر: فيه اعتراض من البغي والنشاط. ونسيل: ما نسل من وبره وسقط. والثغام: نبت ابيض يشبه بالشيب. وبرام: قراد. وقصدا: كسرا. والوجين: الموضع الغليظ المرتفع. وبعثا رجاما: أي يدقان الارض. والحرة: الحجارة السود. والجنادل: الحجارة. وكابيات: منتفخات عظام. ومبتلجا: مبيضا. وقاما: كفا عن العدو لما ذهب سواد الليل. وتسوف: تصيد، وأصل السوف: الشم. ومقلص: مشرف طويل. وعنود: يعترض في شق. والعشنق: الطويل، أي هو اطول من يد العشنق. ويبذ: يغلب. وشامت: ادخلت. والبزني والازني واحد: يعني اصحاب الخيل.

وحمام الأيك كان رمزاً للشعراء العرب لذكر الألف، والحبيب، والوطن والفقيد، لما يطلقه من صوت مثير يلتقي وحالة الغريب الوحيد المتلهف على رؤية حبيبه. لذلك رأينا ذكره يكثر على ألسنة الشاعر المحروم من وطنه، البعيد عنه. والعاشق الولهان الذي عناه المحبوب وغلبه الفراق، والمرأة الغريبة التي تزوجت في قوم غير قومها وتحن إليهم. والأب والأم وقد فارقهما ابن مؤقتا أو فراقا لا لقاء بعده ممثلا بالموت.

وصخر الغي واحد من هؤلاء الذين أثار حمام الأيك أشجانهم، وحرك النار الكامنة في صدورهم فاشتعلت وحرقت قلوبهم. وإذا به يعود للبكاء على ابنه تليد عند سماعه لحمامة «ترجع منطقا عجبا» ذكره بالنائحة التي تنوح على فقيدها، فما كان من شاعرنا إلا أن يتفاعل معها فتبكي هي على «ساق حر» ولدها، وهو يبكي على ولده تليد، انظره يقول(١):

وذكرني بكاي على تليد
حمامة مر جاوبت الحماما
ترجع منطقا عجباً وأوفت
كنائحة أتت نوحاً قياما
تنادي ساق حر وظلت أدعو
تليداً لا تبينُ به الكلاما
لعلك هالك إما غلامٌ
تبوأ من شمنصير مقاما(٢)

(١) ديوان الهذليين: ٢: ٦٦.
(٢) مر: موضع. وساق حر: ذكر القماري، وقيل صوته. وشمنصير: جبل.

وتستمر حالة شاعرنا مع الحمام، ولكن بأسلوب حواري مؤلم، إذ يلتقي الشاعر مع الحمامة وجها لوجه، وكل منهما يسأل عن فقيده، هي تسأل عن ابنها وهو يسأل عن ابنه. ويجيء الجواب المفجع المؤلم لكل منهما، بأن الفقيدين ذهبا بلا رجعة.

ونلحظ في الأبيات ما يشي بشدة المعاناة عند الطرفين مما يدفعهما للبكاء والعويل، فالحمامة لا تنام الليل وهي تنوح على فقيدها، وما أشد النواح في الليل والكل يرقد ولا يوجد من يخفف عليه البكاء ويدعوه للكف عما هو فيه. وصخر الغي لا يختلف عنها، فهو لا ينام ولا يهدأ له بال يسهر الليل ولا يغمض له جفن، وينوح هو أيضا، فيلتقي مع تلك النائحة، وجها لوجه، وأدرك كل منهما ما ألم بالآخر، ولذلك رأيناهما حينما سأل أحدهما الآخر، أجابا جواب العارف اليائس الميئس، وهل من حياة لمن مات وغدا «مع الأوائل من ثمود»؟ قال(١):

وما أن صوتُ نائحة بليل
بسبلل لا تنام مع الهجود
تجهنا غادين فساءلتني
بواحدها وأسأل عن تليدي
فقلت لها: فأما ساقُ حر
فبان مع الأوائل من ثمود
وقالت: لن ترى أبداً تليداً
بعينك آخر العمر الجديد
كلانا رد صاحبه بيأس
وتأنيب ووجدان بعيد(٢)

(١) المصدر السابق ٢: ٦٧.
(٢) سبلل: موضع. الهجود: النوم. العمر الجديد: يعني ان كل يوم جاء فهو جديد.

وهذلي ثالث يرثي ابنه، وهو المتنخل، ويأتينا بأسلوب ثالث ـ أيضا ـ في المعالجة. إذ إن عاطفته تغلبه ويكون الدمع وانهماره من عينيه هو المظهر الغالب على قصيدته. والتشبيهات الشائعة في وصف انهمار الماء، وانهمار الدمع استغلها الشاعر في تعبيره عن حالته التي كان يعانيها. وربما نجد للمتنخل عذرا في هذا، لأنه يتحدث عن ابنه وقد قتل قتلاً، ولذلك تكون المأساة مضاعفة، ولا يستطيع الانسان أن يتمالك نفسه أمام ذلك المصاب الجلل. فابنه مكتمل البناء والخصال، ولديه من القوة والشجاعة ما يجعله يفتخر به بين أقرانه من الآباء. ويجعله ينام قرير العين، هادىء البال، مطمئن النفس لأن لديه الفارس المغوار الذي يلبي دعوة الداعي في ظلام الليل، وعندما تحدق الأخطار. وابنه يقتل غدرا فيفقد بمقتله كل هذه الخصال، ويترك في نفسه غصة يبقى يتجرعها طوال حياته هي غصة الثأر والانتقام له من قتلته. يقف الأب أمام هذه الملمة التي ألمت به فلا يتمالك نفسه وإذا بدموعه تنهمر انهماراً كما تنهمر المياه من القربة المقطعة، وإنها تبلل كل شيء من كثرتها. ولا يكتفي الشاعر بتشبيه دمعه بهذا، بل نراه لا يتوقف طوال الدهر عن البكاء، وكأن عينه أصابها لبن شجر الصاب الذي إذا أصاب شيئاً أحرقه، وإذا أصاب العين سلقت وانهملت. أرأيت الحالة التي كان عليها الشاعر، والصور التي صور نفسه بها. إنها المعاناة التي تجسد حرقة الأب على ابنه عند مقتله قال(١):

مـا بـالُ عينكَ تبكي دمعها خضلُ
كـمـا وهـى سربُ الأخـراتِ منبـزلُ
لا تـفـتـأ الـدهـرَ في سـح بـأربعـة
كـأن إنسانها بـالصـاب مكتحـلُ

---

(١) نفسه ٢: ٣٣ والاغاني (الثقافة) ٢٣: ٢٦٠.

تبكي على رجل لم تبل جدته
خلى عليك فجاجاً بينها سبلُ
فقد عجبتُ وما بالدهر من عجب
أنى قتلت وأنت الحازمُ البطلُ
ويلمه رجلاً تأبى به غبناً
إذا تجرد لا خالٌ ولا بخلُ
السالكُ الثغرة اليقظان كالئها
مشيَ الهلوكِ عليها الخيعلُ الفضلُ
والتاركُ القرنَ مصفراً أناملهُ
كأنه من عقار قهوة ثملُ
مجدلاً يتلقى جلدهُ دمهُ
كما يقطر جذعُ النخلة القطلُ
ليس بعل كبير لا شباب به
لكن أثيلةُ صافي الوجه مقتبلُ
يجيبُ بعد الكرى لبيكَ داعيه
مجذامةٌ لهواهُ قلقلٌ وقلُ
حلوٌ ومرٌّ كعطف القدح مرته
بكل إني حذاه الليلُ ينتعلُ
فاذهب فأي فتى في الناس أحرزه
من حتفه ظلم دعج ولا جبلُ

أقــــولُ لمــــا أتــــاني الـنــــاعيــــان بــــه
لا يبعــد الــرمــحُ ذو الـنـصـلـين والــرجـلُ
رمـحٌ لـنـــا كــــان لم يـفـلــــل نـنــوءُ بــــه
تـــوفى بـــه الحـــرب والـعـــزاء والجـلـــل(١)

إنه التصوير الفني الذي يسير سيرته في رثاء الأبناء الذي يتخذ إحدى وسائله التكرار في اللفظ، وقد لمسناه عند الشاعر في مفتتح أبياته.

«ما بال عينك تبكي» ويعود مرة أخرى في البيت الثالث «تبكي على رجل» ليعبر عن معاناته ولهفته على ابنه.

ووسيلة أخرى يستعين بها الشاعر في أبياته لتصوير حالته، تلك هي صفة الشباب واكتمال الشخصية المتجسدة في الرشاقة والقوة، فهو «ليس بعل» وهو «صافي الوجه مقتبل» وهو «حلو ومر». إنها الصفات التي أضافت لصفات الفروسية الشائعة، صفات الجمال للفارس، وما كان الأمر على هذا النحو إلا من باب إعجاب الأب بابنه، ومما يشجعه على قول ذلك فيه، ولا نظنه مقبولا في أن يقول رجل عن آخر مثل هذا إلا أن يكون أباً.

وثالثة كشف عنها الأب هي أنه عليه أن يعتمد على نفسه بعد أن فقد الذي كان يعتمد عليه، فصرح تصريحا مباشرا بهذا، وإذا به يقول «لا يبعد الرمح» بعد أن فل الرمح الذي كان يدفع به الأعداء عنه، إنه الاعتراف الذي فيه حسرة ومرارة،

(١) سرب: سائل. الاخرات: جمع خرت، وهو الثقب. الغبن: بالتحريك، ضعف الرأي. لا خال ولا بخل: أي لا مخيلة فيه ولا خيلاء ولا بخل. الثغرة: مكان الخوف. الخيعل: درع يخاط أحد شقيه ويترك الاخر. الفضل: ليس في درعها ازار. قطل: مقطوع. العل: الصغير الجسم. المجذامة: الذي يقطع هواه. القلقل: الخفيف. الوقل: الجيد التصعيد في الجبل.

ولكن لا مفر للأب من الإقرار به.

ويستعير ساعدة بن جؤية الهذلي من أبي ذؤيب لازمته التي طال ما رددها وهو يرثي بنيه «والدهر لا يبقي على حدثانه». يستعيرها في الموقف ذاته، وهو يرثي ابنا له فقال(١):

أرى الدهر لا يبقي على حدثانه
أبودٌ بأطراف المناعة جلعدُ(٢)

وساعدة بن جؤية لا يختلف كثيراً عن غيره من شعراء هذيل في رثائه لابنه، إذ يمتزج الحزن والألم عنده بالضعف بعد أن فقد ركنا مهما بالنسبة له ممثلاً في ابنه. فقد رأيناه يفارقه النوم، ولا يكاد يقر له قرار، وهو يألم لحاله، ويقارن بينه وبين سواه فيجد نفسه في قلق وسهر بينما نام الآخرون في هناء ونعيم. وبقلقه هذا تشده الذكرى إلى الوراء فيسير على عادته في البكاء والذكرى الأليمة:

ألا بات من حولي نياماً ورقدا
وعاودني حزني الذي يتجددُ
وعاودني ديني فبت كأنما
خلال ضلوع الصدر شرع ممدد(٣)

وانظره في تكراره «لعاودني» في البيتين، وما يقترن بكل منهما. ففي الأولى يعاوده الحزن، وفي الثانية تعاوده حالته الأولى!!، ويريد بها ما كان قد أصابه حين ثكل بابنه وفجع به، وهي حالة تشبه توتر الأعصاب وانشدادها، كانشداد الوتر على القوس، وأين هذا؟ خلال ضلوع الصدر! عبر ابن جؤية عن هذا في وصف

(١) نفسه ١: ٢٣٨
(٢) أبود: دائم، قديم. وجلعد: صلب شديد.
(٣) ديني: عادتي. وشرع: الوتر ما دام مشدودا على القوس.

حالته، أو قل: وصف الحالة الجديدة التي تبلورت عن الحالة الأولى. فهو ينبئنا بضعفه الذي آل إليه، ويشرك معه زوجه التي لا شك في أنها تعاني ما لاقاه الأب وأكثر. فهو بفقده أصبح يحمل حملا لا طاقة له به، وأصبح بين قومه وعشيرته، مهيض الجناح لا يؤبه به، وكلما شعر بهذه المأساة التي يمر بها عادت به ذكراه إلى ذلك الذي كان يرفع شأنه ويعلي مكانته، فكان النور الذي يضيء طريقه، والدرع الذي يدافع عنه. تذكر هذا فطال ليله وازداد حزنه، قال:

ألا هل أتى أمَّ الصبيين أنني
على نأيها حملٌ على الحي مقعدُ
ومضطجعي ناب من الحي نازحٌ
وبيتٌ بناه الشوكُ يضحي ويصردُ
تذكرتُ ميتاً بالغرابة ثاوياً
فما كان ليلي بعدما طال ينفدُ
شهابي الذي أعشو الطريقَ بضوئه
ودرعي وليلُ الناس بعدكَ أسودُ
فلو نبأتك الأرضُ أو لو سمعته
لأيقنت أني كدتُ بعدكَ أكمدُ(١).

فانظره في ذكره «لأم الصبيين» وما يتركه هذا التعبير من أثر في النفس، وكيف أن الشاعر أصبح لا يجد من يخاطبه ويشعر بحاله إلا زوجه بعد أن أصبح مقعداً في حيه. ويصعد الشاعر الموقف وهو يصور الحال الذي آل إليه، وهو أنه لم تصبه

(١) يقال: نبا منزله به: لم يوافقه. ونبا جنبه عن الفراش لم يطمئن عليه. ويضحي ويصرد: أي لا يقي حرا ولا بردا. والغرابة: موضع. وأعشو الطريق بضوئه: أراها به. والكمد: الحزن الشديد، ومرض القلب.

ملمة واحدة، بل تتابعت الملمات بعدها، وإذا به يصبح نابيا نازحا عن حيه، وملمة ثالثة هي عدم قدرته على النوم وكأنه يعيش في بيت من الشوك بحيث لا يستطيع أن يضطجع على جنب. فلله ابن جؤية في هذه الحال، وقد كنا نألم لألم أبي ذؤيب حين كان جنبه «لا يلائم مضجعاً» وكان السبب في ذاك أنه كان يشعر بأنه يتقلب على الحصى! فما بالنا الآن وابن جؤية يشعر بأنه يعيش في بيت من الشوك؟!

ولم يكن شعراء هذيل بدعا في الجاهلية برثائهم ذاك، لأن عاطفة الأبوة لا تقتصر على قوم دون آخرين أو على قبيلة دون أخرى، إذ رأينا هذه العاطفة الأبوية تتسرب إلى نفوس أشد الرجال صلابة وأكثرها حمية وأنفة وإذا بها تضعف وتلين أمام الحادث الجلل الذي يواجهها ممثلا في فقدها للولد. نلحظ نموذجا من هذا الصنف من الرجال يتمثل في الفند بن شيبان أحد فرسان بكر، الذي أبلى بلاء حسناً في حرب البسوس: نلحظ هذه الشخصية ذات البأس والشدة، رقيقة وادعة ضعيفة مستسلمة أمام القدر الذي أصابها بثكل ابنها مالك فعبرت عن هذا المصاب شعراً(١):

أمالكُ إن الدهرَ غالك صرفُهُ
وأبقى علي الدهر وهو ضنينُ
لقد كورت شمسُ النهار وبدرُهُا
مضى، وأبي، إني إذاً لحَزينُ
لقد بكت العينان بعدكَ مالكُ
لهَا عند تَزهير الحصونِ رنينُ

فهو يرى الدنيا مظلمة في وجهه في الليل والنهار بذهاب القمرين، فكأنه كان النور الذي يضيء الدنيا له، وحالة شاعر كهذه لا بد أن يغلفها الحزن ويسيطر عليها

(١) رياض الادب في مراثي شواعر العرب ١٧.

البكاء ليل نهار.

ومر بنا كيف كانت حالة أبي ذؤيب الهذلي بفقد أبنائه إذ كانت حالة متميزة أطال فيها الشاعر البكاء وعبر عما في نفسه بصور وألوان مختلفة نمت على ما في حالته من معاناة. ولدينا حالة قريبة مما مر به أبو ذؤيب من حيث فقد العدد الكبير من الأبناء. بل ربما تكون هذه الحالة أشد فجيعة لأنها تصور موقف أب تجاه سبعة أبناء ماتوا دفعة واحدة، ومتى؟ بعد أن اكتملت شخصياتهم وأصبحوا رجالا مغاوير يحمون الحمى ويدفعون الضيم. وكيف؟ بوقوع صخرة عليهم فأتت على أخبارهم جميعا.

إنها المأساة التي تترك في النفس حسرة ما بعدها حسرة، إذ لو قتلوا في معركة فيها دفاع عن الشرف والعرض لكان في ذلك ما يخفف من وقع الفاجعة، أما أن تكون هذه نهايتهم، فهي ما آلمت الأب وجعلته يصرخ ويطيل الصراخ، وهو ينادي أبناءه السبعة بصفات عديدة في بيت واحد، فهم سبعة أطواد، وسبعة أبحر، وسبعة آساد، وسبعة أنجم.

نعم معه الحق في هذا، لأنه تجرع كؤوس المنايا بفقدهم، الأمر الذي جعل أيامه حزناً وأسىً في الوقت الذي غيره ينعم بالهناء والترف، وتصل معاناة الشاعر إلى قمتها في بيته الرابع حين يقول:

بلغن نسيسي وارتشفن بلالتي
وصلينني جمر الأسى المتضرم

فالنسيس بقية الروح في الجسد، والبلالة ما يبل به الحلق من ماء أو لبن، والجمر وقد صلي به لا يحتاج إلى تعليق. أصيب الرجل بهذا وهو يشعر بالضعف والوهن إذ كان في الثمانين من عمره، فهو في أمس الحاجة إلى العضد التي تدفع عنه الضيم،

وقديما رأى العرب في أبنائهم تلك العضد التي يدركون ما يشاؤون بها، وذليلهم من كان ليس ذا عضد. انظرهم يقولون(١):

مـن كـان ذا عـضـد يـدركُ ظـلامتـهُ
إن الـذلـيـل الـذي لـيـست لـه عـضـدُ
تـنـبـو يـداهُ إذا مـا قـل نـاصرهُ
ويـأنـفُ الـضـيـمَ إن أثـرى عـددُ

ولذلك رأينا صاحبنا يقول:

رزئتُ بـأعـضـادي الـذيـن بـأيـدهـم
أنـوء وأحتمي حـوزتي واحتمي

وحينما كانت حالة كذلك فإما أن تذوب نفسه كمدا، وإما أن يشوب دمعه دما وأنى له المقاومة والبقاء على حالة كهذه، فما لبثت أن وافته المنية من شدة هول صدمته التي مني بها، فلله شاعرنا الضبي الذي ردد هذه الأبيات(٢):

أسـبـعـةُ أطـواد أسـبـعـةُ أبـحـر
أسـبـعـةُ آسـاد أسـبـعـةٌ أنـجـمِ
رزئتـهـم في سـاعـة جـَرعـتـهـمُ
كـؤوس المـنـايـا تحت صـخـر مـرضـمِ
فـمـن تـلـكُ أيـامُ الـزمـان حـمـيـدةً
لـديـه فـإني قـد تـعـرقـن أعـظـمي
بـلـغـن نـسـيـسي وارتـشـفـن بـلالـتـي
وصـلـيـنـنـي جمـر الأسـى المـتـضـرمِ

(١) العقد الفريد ٢: ٤٤١.
(٢) الامالي ١: ٦١.

أحينَ رماني بالثمانين منكبٌ
من الدهر منحٍ في فؤادي بأسهمِ
رزئت بأعضادي الذين بأيدهمْ
أنوءُ وأحمي حوزتي وأحتمي
فإن لم تذبْ نفسي عليهم صبابة
فسوف أشوب دمعها بعد بالدم(١)

وتمتزج فتنة الأب بابنه وشغفه به وهو يترنم بصفاته الحميدة التي طالما أعجب العرب بها: جمال في المظهر، وأنفة في الطبع، ونصرة للمظلوم، وردع للمعتدي، ومقارعة للقرين، وحماية للجار، ورفض للذل، وتطلع للمجد. . . أقول: تمتزج هذه الفتنة بفجيعة الموت التي يعبر عنها الأب، وكأن هذ الصفات وتردادها تخفف على الأب معاناته، أستغفر الله بل إنها تزيد النار اشتعالا في الصدر، وهكذا كان زهير بن جذيمة الذي رأى أنه سيكثر من البكاء والعويل على ابنه شأس لأنه فقد بفقده تلك المثل الرفيعة والقيم السائدة في عصره. انظره وهو يبكي ويكثر من مدحه والثناء عليه، وكأنه يريد أن يأتينا بعذر يشفع له كثرة بكائه وعويله على ابنه شأس قال(٢):

بكيتُ لشأس حين خبرتُ أنه
بماء غني آخر الليل يسلبُ
لقد كان مأتاهُ الرداةَ لحتفه
وما كان لولا غرة الليل يغلبُ

---

(١) صخر مرضم: وضع بعضه على بعض. تعرقت اعظمه: أكل ما عليها من اللحم. ومنكب الدهر: مصيبته. ومنح من النحو: القصد. والأيد: القوة. أنوء أنهض بجهد ومشقة.
(٢) الاغاني (الثقافة) ١١: ١٧٣.

قتيل غني ليس شكلٌ كشكله
كذاك لعمري الحينُ للمرءِ يجلبُ
سأبكي عليه إن بكيتُ بعبرة
وحق لشأس عبرة حين تسكبُ
وحزن عليه ما حييتُ وعولة
على مثل ضوء البدر أو هوَ أعجبُ
إذا سيمَ ضيماً كان للضيم منكراً
وكان لدى الهيجاء يخشى ويرهبُ
وإن صوت الداعي إلى الخير مرة
أجابَ لما يدعو له حين يكربُ
ففرج عنه ثم كان وليه
فقلبي عليه لو بدا القلب ملهبُ(١)

فثقته بابنه كبيرة من حيث الفروسية، وإن فارسا لا يستطيع أن يواجهه وجهاً لوجه، وإن حدث هذا، فمصيره الموت. وهذه الثقة في الابن جعلت الأب يقول بأنه لا يغلب في ساح القتال والشرف. وأما أن يؤخذ على حين غرة، وفي ظلام الليل، فإن ذلك لا يمثل بطولة لقاتله لأنه «وما كان لولا غرة الليل يغلب». وابنه جميل المظهر قوي الشكيمة «ليس شكل كشكله» و «مثل ضوء البدر أو هو أعجب»!

وابنه:

إذا سيمَ ضيماً كان للضيم منكراً
وكان لدى الهيجاء يخشى ويرهبُ

(١) ماء غني: موضع. والرداه: أكمة خشنة، وموضع. الحين: الهلاك. وسيم ضيما: أي اذا أراد أحد أن يصيبه بمكروه أو ظلم وجور.

وإن صــوت الــداعــي إلى الخــير مــرة
أجــابَ لمــا يــدعــو لــه حين يكــربُ

إن ابنا كهذا حق لقلب والده حين يقتل أن يكون ملهبا مصدعا.

ويطالعنا أبو حكيم المري وهو يشفق على ابنه في أن يصيبه الذل أن توفي وتركه وحيداً. ونلحظ أبا حكيم بدعا في هذا، إذ ما عهدنا العرب في قديمهم يشفقون على الأولاد، إنما كان حالهم هذا مع بناتهم، خشية أن يرين الفقر بعدهم، والذل، لأنهم كانوا يرون في البنت ضعفا، وعرضا، وشرفا يمكن أن يمس ويهتك إذا ما غاب الأب عن البنت. عهدنا هذا عند العرب مع البنات، ولذلك قال شاعرهم(١):

لــقــد زاد الحــيــاة إلي حــبــاً
بــنــاتي إنهــن مــن الــضــعــافِ
أحــاذرُ أن يــريــنَ الــفــقــرَ بــعــدي
وأن يشربــنَ رنــقــاً بــعــد صــافِ
وأن يــعــريــن إن كسي الجــواري
فــتــنــبــو الــعينُ عــن كــرم عــجــافِ(٢)

أما ما فعله أبوحكيم المري مع ابنه حكيم حين قال(٣):

يقــرُّ بعيني وهــو يــقصرُ مــدتي
مــرورُ الــلــيــالي أن يــشــبَّ حــكــيــمُ
مخــافــةَ أن يــغــتــالــني المــوتُ دونــهُ
ويــغــشى بيــوتَ الحــي وهــو يــتــيــمُ

(١) الكامل في اللغة والادب ٣: ١٦٧.
(٢) الرنق: الكدر. وعجاف: مفردها عجفاء، ذهاب السمنة.
(٣) الحماسة ٢٨٢.

فهو أمر جديد ويكاد يكون فريداً ـ على ما نعلم. حتى إذا مات حكيم رأينا الأب يألم لفقده، ويعبر عما كان يمني نفسه في أن يشب ويكبر ويحمل نعش أبيه عند وفاته، فيقول:

وكنتُ أرجي من حكيم قيامهُ
علي إذا ما النعشُ زال ارتدانيا
فقدم قبلي نعشهُ فارتديتهُ
فيا ويحَ نفسي من رداء علانيا

وقد أكثر الآباء من ذكر هذا الذي جاء به أبوحكيم، حين صوروا ما كانوا يتمنونه في أن يقوم أبناؤهم بدفنهم عند موتهم.

وهذا واحد منهم يرى في موت ابنه أن ابنه أصبح أباً، وهو بات ابنا حين قال(١):

ألا يا سمية شبي الوقودا
لعل الليالي تؤدي يزيدا
فنفسي فداؤك من غائب
إذا ما المسارح كانت جليدا
كفانيَ الذي كنتُ أسعى له
فصار أباً لي وصرتُ الوليدا(٢)

وهذا آخر يؤنب نفسه ويلومها لأنها لم تخلص الود لابنه حين بات تحت الثرى، ويرى أنه لو كان أخلص الود لما بات إلا تحت الثرى معه، ولذلك رأيناه يعجب

(١) الكامل ٣: ١٦٨.
(٢) المسارح: الطرق التي يسرحون فيها. والجليد: يقع من السماء.

من نفسه كيف لم تفعل هذا حين أنشد(١):

ومن عجب أن بت مستشعر الثرى
وبت بما زودتني متمتعا
ولو أنني أنصفتك الود لم أبتْ
خلافكَ حتى ننطوي في الثرى معا

وقد يكون فقد الابن لا يقل وقعا على نفس أبيه من وفاته، لأن الأب في هذه الحالة لا يستطيع الهدوء على حالة، أو القطع برأي، أحي ابنه أم ميت مما يدعوه إلى أن يطيل البحث والسؤال عنه، وينطقه القلق والحزن بالشعر الذي يمكننا أن ندخله في باب الرثاء لما فيه من معاناة ووحدة في المعالجة الموضوعية.

وحارثة، أبوزيد بن حارثة يمثل هذا الصنف من الرجال الذين رثوا أبناءهم وهم أحياء أو قل رثى ابنه، وهو لا يعلم أحي هو أم ميت فقال(٢):

بكيتُ على زيد ولم أدر ما فعلْ
أحي فيرجى أم أتى دونه الأجلْ
فوالله ما أدري وإني لسائلٌ
أغالك بعدي السهل أم غالك الجبلْ
ويا ليت شعري هل لك الدهر أوبة
فحسبي من الدنيا رجوعك لي بجلْ
تذكرينه الشمسُ عند طلوعها
وتعرضُ ذكراهُ إذا غربها أفل

(١) المصدر السابق.
(٢) السيرة النبوية ١: ٢٦٤.

وإن هبت الأرواحُ هيجن ذكرهُ
فيا طول ما حزني عليه وما وجلْ
سأعملُ نص العيس في الأرض جاهداً
ولا أسأمُ التطوافَ أو تسأمُ الإبلْ
حياتي أو تأتي علي منيتي
فكل امرىء فانٍ وإن غرهُ الأجلْ(١)

فعامل الحيرة يسيطر على الأب، ولذلك أكثر من التساؤلات التي عبرت عن حيرته تلك «أحي فيرجى أم أتى دونه الأجل»؟ ويعيد «وإني لسائل: أغالك بعدي السهل أم غالك الجبل»؟ وثالثة «هل لك الدهر أوبة»؟ وكان سبب هذه التساؤلات أنه لا يدري «ولم أدر ما فعل» و «فوالله ما أدري». حتى أن شاعرنا ردد معنى عرفناه للخنساء الشاعرة المشهورة، التي كانت تعاصر حارثة، ولا أدري إن كانت هي أخذت المعنى منه، أم هو أخذه منها، أم أن الحزن أنطق الاثنين فعبر كل منهما عن المعنى ذاته، فكان هذا من باب توارد الخواطر عند الشعراء؟ فالشاعر يقول:

تذكرينه الشمسُ عند طلوعها
وتعرض ذكراه إذا غربُها أفلْ

والخنساء قالت في رثاء أخيها صخر(٢):

تذكرينه الشمسُ عند طلوعها
وأذكره لكل غروبِ شمسِ

فالتطابق تام في المعنى عندهما.. ويكاد يكون كذلك في اللفظ أيضا.

---

(١) بجل: عظيم مع جمال. وأفل: غاب. وما وجل: ما كبر، اي ما زال يافعاً.
(٢) ديوان الخنساء ٤٥.

وهبوب الرياح كان مصدراً لاثارة الأشجان والعواطف عند الشعراء، ولذلك لحظنا شاعرنا يزداد حزنه على ابنه كلما هبت الرياح، ومما يزيد في ألمه أنه ما زال فتى يافعاً لم تتقدم به السن، الأمر الذي يدعوه إلى أن يبقى طائفاً في الديار باحثاً عن ولده المفقود، مقرراً أن يبقى على حالته تلك إلى أن يجد ابنه، أو يفنى دون ذلك:

سأعملُ نص العيسِ في الأرض جاهداً
ولا أسأمُ التَطواف أَو تسأمُ الإبلْ
حياتي أو تأتي علي منيتي
فكل امرىء فان وإن غرهُ الأجلْ

وكان البكاءُ هو الوسيلة الوحيدة التي تسعف الشعراء وهم يندبون أبناءهم، وكانت العين هي التي تلبي نداءهم، فأكثروا من مخاطبة العين لتسح الدمع، وما أكثر ما لبت العيون طلبهم بالدموع الغزيرة، انظر غيلان بن سلمة وهو يرثي ابنه عامراً يقول(١):

عيني تجودُ بدمعها الهتانِ
سحاً وتبكي فارسَ الفرسانِ
يا عامُ من للخيل لما أحجمتْ
عن شدة مرهوبة وطعان
لو أستطيع جعلتُ مني عامراً
بين الضلوع وكل حي فانِ
يا عينُ بكي ذا الحزامة عامراً
للخيل يوم تواقف وطعان

(١) الاغاني (الثقافة ١٣ : ٢٠٣.

ولـــه بـتـثـلـيـثـــات شــــدةُ مــعـــلــم
مـنــــه وطـعـنـــــةُ جـــابـــــر بــن ســنـــــان
فـكـــأنـــــه صـــــافي الحــــديــــدة مخــــدمٌ
ممـــــا يحـيرُ الـفـــــرسُ لـــلـبـــــاذان(١)

فانظره في قوله: «عيني تجود بدمعها الهتان سحا» فقد قالوا:

هتنت السماء: انصبت أو هو فوق الهطل أو الضعيف الدائم أو مطر ساعة ثم يفتر ثم يعود. والسح: الصب والسيلان. فكأن شاعرنا لم يكتف بانصباب الدمع من عينه كالمطر الذي كان في كل حالاته إما قوياً في انهماره دفعة واحدة، أو دائما إذا كان ضعيفاً خفيفاً. أقول: لم يكتف الشاعر بهذا، بل أكده «بالسح».

وانصباب الدمع ذاك، كان بكاء على عامر، الذي يبكيه ويستبكي عليه، «يا عين بكّي» ثم تأتي التمنيات المستحيلة في أن الأب لو استطاع أن يجعل ابنه بين ضلوعه حفاظاً عليه لما بخل بذلك، ولكن هيهات «وكل حي فان».

وظاهرة المدح التي تحدث عنها النقاد القدامى، في باب الرثاء، حيث يبدأ الراثي في تعداد مناقب الميت، نراها تتردد في الأبيات.

فعامر «فارس الفرسان» وهو للخيل إذا أحجمت «عن شدة مرهوبة وطعان» وهو الفارس الذي جعل لنفسه علامة الشجعان في الحرب إذا اشتد وطيسها، وطعنته طعنة الفارس المقدام الذي ضرب المثل بشجاعته فشبه بجابر بن سنان.

وبمجيء الاسلام هذبت النفوس، وانتفت الروح الجاهلية بقيمها ودوافعها

(١) المعلم: الفارس جعل لنفسه علامة الشجعان في الحرب. والمخذم: القاطع. ويحير: يرد ويرجع. والباذان: اسم كان يطلق على الذين دخلوا حديثا في الاسلام.

المادية وحل الإيمان محل الكفر، وبات الإنسان يلجأ لخالقه في الملمات، وأصبحت مرضاة الله هي المبتغاة، يضحي الفرد بماله ونفسه في سبيله جل شأنه. ولذلك صار الإنسان يخفف من غلوائه وانفعالاته فيما يتعلق بأمور الحياة الدنيا على وجه الخصوص. إلا أنه في الوقت ذاته إذا أتيح له التحكم في الأمور العقلية، فمن العسير عليه التحكم في عواطفه، ولذلك يمكنني أن أقول إنه هذبها، خاصة إذا كان الأمر يتعلق بالابن ورثائه، كما هو الحال مع عقيل بن علفة المري الذي خرج ابنه فاتحا في سبيل الله، وكان نصيبه الشهادة.

نلحظ الأب تسيطر عليه الروح الإسلامية، لغة وأسلوبا ومعالجة. فهو يثكل بابنه ويألم لهذا، ولكنه يتجلد ويحافظ على توازنه ويعبر عن هذا الموقف تعبير الحكيم العاقل المثكول في آن!! فالأمر الذي خبر به، على ما فيه من اعتزاز وفخر باستشهاد ابنه في سبيل الله، إلا أنه «ثقيل» على الأب. ولا بد من التجلد الذي أبداه، وظهر للآخرين، الذين رأوا ظاهره عادياً لا تظهر عليه علامات الحزن والألم، وما دروا بما في النفس، وما يفعله ذلك «الأمر الثقيل» في داخل الأب وأعماقه! رأوا حالته تلك فسألوه: ألا يبكي على ولده الذي فقده؟ ولا يجيبهم الأب مباشرة، وإنما يرد عليهم ردا فيه دليل على حالته ومعاناته.

فالمنايا عند زهير بن أبي سلمى في الجاهلية، كانت «خبط عشواء من تصب تمته، ومن تخطىء يعمر فيهرم»، أي أن الخبط العشوائي هو الذي رآه الشاعر حين قال:

رأيت المنايا خبطَ عشواءَ من تصبْ
تمتهُ ومن تخطىء يعمر فيهرم

أما ابن علفة فقد رآها تختار اختيارا الذين تود لهم الموت، ولذلك كان موقفها من ابنه الذي اختطفته، وكأنها لها ثأر عند أبيه. وما دامت قد حققت ما تريد، فإن الموت أصبح مباحا، بعد ذلك العزيز الذي توفاه الله. أرأت بماذا أجاب الأب

أولئك الذين سألوه البكاء على ابنه؟ إنه جواب المفجوع الذي ما كان يود الكلام والإفصاح عما يعاني لولا أنه اضطر لذلك اضطرارا. قال(١):

لعمري لقد جاءت قوافلُ خبرت
بأمر من الدنيا علي ثقيلِ
وقالوا ألا تبكي لمصرع هالك
أصاب سبيل الله خير سَبيلِ
كأن المنايا تبتغي في خيارنا
لها ترة أو تهتدي بدليلِ
لتأت المنايا حيث شاءت فإنها
محللة بعد الفتى ابن عقيلِ
فتى كان مولاه يحل بنجوة
فحل الموالي بعده بمسيل(٢)

وابتلي العتبي بفقد بنيه، فأكثر من بكائه عليهم، وعبر عن حالته ببيت شعر كاد يكون مثلا أعلى لرثاء الأبناء، ولتصوير حالة الأب، إذ تجسد فيه أن الحزن الحقيقي لا يكون إلا في حالة فقد الولد:

ما عالج الحزنَ والحرارةَ في الـ
أحشاءِ من لم يمت له ولد

وإذا ما تتابع فقد أبنائه، يبقى حزنه متجدداً، ولذلك أظهر الأب ضجره وسأمه من نصيبه في الحياة فعبر عن ذلك بقوله:

---

(١) الكامل ٤: ٣٠.

(٢) ترة: ظلم ومكروه. والنجوة: ما ارتفع من الارض. والمسيل: عكسها.

كَلَّ لســـاني مــن وصــف مـــا أجـــدُ
وذقـــتُ ثـكـــلاً مـــا ذاقـــه أحـــدُ

فانظره في «كل» دليلاً على التعب والسأم والضجر، ثم انظره في «ذقت ثكلا ما ذاقه أحد» وما فيه من تصميم في الحكم، إلا أننا نجد ما يغفر للشاعر تعميمه ذاك، لما في نفسه من حرقة أوطنت في أحشائه «ذاب عليها الفؤاد والكبد»:

وأوطـنــتْ حـــرقـــةٌ حـشـــاي فـقـــد
ذاب عـلـيـهـــا الـفـؤادُ والـكـبـــدُ

ويعيد الشاعر الكرة على أحشائه والحرارة المضطرمة داخلها، ويؤكد، أنه لا يشعر بكل ذلك إلا الذي فقد الابن وثكل به، فما بالنا إذا كان صاحبنا قد فقد اثنين «ليس بينهما إلا ليال ليست لها عدد»؟ لا شك أن الحزن سيكون مضاعفاً، ولذلك رأيناه يقول(١):

كَلَّ لســـاني مــن وصــف مـــا أجـــدُ
وذقـــتُ ثـكـــلاً مـــا ذاقـــهُ أحـــدُ
وأوطـنـــت حـــرقـــة حـشـــاي فـقـــد
ذاب عـلـيـهـــا الـفـؤادُ والـكـبـــدُ
مـــا عـــالـــج الحـــزن والحـــرارة في لـــ
أحـشـــاء مـــنْ لم يـمـــت لـــه ولـــدُ
فـجـعـتُ بـــاثـنـين لـيس بـيـنـهـــا
إلا لـيـــالٍ لـيـســت لهـــا عـــددُ

(١) المصدر السابق ٤: ٢٥.

فكـــل حـــزن يبـلى عـلى قـــدم الـــدَّ
هـــــرِ وحــــــزني يجـــــده الأبــــــدُ

ونراه يردد في موضع آخر في رثاء واحد من أبنائه(٢):

وقـــاسـمـني دهـــري بـني مشـــاطـــراً
فلـــما تـقـضى شطـــرهُ عـــاد في شـطـــري
ألا لـيـــت أمـــي لم تـلــــدني ولـيـتـنـي
سبـقـتـك إذ كـنـــا إلى غـــايـــة نـجـــري
وكـنـتُ بـــه أكـنـى فـــأصبـحـتُ كـلـــما
كنيتُ بـــه فـــاضت دمـــوعـي عـلى نـحـــري
وقـــد كـنـتُ ذا نـــاب وظـفـــر عـلى الـعـــدا
فـــأصبحـتُ لا يخشـــون نـــابي ولا ظـفـــري.

أرأيت ما الذي يجعل حزن شاعرنا متجدداً، إنه اسم ابنه الـذي كني بـه، وكلـما خاطبه شخص بذلك الاسم عادت به الذكرى لولده ففاضت دموعه على نحره. ولم يقف الأمر بالعتبي عند هذه الأبيات بل نرى المعنى في بيتين آخرين له فيقول(٢):

بـــأبي وأمـــي مـن عبأتُ حـــنـــــوطـــــهُ
بـيـــدي وودعـــنـــي بـــماء شـبـــابـــهِ
كيـف السُّلُوُّ وكـيـــف صـــبري بـــعـــــده
وإذا دعـــيـــتُ فـــــإنـــــما أكـــنـــى بــــــه

فالحنوط: ما يخلط من الطيب لأكفان الموتى وأجسامهم خاصة من مسك وعنبر

(١) الحماسة ٣٩١.
(٢) الكامل ٤: ١٩.

وكافور ولا تراهم يفعلون ذلك إلا مع الأعزاء عليهم. ومن شدة حب الشاعر لابنه، عبأ حنوطه بيديه، وقد مات في عنفوان شبابه، الأمر الذي جعل سلوه له مستحيلاً.

وكان الحجاج من الذين ابتلوا بفقد أولادهم، ولم يكن يقول الشعر ولكنه أعجب بشعر الرثاء في الأبناء، وأراد أن يقال في أبنائه من الشعر ما قاله الشعراء في رثائهم لأولادهم، ولكن هيهات له ذلك وقد ظن أن شعر الرثاء كشعر المدح يطلب من الشاعر أن يقول قصيدة في مدحه أو مدح أي رجل آخر، أو قل يطلب منه أن يقول قصيدة في أي غرض من الأغراض، وإذا به يلبي الطلب فيرتجل الشعر ارتجالا.

أقول: ظن الحجاج الأمر على هذه الصورة في رثاء أبنائه، ونسي أن شعر الرثاء يقولونه وقلوبهم محترقة ـ على حد تعبير الأعرابي للأصمعي. فما بالنا إذا كان الرثاء في الأبناء، الذين مماتهم صدع في الفؤاد لا يجبر ـ كما قالوا ـ أيضاً.

وقف الحجاج هذا الموقف غير مرة مع الشعراء، وكان جوابهم له هو أنهم رأوا في أبنائهم ما لم يروه في أبنائه. قالوا: لما هلك أبان بن الحجاج وقف على قبره وتمثل «بقول زياد الأعجم:

الآن لما كنت أكمل من مشى
وافتر نابك عن شباه القارحِ
وتكاملت فيك المروءة كلها
وأعنت ذلك بالفعال الصالح

فلما انصرف إلى منزله، قال: أرسلوا خلف بن قيس الأنصاري، فأتاه:

فقال: أنشدني مرثيتك في ابنك الحسن، فأنشده:

قــــد أكـــذب الله مـن نـــعــى حـــســنـــا
لـيس لـتـكـــذيــب مـــوتـــه ثـــمـــنُ
أجـــــولُ في الــــدار لا أراكَ وفي الــــدا
ر أنـــــاسٌ جـــــوارهـــم غَبَنُ
بـــــدلـتـهــم مـــنــك لـــيــت أنهــم
أضحوا وبيني وبينـهـم عـدنُ

فقال له الحجاج: ارث ابني أبان. فقال له: إني لا أجد به ما كنت أجد بحسن. قال وما كنت تجد به؟ قال: ما رأيته قط فشبعت من رؤيته، ولا غـاب عني قـط، الا اشتقت إليه، فقال الحجاج: كذلك كنت أجد بأبان(١).

وفي خبر آخر أن الحجاج قال: «صدق والله زهير بن أبي سلمى حيث يقول:

ومــا الـعـفـــو إلا لامــرىء ذي حـفـيـظــة
متى يعفُ عن ذنب امــرىء الســوء يـلـحــجُ

فقال له يزيد بن الحكم: أصلح الله الأمير، إني قد رثيتُ ببيت إنه لشبيه بهذا. قال وما هو؟ قال: قلت:

ويـــأمـن ذو حـلـم الـعــشـيرة جـهـلـــه
عـلـيـــه، ويخـشـى جـهـلـه جـهـــلاؤهـــا

قال: فما منعك أن تقول هذا لمحمد ابني ترثيه به؟ فقال:

إن ابني والله كان أحب إلي من ابنك!!.... وكان ليزيد بن الحكم ابن يقال له عنبس، فمات فجزع عليه جزعاً شديداً وقال يرثيه:

---

(١) ذيل الامالي ٧.

جزى الله عني عنبساً كل صالحٍ
إذا كانت الأولادُ شيئاً جزاؤها
هو ابني وأمي أجرهُ لي وغرتي
على نفسه رب إليه ولاؤها
جهولٌ إذا جهلُ العشيرة يبتغى
حليمٌ ويرضى حلمهُ حلماؤها(١)

ولم يتوقف الأمر عند من لا يقولون الشعر، فيستشهدون به إذا ألمت بهم ملمة ممثلة في رثاء الأبناء على وجه الخصوص، بل إننا رأينا هذا أيضاً عند الشعراء أنفسهم، أو قل: عند فحول الشعراء. إذ رأينا بشار بن برد يردد أبياتاً لجرير عند دفنه لأحد أبنائه. ورأيناه يعجب بقصيدة لجرير رثى بها ابنه سوادة. «قال ابن سلام: ... فقلت لبشار وأي شيء لجرير في المراثي إلا التي رثى بها امرأته. فأنشدني لجرير يرثي ابنه سوادة ومات بالشام:

قالوا نصيبك من أجر فقلتُ لهم
كيف العزاءُ وقد فارقتُ أشبالي
فارقتني حين كف الدهرُ عن بصري
وحين صرتُ كعظم الرمة البالي
أمسى سوادةُ يجلو مقلتي لحم
باز يصرصرُ فوق المربأ العالي
قد كنتُ أعرفهُ مني إذا غلقتْ
رهنُ الجياد ومد الغاية الغالي

(١) الاغاني (الثقافة) ١٢ : ٢٩٢.

إن الشوي بذي الزيتون فاحتسبي
قد أسرع اليوم في عقلي وفي حالي
إلا تكن لك بالديرين معولة
فرب باكية بالرمل معوالِ
كأم بو عجول عند معهده
حنت إلى جلد منه وأوصالِ
حتى إذا عرفت أن لا حياة به
ردت هماهم حرى الجوف مثكال
زادت على وجدها وجداً وإن رجعت
في الصدر منها خطوبٌ ذات بلبال(١)

ولله جرير هو يشبه أم الصبي في بكائها بالناقة التي مات حوارها فيحشى جلده تبنا ويقرب منها لتشمه وتحن عليه وتدر اللبن:

حتى إذا عرفت أن لا حياة به
ردت هماهم حرى الجوف مثكال
زادت على وجدها وجداً وإن رجعت
في الصدر منها خطوب ذات بلبال

وانظره في قوله «ردت هماهم حرى الجوف»! وما تشي به هذه العبارة من معاناة داخلية لا يطفو على السطح منها إلا القليل. ولا أجد «الهماهم» هذه وهي الكلام غير المفهوم يردده الإنسان من «الهم»، أقول: لا أجدها تقتصر على الناقة، وإنما

---

(١) طبقات الشعراء ٤٥٧. والمصدر السابق ٨: ٩. والديوان (دار المعارف) ٥٨٤. وقوله يجلو مقلتي لحم: شبه مقلتيه بمقلتي البازي. ويصرصر: يصوت. والبلبال: شدة الهم.

تنعكس على الإنسان، وما أكثر ما همهم الإنسان ألماً وحسرة، وكأنه عجز عن الكلام ولم يقو لسانه على النطق به، ومن ماذا؟ إنه مرة أخرى من شدة الهموم التي تكمن في الصدر، مما ضاعف حزنها وألمها، وهكذا كان حال زوجته أم ابنه التي بكت إنها «بالرمل» وأكثرت عليه البكاء والعويل، في الوقت الذي مات ابنها غريبا بالديرين ولم يجد من يبكي عليه هناك.

ويعود جرير لرثاء ابنه، ولكن بأسلوب آخر هذه المرة، بأسلوب المدح لابنه - وجرير من كبار شعراء المدح - فهو يرثيه هو ومرار بن عفاف بن حليس وقد قتلا سويا، ولذلك رأيناه يصفهما بالفروسية والنجدة إذا حمي وطيس المعركة انظره يقول(١):

لله در عصابة نجدية
تركوا سوادة خلفهم ومرارا
انعي أخاك وفارساً ذا نجدة
حمساً إذا امتلأ الفجاجُ غبارا(٢)

ويفجع الفرزدق بفقد ولدين له، ويرثيهما بقصيدة عبر فيها عن حزنه عليهما، إلا أنه لم يرد أن يتحدث الحديث المباشر، وإنما رأيناه يستعين بزوجته نوار - أم ابنيه - ويتخذها وسيلة فنية لتصوير ذلك الحزن، لأنها تشاركه فيه من جهة، ولأنه يخفف عما في نفسه من جهة ثانية، دون أن يظهر ضعفه، وتجلده.

ويبدأ الفرزدق قصيدته بدعائه على الشامتين الذين شمتوا به بعد أن «شلت يده» حين فقد ابنيه، ويبدو أن الشامتين كانوا كثيرين في القديم حين يثكل الأب أبناءه، لأننا رأينا ذلك يتكرر عند الشعراء في رثاء أبنائهم.

(١) ديوان جرير: ٤٣٠.
(٢) حمسا: شديدا.

وقد شبه الشاعر نفسه بالأسد وأبناءه بالأشبال حوله، وبينما هم كذلك فإنه مهاب الجانب قويه، لا يستطيع أحد الاقتراب منه، وهو يشي بهذا التشبيه إلى الوضع الذي آل إليه بعد أن ذهبت هذه الأشبال من حوله، حين جاءت منيتهم، التي لا يوجد مهرب منها ولا دافع لها إذا ما أقبلت. وحديث المنية هو هو، واستسلام الشعراء لها هو هو أيضاً عند أبي ذؤيب، وعند ابن علفة، وعند الفرزدق، ولذلك رأيناه يقول:

أرى كل حي لا يزال طليعةً
عليه المنايا، من فروج المخارم
وما أحدٌ كان المنايا وراءه
ولو عاش أياماً طوالاً، بسالم

أدرك الشعراء هذه الحقيقة، وأثبتوها في أشعارهم، وأقروا بها، ولكن هل يكفي هذا؟ وهل إذا أقر الانسان بأمر يعني ذلك انه يستسلم له؟ في الأمور العقلية يحدث هذا، أما فيما يتعلق بالعاطفة فلا أظنه يحدث. وقد جاء الفرزدق ليؤكد هذا الظن. فهو على الرغم من قوله، بأن الانسان مهما طال أجله، فإن المنايا تلاحقه، ولا يمكن أن يكون له منها فكاك، يعود فيقول: إنه لو رأى زوجته شقت صدرها حزنا على ولديها ما لامها على ذلك! وأخال الفرزدق يعبر بهذا عن نفسه، لا عن زوجته، لأنه ينسى ويعود بالضمير على نفسه، بعد أن كان يتكلم ويسند الضمير إلى زوجته، انظره وهو يقول:

يذكرني ابني السماكان موهنا
إذا ارتفعا بين النجوم التوائم.

ألم نقل من قبل، إن الشاعر استعان بزوجته وسيلة فنية لتصوير حالته، والتعبير عنها؟ ثم يتحدث الشاعر عن الأعلام الذين سادوا في أقوامهم وكان لهم شأن كبير

ثم جاءت مناياهم وانتهى أجلهم. قال(١):

بفي الشامتين الصخرُ إن كان مسني
رزية شبلي مخدر في الضراغمِ
هزبرٌ، إذا أشبالهُ سرنَ حوله،
تشظت سباعُ الأرض من ذي النحائم
أرى كل حي لا يزال طليعة
عليه المنايا، من فروج المخارم
وما أحد كان المنايا وراءه
ولو عاش أياماً حيازيم نفسها
فلستُ ولو شقتْ حيازيم نفسها
من الوجد بعد ابني نوار، بلائم
على حزن بعد اللذين تتابعا
لها، والمنايا قاطعات التمائم
يذكرني ابني السماكان موهنا،
إذا ارتفعا بين النجوم التوائم
فقد رزىء الأقوامُ قبلي بابنهم
وإخوانهم فاقني حياءَ الكرائم(٢)

ولعل خير ما نختتم به حديثنا عن رثاء الآباء لأبنائهم، هذا الخبر الذي نقله صاحب الأغاني عن أرطأة بن زفر بن سهية، إذ كان له ابن يقال له عمرو، فمات،

(١) ديوان الفرزدق (صادر) ٢: ٢٠٦.

(٢) مخدر: من اخدر الاسد في عرينه: لزمه. وتشظت: تفرقت. والنحائم: الواحدة نحيمة، من نحم الفهد: صوت صوتاً شديدا. وفروج الطرق: متنها. والمخارم: الطرق في الجبال. والحيازيم: الواحد حيزوم: وسط الصدر. والسماكان: كوكبان نيران يقال لاحدهما السماك الرامح لان امامه كوكبا صغيرا يقال له راية السماك ورمحه، وللاخر السماك الاعزل لأنه ليس امامه شيء.

فجزع عليه حتى كاد عقله يذهب، فأقام على قبره، وضرب بيته عنده لا يفارقه حولا. ثم إن الحي أراد الرحيل بعد حوله لنجعة بغوها، فغدا على قبره، فجلس عنده، حتى إذا حان الرواح ناداه: رح يا ابن سلمى معنا! فقال له قومه: ننشدك الله في نفسك وعقلك ودينك، كيف يروح معك من مات منذ حول(فقال: أنظروني الليلة إلى الغد. فأقاموا عليه. فلما أصبح ناداه: أغد يا ابن سلمى معنا، فلم يزل الناس يذكرونه الله ويناشدونه، فانتضى سيفه، وعقر راحلته على قبره، وقال: والله لا أتبعكم، فامضوا كيف شئتم أو أقيموا. فرقوا له ورحموه، فأقاموا عامهم ذلك، وصبروا على منزلهم. وقال أرطأة يومئذ في ابنه عمرو يرثيه:

وقفتُ على قبر ابن سلمى فلم يكن
وقوفي عليه غيرَ مبكى ومجزعِ
هل أنت ابن سلمى إن نظرتك رائحٌ
مع الركب أو غاد غداة غد معي
أأنسى ابن سلمى وهو لم يأت دونه
من الدهر إلا بعض صيف ومربع
وقفتُ على جثمان عمرو فلم أجد
سوى جدث عاف ببيداء بلقع
ضربتُ عمودي بانة سموا معاً
فخرت ولم أتبع قلوصي بدعدع
ولو أنها حادتْ عن الرمس نلتها
ببادرة من سيف أشهب موقع
تركتك إن تحتي تكوسي وان تنؤ
على الجهد تخذلها توال فتصرع

فدع ذكرَ من قد حالت الأرضُ دونهُ
وفي غير من قد وارت الأرض فاطمع
وكائن ترى من ذات بث وعولة
بكت شجوها بعد الحنين المرجع
فكانت كذات البو لما تعطفت
على قطع من شلوه المتمزع
متى لا تجدهُ تنصرف لطياتها
من الأرض أو تعمدْ لإلف فتربع
عن الدهر فاصفح إنه غير معتب
وفي غير من قد وارت الأرض فاطمع(١)

وحالة ابن سهية هي حالة جرير، ووسيلته التعبيرية هي هي، البو أمام أمه، ويأسها منه، وألمها عليه. وعندما لا تجد حياة فيه تردد هماهم اليائس المستسلم للقدر.

وبعد، فهذه سيرة الآباء مع أبنائهم في رثائهم لهم: ألم وحزن، وتصوير لهما بمختلف الطرق الفنية والوسائل التعبيرية. والتقاء في النهاية عند النقطة المركزية التي كانوا يدورون حولها ويودون الوصول إليها، وهي الكشف عما في دخائل نفوسهم من حرارة، ورغبة في التخفيف من وهجها واشتعالها بالأشعار الرقيقة الجميلة المؤثرة في آن. فكيف كان حال الأمهات وموقفهن تجاه أبنائهن؟ هذا ما سنحاول معالجته والإجابة عنه في الفصل التالي.

---

(١) الاغاني: ١٢: ٢٩٢. ودعدع: كلمة يدعى بها للعاثر في معنى قم وانتعش واسلم. والاشهب: النصل برد بردا خفيفا فلم يذهب سواده كله. والموقع: هنا، الوقيع من السيوف، ما شحذ بالحجر. وتكوس: تمشي على ثلاث قوائم. وطياتها: جمع طية، وهي هنا، الوجه الذي يراد ويقصد.

الفصل الثاني

عند الأمهات

قلنا في مفتتح حديثنا إن المرأة في شعرها اشتهرت بغرضين هما شعر الحنين إلى الوطن والأهل، وشعر الرثاء. وربما يكون لها العذر في اختيارها لهذين الغرضين لأنهما الصق بعاطفتها، وأكثر تعبيراً عن حالاتها التي تنسجم وشخصيتها. وفي شعر الرثاء ربما يكون رثاء الابن من أبرز الجوانب معالجة منها.

وقد وصلتنا أشعار في رثاء الأبناء للمرأة العربية غير قليلة إذا ما قيست بالشعر الذي وصلنا للنساء. وعبرت المرأة عن لوعتها التي تنسجم وأنوثتها وضعفها، والتي صورت فداحة المواقف التي تعرضت لها بفقدها للولد الذي كثيرا ما منت النفس في أن يكون سندا وحصنا لها في النوائب والشدائد.

وتكاد تكون الصفات التي أضفيت عند الأب هي هي التي أضفيت عليه عند الأم، اللهم بعض الجوانب التي نمت على شفافية المرأة ورهافة حسها وضعفها الأنثوي، يضاف إلى ذلك الأمور المتعلقة بالرجل والتي كانت تعدُّ عيبا فيه، ولا يمكنه الإفصاح عنها، أو التصريح بها، فجاءت المرأة لتكشف عنها، كقبوله الدية في ابنه ممن قتلوه.

وهذا يقودنا إلى القول، أن لغة الشعر واحدة في الغرض الواحد، فلشعر المدح لغته ولشعر الرثاء لغته، ولشعر الهجاء لغته. . . . . التي يستخدمها الشعراء أو قل يكثير الشعراء من استخدامها. الأمر الذي لا يجعلنا نعجب إن كانت صفات المرثي

واحدة عند الرجل والمرأة. أليس كل منهما يعبر عن حسرة ومعاناة تجاه فقيد عـزيـز عليه، إن لم يكن أعز الناس عنده؟

ومن أقدم ما وصلنا من شعر النساء في رثاء ابنائهن ما قالته تمـاضر بنت الشريـد السلمية التي قتل ابنها مالك بن زهير، حذيفـة، غيلـة في حـرب داحس والغبراء، وإذا بها تعبر عن حزنها، وتضفي على ابنها صفات تجعله متميـزاً بين فتيـان قبيلتـه، بل جعلته «زين الناس طرا»! وترى أن من حق قبيلته أن تحزن عليه، لأنهـا فقـدت بفقده المدافع عن القبيلة والحمى. وتجد أن قرى الأضياف انتهى، وتلتفت إلى قبيلته فتؤنبها على تركها لفتاها وهو الذي كان يخوض غمار المعارك ويفرق الأعداء ويشتت شملهم. ثم تعود لنفسهـا ومـا أصـابهـا من الفجيعـة التي جعلت بكـاءهـا متصـلا ودمعها منهمراً كانهمار المطر من السماء. ولا تنسى أن تدعو على حذيفة القاتل الذي فجعها بفتاها الكريم: انظرها تقول(١):

كـأن العين خـالطهـا قـذاهـا
لحـزنٍ واقـع أفنـى كـراهـا
علـى ولـد وزيـن النـاس طـراً
إذا مـا النـار لم تـرمـن صـلاهـا
لئن حـزنـت بنـو عبس عـليـه
لقـد فقـدت بنـو عبس فتـاهـا
فمـن للضيـف إن هـبـت شـمالٌ
مـزعـزعـة يجـاوبهـا صـداهـا
أسيـدكـم وحـاميـكـم تـركـتـم
علـى الغبراء منـهـدمٌ رحـاهـا

(١) رياض الادب في مراثي شواعر العرب ٤٣.

تـــرى الـشـم الجـحـــاجـــح مـن بـغـيض
تـبــدد جـمـعـهـم في مـصـطـــلاهـــا
فـيـتركـهـــا إذا اضـطـــرت بـطـعـن
ويـنـهـبـهـــا إذا اشـتـجـــرت قـنـــاهـــا
حذيفةُ لا سُقـيـتَ مـن الـغـــوادي
ولا روَّتك هـاطلـة نـداهـا
كـــما أفـجـعـتـنـي بـفـتـى كـــريـم
إذا وزنـت بـنـــو عـبس عـــلاهـــا
فـــدمـعـي بـعـــده أبـــداً هـطـــولٌ
ولا يـــرقـــأ مـن عـيـنـي بـكـــاهـــا

فخصائص المرأة انعكست على الأبيات، إحساسها بالجمال، وتمكنه من نفسها، لذلك رأيناها تسقطه على ابنها «زين الناس طرا». وضعفها واستنجادها بالآخرين، وتوجيه الخطاب الذي فيه تأنيب وتقريع لهم «أسيدكم وحاميكم تركتم»؟. وشعورها بأن ابنها هو المؤهل لحماية الحي والدفاع عنه، وهوَ الكريم مقصد الأضياف، «فمن للضيف» بعده. «وإن «وزنت بنو عبس علاها». وإذا وجدت الا حيلة لها في أخذ ثأره، فإن دمعها «أبدا هطول ولا يرقأ من» عينها البكاء والعويل.

وأم قبيس الضبية لا تخرج عما رأته بنت الشريد في ابنها. إذ ترى أنه إذا اشتجر القوم وكانت الحاجة ماسة لمقارعة الأعداء، «هز ابن سعد قناة صلبة العود». أما الآن وقد واراه الثرى، فلا أحد يستطيع الوقوف في وجوه الأعداء. وإذا كانت بنت الشريد تساءلت بعد فقدها لابنها «من للضيف» فإن أم قبيس تساءلت «من للضمر القود». وإذا كان ابن بنت الشريد فتى عبس، فإن ابن أم قبيس لسانه «غير ملتبس» وقلبه «غير مزؤود».

قالت(١):

ما للخصوم إذا جد الضجاجُ بهم
بعد ابن سعد، ومن للضمر القود
ومشهد قد كفيتُ الغائبين به
في مجمع من نواصي الناس مشهود
فرجته بلسان غير ملتبس
عند الحفاظ وقلب غير مزؤود
إذا قناة امرىء أزرى بها خورٌ
هز ابن سعد قناة صلبة العود

وشعور المرأة الأنثوي المنسجم مع طبيعتها وخصائصها من ضعف وعاطفة مشبوبة يتجسد في العجز عن مواجهة الأحداث فتسلمها إلى البكاء الذي تجد فيه مخرجا لكل ما تعانيه. كل هذا نلحظه يسير سيرته عند النساء الشواعر في رثائهن لأبنائهن. ولذلك نرى الحسن هو هو عند السلكة أم السليك وهي ترثيه ففتاها جمع عناصر الحسن كلها في شخصه:

أي شيء حسن
لفتى لم يكُ لك

وابنها فارس مقدام يهابه الأعداء ويخشون مقابلته مما دعاهم إلى أن يقتلوه غيلة وغدراً:

أمريضٌ لم تعدْ
أم عدوٌّ ختلكْ

---

(١) المصدر السابق ١١٣.

وهذا يذكرنا بموقف زهير بن جذيمة مع ابنه الذي رأى فيه هذا ورأى أنه لولا غرة الليل لما غلب:

لقد كان مأتاهُ الرداه لحتفه
وما كان لولا غرة الليلَ يغلبُ

وضعف المرأة واستسلامها يوصلها إلى البكاء وتمني الموت بدلا منه لو كان في استطاعتها ذلك:

ليست نفسي قدمت
للمنايا بدلك

وهنا نلحظ عند المرأة أمراً مغايراً لما عهدناه عند الرجل. فالأم هنا تتمنى أن لو ماتت بدلا من ابنها، أما الرجل فكثيرا ما كان يتحدث عما كان يمني النفس بأن يموت قبل ابنه كي يحمله ابنه:

وكنتُ أرجي من حكيم قيامه
علي إذا ما النعشُ زالَ ارتدانيا

ووصف الابن بالشجاعة والبطولة سار على وتيرته:

طال ما قد نلت في
غير كد أملك

انظرها تقول في رثاء ولدها وهي تصور كل الذي ذكرناه(١):

طاف يبغي نجوة
من هلاكٍ فهلكْ

(١) الحماسة ٣٣١.

ليت شعري ضلة
أي شيء قتلكْ
أمريضٌ لم تعدْ
أم عدوٌّ ختلكْ
أم تولى بك ما
غالَ في الدهرِ السلك
والمنايا رصدٌ
للفتى حيث سلك
أيٌّ شيء حسن
لفتى لم يك لك
كل شيء قاتل
حين تلقى أجلك
طال ما قد نلت في
غير كد أملك
إن أمراً فادحاً
عن جوابي شغلك
سأعزي النفس إذ
لم تجبْ من سألك
ليت نفسي قدمت
للمنايا بدلك

وفي قصيدة من رثاء النساء تتكشف لنا ظاهرة قلما عالجها الشعراء لأنها تمثل طعنا فيهم، ومساسا بكرامتهم، وهي الحديث عن قبول الدية، وهذا ما كان يعير به

الرجل إذا قبل دية في ابنه. وأمراً آخر كشفت عنه القصيدة، هو خروج الأم عن طورها، وفقدانها لعوامل الاتزان والتروي أمام هذا الموقف المحزن، مما جعلها تخاطب زوجها بما لم يكن من طباع المرأة العربية، إذ شأنها أن تحترمه وتقدره، وتخاطبه بحذر وأدب ووقار، هذا ما عهدناه بالمرأة العربية. أما أن تقول لزوجها «لا سلمت من الأعادي ولا وقيت شر النائبات». و «قلبه قلب البنات». و«بعل جبان. . . . حياته أردا الحياة». أن تقول المرأة مثل هذا لزوجها، فما مرده إلا الحزن الشديد على الابن الفقيد، الذي جعل الأب يتغاضى عن هذا الطعن الذي وجه إليه، بل لقد كان في هذا ما استثار همة الأب، وجعله يهب لأخذ ثأر ابنه. لقد تجسد هذا في قصيدة أم قرفة في رثاء ابنها، وتجسد فيه أيضاً، منهج النساء في رثاء أبنائهن، من وصفهم بالفروسية والرجولة والأنفة. وصورت إحساسها وما تلاقيه من معاناة، حتى أنها تستعين «بطير الأراك»، و «الحمائم» وتتساءل، أينوح مثلها ـ وهو الذي أثر عنه البكاء والنواح ـ ولله أبو كبير الهذلي، وهو يصور بكاءه ونواحه:

ألا يا حمام الأيك فرخك حاضرٌ
وغصنك ميادٌ ففيم تنوحُ

أقول: تساءلت أم قرفة عن هذا، وهو الذي اشتهر به، وكأنها تريد أن تشعرنا، بأن بكاءها فاق ما تخصص في البكاء، وضرب به المثل فيه. قالت(١):

حذيفةُ لا سلمت من الأعادي
ولا وقيت شر النائبات
أيقتلُ قرفة قيس وترضى
بأنعام ونوق سارحات

---

(١) رياض الادب ٣٩.

أما تخشى إذا قال الأعادي
حذيفة قلبهُ قلبُ البنات
فخذ ثأراً بأطراف العوالي
وبالبيض الحداد المرهفات
وإلا خلني أبكي نهاري
وليلي بالدموع الجاريات
لعل منيتي تأتي سريعاً
وترميني سهامُ الحادثات
فذاك أحب من بعل جبان
تكون حياته أردا الحياة
فيا أسفي على المقتول ظلماً
وقد أمسى قتيلاً في الفلاة
ترى طيرُ الأراك ينوحُ مثلي
على أعلى الغصون المائلات
وهل تجد الحمائم مثل وجدي
إذا رميت بسهم من شتات
فيا يوم الرهان فجعتُ فيه
بشخص جاز عن حد الصفات
وزال على الصباح عليك ليلاً
ووجهُ البدر مسود الجهات
ويا خيلَ السباق سقيت سماً
مذابا في المياه الجاريات
لأن سباقك ألقى علينا
هموماً لا تزالُ إلى المات

وفقد الابن يؤجج النار في الصدر، ولا يجد الإنسان ما يخفف به، ويخمد اللهيب إلا البكاء. وبعد موقعة بدر «ناحت قريش على قتلاها، ثم قالت: لا تفعلوا فيبلغ ذلك محمداً وأصحابه فيشمتوا بكم، ولا تبعثوا في فداء أسراكم، حتى تيأسوا منهم، لا يتأرب عليكم محمد وأصحابه في الفداء، وكان الأسود بن المطلب قد أصيب له ثلاثة من ولده، زمعة وعقيل والحارث بنو الأسود، وكان يحب أن يبكي على بنيه، فبينما هو كذلك، إذ سمع نائحة في الليل، فقال لغلامه ـ وقد ذهب بصره ـ انظر هل أحل النحيب، وهل بكت قريش على قتلاها؟ لعلي أبكي على أبي حكيمة، يعني زمعة ـ فإن جوفي قد احترق. فلما رجع إليه الغلام قال: إنما هي امرأة تبكي على بعير لها أضلته!! فذلك حين يقول الأسود:

أتبكي أن أضل لها بعيرٌ
ويمنعها البكاء من الهجود
ولا تبكي على بكر ولكن
على بدر تقاصرت الجدود
على بدر سراة بني هصيص
ومخزوم ورهط أبي الوليد
وبكي إن بكيت على عقيل
وبكي حارثاً أسد الأسود
وبكيهم ولا تسمي جميعاً
فما لأبي حكيمة من نديد
ألا قد ساد بعدهم رجالٌ
ولولا يوم بدر لم يسودوا(١)

(١) الاغاني ٤: ٢١١. ويريد ببكر: الفتي من الابل. وببدر: اي يوم بدر.

أرأيت كيف لم تستطع السيطرة على نفسها، وحينما لم تجد بدا من البكاء ومنعت منه، تذرعت بفقد بعير لها، وفي الواقع هي «لا تبكي على بكر ولكن على بدر»!!. ثم أرأيت كيف أدرك الأسود حقيقة أمرها وهو الذي يشترك معها في المأساة، فعبر عما يجيش في صدرها بهذه الأبيات، وجعلها تنوب عنه في البكاء، ألا تراه يكرر (بكي) في أبياته لأنه لا يقدر عليها، وقد أنذر من قومه.

وقد كنت في حيرة من أمر هذا الرجل، وتلك المرأة، وأين أضع هذا الشاهد، في فصل رثاء الآباء، أم رثاء الأمهات؟ وان ما دعاني إلى إثباته هنا هو التصاق البكاء بالمرأة أكثر منه بالرجل، على الرغم من كون الأبيات للأب، والموضوع ـ على أية حال ـ لا يغير في الأمر كثيراً، إن كان الشاهد هنا أو هناك.

وفي عهد معاوية بن أبي سفيان أرشد بسر بن أرطأة ـ وكان من أنصاره ـ على ابنين لعبيد الله بن عباس بن عبدالمطلب، وهما طفلان وأمهما من بني الحارث بن كعب، فوارتهما الحارثية، فيقال: إنه أخذهما من تحت ذيلها فقتلهما، وفي ذلك تقول:

ألا مــن بــين الأخــويــ
ن أمــهــما هــي الــثــكــلى
تــســاءلُ من رأي أبــنــيــهــما
وتــســتــبــغــي فــمــا تــبــغــى

وكانت لا تعقل ولا تصغي إلا إلى قول من أعلمها أنهما قد قتلا، ولا تزال تطوف في المواسم تنشد الناس ابنيها بهذه الأبيات:

يــا مــن أحس بنيَّيَّ اللــذيــن هما
كــالــدرتين تشظى عنهما الصــدفُ

يـــا مـن أحس بـنـيَّيَّ الـلـــذيـن همـــا
سـمـعـي وطـرفي فـطـر في الـيـوم مختـطـف
يـــا مـن أحس بـنـيـي الـلـــذيـن همـــا
مـخ الـعـظـام فـمـخـي الـيـــوم مـــزدهـف
نـبئـتُ بسراً ومـــا صـــدقتُ مـــا زعـمـــوا
مـن قـــولهـم ومـن الإفـك الـــذي اقـترفـــوا
أنـحـى عـلى ودجـي طـفـلي مـــرهـفـــة
مـشـحـــوذة، وعـظـيـمُ الإفـك يـقـترف
مـــن دل والهـــة حـــرى مـفـجـعـــةَ
على صـبـيـين غـابـا إذ مـضـى الـسـلـف(١)

إن التكرار في صدر البيت ثلاث مرات، يذكرنا بالتكرار الذي لحظناه في قصيدة أبي ذؤيب الهذلي، والذي أرجعناه إلى شدة المعاناة، ودعوة المتلقي للشعور بفداحة الموقف، وللمشاركة في الإحساس والشعور.

وإن الصفات التي أضفتها الأم على الطفلين لهي مما يتلاءم مع طبيعة الموقف. فهما طفلان صغيران كالدرتين. وهما في محبتهما بالنسبة للأم كالسمع الذي تسمع به، والبصر الذي ترى به، والعقل الذي تعقل به! وهي في حالة من الوله والتيه والفجيعة مما أصابها بفقدهما، وإذا بها تسأل عمن يدلها عليهما وهي تعلم علم اليقين، أنهما غابا إلى الأبد. ولكن هيهات تقنع بهذا!!

وامرأة أخرى كان فقدها لابنها آمنها كل فقد سواه، إذ هانت عليها الدنيا وما

(١) الكامل ٤: ٢٦، والمصدر السابق ١٦: ١٩٩. وتشظى العود: تطاير شظايا. ومزدهف: من ازدهف: انحرف، واستخف. والودج: عرق في العنق.

فيها بعده. انظرها وهي تقول: «إن فقدي أياه آمنني كل فقد سواه، وإن مصيبتي به هونت علي المصائب بعده.

ثم أنشأت تقول:

كنتَ السوادَ لمقلتي
فعمي عليك الناظرُ
من شاء بعدكَ فليمتْ
فعليك كنتُ أحاذر
ليت المنازلَ والديا
رَ حفائرٌ ومقابر
إني وغيري لا محا
لة حيثُ صرت لصائر(١)

وقال الأصمعي: «حجت أعرابية ومعها ابن لها، فأصيبت به، فلما دفن قامت على قبره، وهي موجعة فقالت: والله يا بني لقد غذوتك رضيعاً، وفقدتك سريعاً، وكأنه لم يكن بين الحالين مدة التذ بعيشك فيها، فأصبحت بعد النضارة والغضارة ورونق الحياة والتنسم في طيب روائحها، تحت أطباق الثرى جسداً هامداً، ورفاتا سحيقاً، وصعيداً جروزاً. أي بني، لقد سحبت عليك الدنيا أذيال الفنا، وأسكنتك دار البلى، ورمتني بعدك نكبة الردى. أي بني، لقد أسفر لي وجه الدنيا عن صباح داج ظلامه.

ثم قالت: أي رب ومنك العدل، ومن خلقك الجور، وهبته لي قرة عين فلم تمتعني به كثيراً، بل سلبتنيه وشيكا. ثم أمرتني بالصبر، ووعدتني عليه الأجر،

---

(١) نهاية الارب ٥: ١٦٣.

فصدقت وعدك ورضيت قضاءك، فرحم الله من ترحم على من استودعته الردم، ووسدته الثرى. اللهم ارحم غربته، وآنس وحشته، واستر عورته يوم تكشف الهنات والسوءات.

فلما أرادت الرجوع إلى أهلها وقفت على قبره فقالت: إني قد تزودت لسفري، فليت شعري ما زادك لبعد طريقك، ويوم معادك.

اللهم إني أسألك له الرضا برضائي عنه. ثم قالت: استودعتك من استودعنيك في أحشائي جنينا. واثكل الوالدات ما أمض حرارة قلوبهن، وأقلق مضاجعهن، وأطول ليلهن، وأقصر نهارهن، وأقل أنسهن، وأشد وحشتهن، وأبعدهن من السرور، وأقربهن من الأحزان، فلم تزل تقول هذا ونحوه حتى أبكت كل من سمعها. وحمدت الله عز وجل، واسترجعت وصلت ركعات عند قبره وانطلقت(١)

وتطالعنا أم بقصيدة طويلة ترثي فيها ابنها، وهي من القصائد التي اتسمت بالأسلوب القصصي إذ روت فيها الأم، قصة تعلقها بابنها، وشغفها به، وحبها له، وآمالها التي علقتها عليه، وعلقها عليه أقاربه حيث شب واستوى عوده، وأصبح يثب على الخيل وثبا، وتوفرت فيه خصال حميدة كانت بشير خير وبركة. روت الأم هذا عن ابنها، وكأنها اتخذته وسيلة فنية وتمهيدا لما سيأتي من حادث جلل، يجعل القارىء مشدوداً متفاعلا مع الأحداث.

فقد كانت الخصال الحميدة التي تمتع بها نتيجة تربية حميدة، وحرص شديد من قبل الأم على ابنها، إذ لقنته كل ذلك منذ نعومة أظفاره:

---

(١) زهر الاداب ٢: ٤٥٩. وصعيد جروز: أرض لا تنبت.

ربيتُهُ دهراً أفتقهُ
في اليسر أغذوه وفي العسرِ
وجعلتُ من شغفي أنقلهُ
في الأرض بين تنائف غبرِ

ويكاد يكون ذلك الحرص الشديد سببا في وفاة ابنها وفقدها له. أو قل: لم يجدى الحرص الشديد إذا جاءت منية ابنها. فبينما هي كذلك إذ وجدت ابنها يصارع الموت فجأة، ويستنجد بها ولا تستطع نجدته، وهي التي كانت حاضرة له في كل الظروف والأحوال تلبي ما يطلبه:

فدعا لأنصره وكنتُ له
من قبل ذلك حاضر النصرَ
فعجزتُ عنه وهي زاهقة
بين الوريد ومدفع السحر

ويبقى تمني الأم الذي ذكرناه من قبل، وكانت تختلف فيه عن الأب، وهو تمنيها الموت بدلا من ابنها:

لو قيلَ تفديه بذلتُ له
مالي وما جمعتُ من وفر
أو كنت مقتدراً على عمري
آثرته بالشطر من عمري

ولكن ما حيلتها، وقد جاء أجل ابنها، وهذه «سبيل الناس كلهم»، إذا ما جاء أجلهم.

هي قصيدة، وإن كانت مؤثرة من الناحية العاطفية، إلا أنها افتقرت إلى البناء

الفني المتين إذ غلبت عليها المباشرة والخلو من التصوير والخيال. قالت(١):

يــا عـمــرو مــالي عـنـك مــن صـبر
يــا عـمــرو يــا أسفي على عـمــرو
لله يـــا عــمـــروٌ، وأي فــتــى
كـفـنـت يـــوم وضـعـت في الــقــبر
أحــشــو الــتراب عــلى مـفــارقـــه
وعــلى غــضـــارة وجـــهـــه الــنضر
حين استـــوى وعـــلا الشبــاب بـــه
وبـــدا مـنـيرَ الــوجــه كــالــبــدر
ورجـــا أقـــاربـــه مـنـــافـعـــه
ورأوا شـــمائل سـيــد غــمــر
وأهـمـــه همــي فــســاورهُ
وغــدا مــع الـغــاديـن في الـسـفــر
تـغــدو بــه شـقــراءُ سـامـيــة
مــرطــى الجــراء شــديــدة الأسر
ثـبـت الجـنــان بــه، ويـقــدمـهــا
فـلــجٌ يـقـلــبُ مـقـلـتـي صـقــر
ربــيــتـــه دهـــراً أفــتــقـــه
في الـــيسر أغــــذوه وفي الــعسر
حـتـى إذا الـتـــأمـيـــلُ أمـكـنـنـي
فـيــه قـبــيــلَ تــلاحُقِ الـشـغــر

(١) المصدر السابق ٢: ٤٦٠.

وجعلتُ من شغفي أنقله
في الأرض بين تنائف غُبر
أدعُ المزارع والحصونَ به
وأحله في المهمه القفر
ما زلت أصعده وأحدره
من قتر مومماة إلى قتر
هرباً به والموتُ يطلبه
حيث انتويتُ به ولا أدري
حتى دفعتُ به لمصرعه
سوق المعيز تساقُ للعتر
ما كان إلا أن هجعتُ له
ورمى فأغفى مطلعَ الفجر
ورمى الكرى رأسي ومال به
رمسٌ يساورُ منه كالسكر
إذ راعني صوتٌ هببتُ به
وذعرت منه أيما ذعر
وإذا منيته تساورهُ
قد كدحت في الوجه والنحر
وإذا له علقٌ وحشرجةٌ
مما يجيش به من الصدر
والموتُ يقبضهُ ويبسطه
كالثوب عند الطي والنشرْ

فـدعـا لأنصره وكـنـتُ لـه

من قـبـل ذلـك حـاضرَ الـنصر

فـعـجـزتُ عـنـه وهـي زاهـقـةٌ

بين الـوريـد ومـدفـع السحـر

فـمـضـى وأي فـتـى فـجـعـتُ بـه

جـلـت مـصـيـبـتـه عـن الـقـدر

لـو قـيـل تـفـديـه بـذلـتُ لـه

مـالي ومـا جـمـعـتُ مـن وفـر

أو كـنـت مـقـتـدراً عـلى عـمـري

آثـرتـه بـالـشـطـر من عـمـري

قـد كـنـتُ ذا فـقـر لـه، فـعـدا

ورمـى عـلي وقـد رأى فـقـري

لـو شـاء ربي كـان مـتـعـنـي

بـابـنـي وشـد بـأزره أزري

بنيتْ عـلـيـك بـنـي، أحـوج مـا

كـنـا إلـيـك، صـفـائح الـصـخـر

لا يـبـعـدنـك الله يـا عـمـري

أمـا مـضـيـت فـنـحـن بـالأثـر.

هـذي سـبـيـلُ الـنـاس كـلـهـم

لا بـد سـالـكـهـا عـلى سـفـر

أولا تـراهـم في ديـارهـم

يـتـوقـعـون وهـم عـلى ذعـر

والمـــوتُ يـــوردهـم مـــواردهـم
قسراً، فـقـد ذلـوا عـلى الـقسر(١).

إنها من القصائد القليلة الطويلة التي وصلتنا من شعر النساء، تحدثت فيها الأم بألم وحرقة عن لحظة الوفاة، وكيف لم يكن بيدها حيلة لانقاذ ابنها الذي كانت حشرجات الموت تنتابه أمام ناظريها وتزهق روحه. وتنتقل إلى التأسي والتمني الذي لا يتحقق، لو كان يفدى بالمال، أو بشطر من عمرها، ولكن هيهات، وقد فارق الحياة، عليه رحمة الله.

(١) المفارق: مواضع فرق الشعر من الرأس. غمر: جزيل العطاء. مرطى: سريعة. الأسر: القوة. فلج: حليف النصر. التنائف: جمع تنوفة، وهي الصحراء. الغبر: جمع غبراء وأراد الظلمة. الفتر، بالضم: الجانب. العتر: اسم نبات او شجر صغير. وهو ههناالذبح.

الفصل الثالث

الخصائص الفنية

كانت دراستنا تتناول رثاء الأبناء من الناحيتين الموضوعية والفنية، وقد شمل تحليلنا للنصوص هاتين الناحيتين، وما أفرادنا للحديث في هذا الفصل عن الناحية الفنية إلا من باب التركيز والكشف وتجميع تلك القضايا الفنية التي انبثت في الدراسة، كي تتضح أكثر، وكي نظهر من خلالها المميزات التي تميز هذا الفن الشعري عن إطاره العام في الرثاء، وفي بقية الفنون الشعرية الأخرى.

١ ـ ولعل أول ما يلفت النظر في هذا الشعر، أنه اقتصر الحديث فيه على الولد ولم يتعرض للبنت في الرثاء، وكان هذا عند الأب والأم على حد سواء ـ فيما وقع بين أيدينا من نصوص على الأقل ـ والأمر ليس غريباً، إذ إن العرب في قديمهم فضلوا الولد على البنت، واحتفلوا بقدوم الولد، وضاقوا بقدوم البنت. وقد بين الله سبحانه وتعالى هذا في القرآن الكريم، بين كيف كانوا يحفلون بالولد ويسعدون به، وكيف كانوا يضيقون بالبنت. وانطلاقاً من هذا فقد كانوا يتمنون موت البنت لا حياتها، ولذلك رأينا شاعرهم يقول عن ابنته:

إني وإن سيقَ إلي المهرُ
ألفٌ، وعبدانِ، وذودٌ عشرُ
أحب أصهاري إلي القبرُ(١)

(١) طبقات الشعر ٥٦١.

وإن موقفاً كهذا من أب تجاه بنته، يجعل من الصعب عليه رثاؤها إن توفيت.

ولكن هل الأم كذلك، وهي أكثر التصاقا بالبنت من الأب، وأكثر حبا لها؟ ما من شك في أن موقفها كان مغايراً لموقف الأب، وأعتقد أن ما منعها من رثاء ابنتها إلا مجاراتها لما هو شائع في المجتمع، وأما ألمها وحسرتها فقد كانت في النفس.

٢ ـ ومن خصائص هذا الشعر الوحدة الموضوعية فيه، في الوقت الذي كان أبرز خصائص الشعر العربي، في تلك الحقب، تعدد الموضوعات في القصيدة الواحدة.

وقد تميز شعر رثاء الأبناء عن بقية شعر الرثاء في أنه خلا خلوا تاما ـ فيما تعرضنا له من نصوص ـ من المقدمة الطليلة التي كانت تقليدا متبعا في الشعر عامة، واتبعها الشعراء في شعر الرثاء. أما شعر رثاء الأبناء فلم نعثر على قصيدة واحدة كان فيها ذكر لغير الرثاء، أو ذكر للأطلال.

٣ ـ لقد انفرد الآباء في رثائهم لابنائهم بالفن الذي انبث في مقطوعاتهم وقصائدهم، وعبروا عن قدرة الرجال على التصرف في المواقف مهما كانت عصيبة، بحيث يبقى الرجل قادرا على أن يعمل فكره، في كل الظروف، ولذلك جاء شعره أكثر قوة، وأجود فنا من شعر المرأة، التي غلب على شعرها المباشرة والبكاء والعويل، دون الالتفات إلى التصوير الفني في الأبيات. ومن بعيد التفت بشار بن برد إلى هذا، أعني ضعف المرأة حين قال: «لم تقل امرأة شعرا قط إلا تبين الضعف فيه»(١).

٤ ـ ظاهرة التكرار في اللفظ والعبارة: لقد شاعت هذه الظاهرة عند الرجل والمرأة على حد سواء، وما كان التكرار في رثاء الأبناء إلا من شدة الألم والتفجع،

(١) الكامل ٢: ٣٢٧.

وقد التفت ابن رشيق القيرواني إلى هذا حين قال «وأولى ما تكرر في الكلام باب الرثاء، لمكان الفجيعة، وشدة القرحة التي يجدها المتفجع»(١). وهذه الفجيعة وشدة القرحة التي تحدث عنها ابن رشيق برثاء الابناء الصق، ولذلك نجدنا لا نميل إلى ما ذهبت إليه الاستاذة بشرى الخطيب من «أن التكرار اللفظي الواسع يتضح في المعاني الحماسية في الرثاء، والتي تدخل في موضوع الشجاعة والحرب والثأر عند المرثي أولا والراثي الموتور ثانيا أكثر من غيره، وهي في هذا الباب أشد وقعا وتأثيراً من غيره من أبواب الشعر الرثائي كالحزن مثلاً لأن الحزين جداً يكون قليل الكلام كثير البكاء واللوعة، ينتظر المواساة والتعزية ويتجمل بالصبر، ويسكت طاويا قلبه على ما أصابه»(٢). وليس أدل على كثرة التكرار عند الحزين الملتاع من أبيات الحارثية في رثاء أبنيها:

يا من أحس بنيي اللذين هما
كالدرتين تشظى عنهما الصدفُ
يا من أحس بنيي اللذين هما
سمعي وطرفي فطرفي اليوم مختطفُ
يا من أحس بنيي اللذين هما
مخ العظام فمخي اليوم مزدهفُ

فشدة الحزن هي التي انطقت الأم وجعلتها تأتي بهذا التكرار في صدر الأبيات.

وشدة الحزن هي التي جعلت أبا ذؤيب يأتينا بالتكرار في قوله:

والدهر لا يبقي على حدثانه
شبب أفزته الكلاب مروع

(١) العمدة ٢: ٧٦.
(٢) الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الام ٢٣٨.

وثانية:

والـدهـر لا يبقى على حـدثـانـه
مستشعـر حلق الحـديـد مقنـع

ونراه أشد لوعة وهو يكرر عبارته، وكأنه يريد أن يصرخ ليسمع الآخرين، وليشعروا بمأساته، فتكون مشاركتهم له، انظره وهو يقول:

فـأجبتها أن مـا لجسمي إنه
أودى بـنـي مـن الـبـلاد فـودعـوا
أودى بـنـي وأعـقـبـوني غـصـة
بـعـد الـرقـاد وعـبرة لا تـقـلـع

وشدة الحزن هي التي جعلت الأب يكرر لفظ «سبعة» أربع مرات في بيت واحد حين قال:

أسـبـعـة أطـواد، أسـبـعـة أبـحـر
أسـبـعـة آسـاد، أسـبـعـة أنـجـم

٥ ـ الحوار: والحوار في رثاء الأبناء أضفى على الشعر مسحة فنية زادته جمالا وتأثيرا في النفس، حينما كان يشرك الشعراء معهم امرأة أو حمامة أو زوجاً. وأسلوب الحوار نماذجه قليلة في الشعر الجاهلي، حتى إذا عثرنا عليه في رثاء الأبناء يتكرر، فإن هذا يزيد من قيمة هذا الشعر.

لمسنا الحوار عند أبي ذؤيب في حواره هو وأميمة في قوله:

قـالـت أميـمـة: مـا لجسمك شـاحبـاً
منـذ ابتـذلت ومثـل مـالـك ينـفـع

أم مـــا لجنبك لا يـــلائم مضـجـعـــا
إلا أقض عـــلـــيــك ذاك المــضـجـــع
فـــأجبتـهـــا؛ أن مـــا لجسمـي أنـــه
أودى بـــنـــي مـــن الــبـــلاد فـــودعـــوا

والحوار مع الطير، تجسد عند صخر الغي مع الحمامة التي ناحت فرخها «ساق حر» بينما كان هو ينوح ابنه «تليدا» فقال:

ومـــا أن صـــوت نـــائحـــة بـلـيـــل
بـسـبـلـــل لا تـنـــام مـــع الهـجـــود
تجـهـنـــا غـــاديـــين فـســـاءلـتـنـــي
بـــواحـــدهـــا وأســـأل عـن تـلـيـــدي
فـقـلـت لهـــا: فـــأمـــا ســـاق حـــر
فـبـــان مـــع الأوائل مـــن ثـمـــود
وقـــالـــت: لـــن تـــرى أبـــداً تـلـيـــداً
بـعـيـنـك آخـــر الـعـمـــر الجـديـــد
كـــلانـــا رد صـــاحـبـــه بـيـــأس
وتـــأنـيـــب ووجـــدان بـعـيـــد

٦ ـ وتميز هذا الشعر عند الرجل والمرأة ـ بالإضافة إلى حديثه عن الصفات المتجسدة في الشجاعة، والفروسية، والدفاع عن القبيلة، وإغاثة الملهوف، والكرم ـ التي تنسجم مع شعر الرثاء بصفة عامة ـ تميز هذا الشعر بإضفاء صفة الجمال والحسن على الابن، وهي الصفة التي لم نعهد الشعراء يتحدثون بها عن الرجل، وإنما يتحدثون بها عن المرأة، إلا أننا رأينا الأب والأم يتحدثان بها، في معرض رثائهما، وتوجعهما على الابن الذي اكتملت فيه الصفات، حتى صفة الجمال،

ولذلك كان ابن المتنخل الهذلي:

ليس بعل كبير لا شباب به
لكن أثيلة صافي الوجه مقتبلُ

وهو كذلك:

حلوٌ ومرٌّ كعطف القدح مرته
بكل أني حذاه الليل ينتعل

وكان الأبناء كالنجوم في الجمال والحسن، بالاضافة إلى شجاعتهم وكرمهم ومنعتهم:

أسبعة أطواد، أسبعة أبحر
أسبعة آساد، أسبعة أنجم

والابن ليس شكل كشكله عند زهير بن جذيمة:

قتيل غني ليس شكل كشكله:
كذاك لعمري الحين للمرء يجلب

وتماضر بن الشريد ترى ترى أن ابنها زين الناس طراً حين قالت:

على ولد وزين الناس طرا
إذا ما النار لم تر من صلاها

والسلكة أم السليك ترى أن الحسن تجمع في شخص ابنها، انظرها وهي تقول:

أي شيء حسن
لفتى لم يك لك؟

وأم قرفة ترى ابنها جاز عن حد الصفات، وهي تقول:

فيا يوم الرهان فجعت فيه
بشخص جاز عن حد الصفات

والابن كالدرة تشظى عنها الصدف على حد تعبير الحارثية:

يا من أحسن بنيي اللذين هما
كالدرتين تشظى عنهما الصدف

وهو منير الوجه كالبدر:

أحثو التراب على مفارقه
وعلى غضارة وجهه النضر
حين استوى وعلا الشباب به
وبدا منير الوجه كالبدر

٧ ـ وكشف لنا شعر النساء خاصة، قضية أحجم الرجل عن ذكرها لأنها تشكل طعنا فيه وتقاعسا منه عن أخذ الثأر لابنه، تلك القضية هي قبول الأب الدية في ابنه طمعاً في المال والأنعام التي تقدم له، أو جبناً منه عن منازلة أعدائه، وانتقامه منهم. ولذلك رأينا الأم تعير زوجها بهذا، وترى فيه خَوَراً، الأمر الذي جعلها تتطاول عليه في الحديث والتعيير، فلا سلم من الأعادي، ولا وقي شر النائبات، وقلبه قلب البنات، وهو بعل جبان، وحياته أردأ الحياة!! وما كان هذا لو لم يقبل الدية، انظرها تقول:

حذيفة لا سلمت من الأعادي
ولا وقيت شر النائبات
أيقتل قرفة قيسٌ وترضى
بأنعام ونوق سارحات

أمــــا تخـــشـــى إذا قـــال الأعـــادي

حـــذيـفـــة قـلـبـــه قـلـب الـبـنـــات

فـــخـــذ ثـــأرا بـــأطـــراف الـعـــوالي

وبـــالـبـيـض الحـــداد المـــرهـفـــات

وإلا خــلـــنـــي أبـــكـــي نهـــاري

ولـــيـلي بـــالـــدمـــوع الجـــاريـــات

لـعـــل مـنـيـتـي تـــأتي سريـعـــا

وتـــرمـيـــنـي سـهـــام الحـــادثـــات

فـــذاك أحـب مـــن بـعـــل جـبـــان

تـكـــون حـيـــاتـــه أردا الحـيـــاة

٨ ـ ولعل شدة الحزن هي التي جعلت الشعراء يستعينون بعناصر أخرى من الطبيعة كان لها ميزة في ذهن الانسان، فاتخذها الشعراء وسيلة للتعبير عن معاناتهم. من ذلك استعانتهم بالناقة التي فقدت ابنها، فبكت عليه بكاء مرا، وقد ضرب المثل بالناقة وشدة حنينها، لذلك استعان بها جرير وهو يصف زوجته في بكائها على ابنها فقال:

إلا تـكـن لـك بـالـديـرين مـعـولـة

فـرب بـاكـيـة بـالـرمـل مـعـوال

كـأم بـو عـجـول عـنـد مـعـهـده

حـنـت إلى جـلـد مـنـه وأوصـال

ومثله كان ارطأة بن زفر بن سهية حين قال:

وكـــائن تـــرى من ذات بـث وعـــولـــة

بـكـت شجـوهـا بـعـد الحنـين المـرجـع

فكـانت كـذات البـو لمـا تعطفت
على قـطـع مـن شـلـوه المتـمـزع

ومن وسائلهم الفنية في التعبير عن حزنهم حمام الأيك الـذي لا يقـل ذكـره عن ذكر الناقة وحنينها، ولذلك لحظنا الحمامة هي التي هاجت الذكرى عند صخر الغي فقال:

وذكـرني بـكـاي عـلى تـليـد
حمـامـة مـر جـاوبـت الحـمامـا
تـرجـع منطـقـا عـجبـا وأوفـت
كـنـائحـة أتـت نـوحـا قـيـامـا
تـنـادي سـاق حـر وظـلـت أدعـو
تـليـدا لا تـبـين بـه الـكـلامـا

ومرة أخرى يلتقي الحمامة وهي نائحة بالليل:

ومـا إن صـوت نـائحـة بـلـيـل
بـسـبـلـل لا تـنـام مـع الهـجـود
تجـهـنـا غـاديـين فـسـاءلـتـني
بـواحـدهـا وأسـأل عـن تـليـدي

ومنه ما ذكرته أم حذيفة وهي ترثي ابنها، وإذا بها تتساءل:

تـرى طـير الأراك يـنـوح مـثـلي
عـلى أعـلى الـغـصـون المـائلات
وهـل تجـد الحـمائم مثـل وجـدي
إذا رمـيـت بـسـهـم مـن شـتـات

ومما استعانوا به في تصوير حرقتهم، واشتعال الحرارة في نفوسهم وعيونهم النباتات الصحراوية التي كانت تؤذي العين إذا أصابتها، أو جاء ماؤها فيها. ومن هذه النباتات «الصاب» الذي كانت مياهه مشهورة بإيذائها للعين إذا ما تعرضت لها، فتلتهب العين، وتبقى دموعها منهمرة، ولذلك رأيناهم يشبهون حالتهم وهم يبكون بكاء مرا مستمرا، كأن عيونهم أصابها الصاب، وانظرهم يقولون:

ما بال عينك تبكي دمعها خضل
كما وهي سرب الآخرات منبزل
لا تفتأ الدهر في سح بأربعة
كأن انسانها بالصاب مكتحل

أو أن تسمل حداق العين بالشوك، فهي ـ عندئذ ـ عور تدمع، وهكذا كان حال أبي ذؤيب في بكائه على أبنائه:

فالعين بعدهم كأن حداقها
سملت بشوك فهي عور تدمع

وثالثة يشبهون دمعهم بالسحابة التي ينزل مطرها بشدة وهكذا كان حال غيلان ابن سلمة:

عيني تجود بدمعها الهتان
سحا وتبكي فارس الفرسان

٩ ـ واذا كان أثر عن العربي رباطة جأشه، وقوة تحمله للمصاعب والمشاق، فانه في حالة فقده للابن، يفلت الزمام من يده، ولذلك رأيناه «متجلدا»، ولكن هيهات، وهو يذرف الدمع ويظهر اللوعة والحزن، الأمر الذي جعل ظاهرة قوة التحمل يكاد يفقدها الأب في هذا الجانب بالذات.

وقد اقترنت قضية التجلد بشماتة الأعداء، وكأن الأب كان يشعر بالضعف، لكنه إذا ما تذكر أعداءه والشامتين به، يصحو من غفلته، ويعلن تجلده وصبره، وأنه ما زال بخير، قويا، شجاعا، قال أبوذؤيب:

وتجلدي للشامتين أريهم
أني لريب الدهر لا أتضعضع

١٠ ـ وحاول الأب والأم أن يبحثا عن وسيلة يتسليان بها، ليخفف كل منهما عن نفسه، وكان أقوى الوسائل، ذكرهم للمنية، وأن الإنسان إذا جاءت منيته، فلا مفر له منها، ومهما طال عمره، فلا بد أن يلقى أجله، ولذلك قال أبوذؤيب:

ولقد حرصت بأن أدافع عنهم
فإذا المنية أقبلت لا تدفع
وإذا المنية أنشبت أظفارها
ألفيت كل تميمة لا تنفع

وصخر الغي يقول:

لعمرك والمنايا غالبات
وما تغني التميمات الحماما

والفرزدق قال:

أرى كل حي لا يزال طليعة
عليه المنايا، من فروج المخارم
وما أحد كان المنايا وراءه
ولو عاش أياما طوالا، بسالم

والسلكة أُم السليك قالت:

والمنايا رُصَّدٌ
للفتي حيث سلك

١١ ـ ولغة الشعر في رثاء الأبناء كانت منسجمة مع الموقف الذي عالجه الشعراء، فقد دارت هذه اللغة حول ألفاظ وتعابير ووسائل تمثلت في: البكاء، الثكل، فقد الفارس، والجواد، والكريم، والمدافع عن القبيلة والحمى والعرض، وإغاثة الملهوف والتمتع بالقيم والمثل الرفيعة وتمني الأب والأم في أن يدفنهما الابن وليس العكس. وقد كانت هذه الألفاظ هي التي يتطلبها المقام.

المصادر والمراجع

(١) الأغاني ـ أبو الفرج الاصفهاني ـ دار الثقافة. بيروت. ١٩٥٥ ـ ١٩٦٤م.

(٢) الأمالي ـ أبوعلي القالي ـ طبعة الكتب المصرية.

(٣) دراسات في الشعر الجاهلي. د. نوري حمودي القيسي. بغداد ١٩٧٢م.

(٤) ديوان جرير. تحقيق د. نعمان أمين طه. دار المعارف بمصر.

(٥) ديوان الحماسة ـ أبوتمام الطائي ـ مطبعة الحلبي بالقاهرة ١٩٥٤م.

(٦) ديوان الفرزدق. دار صادر ببيروت.

(٧) ديوان الهذليين ـ نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٥م.

(٨) ذيل الأمالي والنوادر ـ أبوعلي القالي ـ طبعة دار الكتب المصرية.

(٩) الرثاء في الشعر الجاهلي وصدر الاسلام. بشرى الخطيب ـ مطبعة الادارة المحلية، بغداد. ١٣٩٧ هـ ـ ١٩٧٧م.

(١٠) رياض الأدب في مراثي شواعر العرب ـ الأب لويس شيخو ـ المطبعة اليسوعية ـ بيروت.

(١١) السيرة النبوية ـ ابن هشام. دار الفكر ـ القاهرة.

(١٢) طبقات فحول الشعراء. محمد بن سلام الجمحي. شرحه محمود محمد شاكر. مطبعة المدني. القاهرة ١٩٧٤م.

(١٣) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. ابن رشيق القيرواني. تحقيق محمد محيي الدين عبدالحميد. ط٤. دار الجيل. بيروت.

(١٤) عيون الاخبار. عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري. الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣م.

(١٥) الكامل في الادب واللغة. محمد بن يزيد المبرد. تحقيق محمد أبوالفضل ابراهيم مكتبة نهضة مصر. د. ت.

(١٦) مقامات السيوطي. جلال الدين عبدالرحمن السيوطي. مطبعة الجوائب ـ القسطنطينية ١٢٩٨ هـ ـ.

(١٧) نزهة المتيقن شرح رياض الصالحين. محي الدين النووي ط٢ مؤسسة الرسالة ببيروت.

(١٨) نقد الشعر. قدامة بن جعفر. تحقيق كمال مصطفى ط٣ مكتبة الخانجي بالقاهرة.

(١٩) نهاية الارب في فنون الادب. شهاب الدين احمد بن عبدالوهاب النويري ـ نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية.

فهـــرس الاعـــلام

(أ)

(ر)

(ز)

(س)

(ع)

المحتـــــوى

الموضـــــوع | الصفحـــة

مطبعة دبي
DUBAI PRINTING PRESS
P.O.Box 628 Dubai U.A.E.

يعد التراث الثقافي، أحد العوامل المهمة في تطور المجتمعات البشرية، لأنه يمثل النماذج الثقافية التي تتلقاها الأجيال عبر مسيرتها الحضارية.

وفي عصر انفجار المعرفة، المواكبة للتقدم التكنولوجي، واختزال الزمان بتقريب المكان، وسرعة وصول المعلومة دون رقي، ظهرت الرغبة في التحديث.

ادت هذه الرغبة إلى أن يوضع التراث الثقافي - تعسفاً - في مواجهة الحداثة والتقدم. وأدرك عدد من المفكرين العرب هذه المشكلة، وتصدوا لها، فوجدوا انها لا تكمن في التراث نفسه، وإنما في طبيعة علاقتنا به. وطالبوا برؤية عصرية للتراث بحيث تجعله جزءاً منا.

وهذا الكتاب، واحد من الدراسات التي ترجمت هذه الدعوة، حين التفت مؤلفه إلى الماضي المشرق، المرتبط بالحاضر المعاش، ينسجم معه، ويرفده بتجاربه وخبراته.

إن الحياة ديمومة مستمرة، تحمل في احشائها الماضي، وتغذيه بما استجد فيها من غذاء. وهذا الكتاب يؤكد هذه الحقيقة فيما يتصل بأدب الطفل عند العرب، فكان لهم اهتمام به، وأنهم اصحاب رؤى تربوية ثاقبة تتصل بالطفل وثقافته.

لقد جمع المؤلف بين المادة النظرية لأدب الطفل في التراث: منهجاً، وتربية، وتنشئة، وبين الجانب التطبيقي، بما اشتمل عليه من نصوص شعرية ونثرية دالة على سداد هذه المناهج وأهميتها، لا في عصرها الذي شاعت فيه وحده، وإنما في العصور التالية كذلك.

دائرة الثقافة والاعلام

منشورات دائرة الثقافة والاعلام - الشارقة - أ.ع.م.